الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلـــمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة

كلية الآداب والحضارة الإسلامية
قسم التاريخ

بلاد السودان من خلال المصادر الجغرافية العربية

(02هـ -08هـ)(08م-14م)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير

تخصص العلاقات الاقتصادية والثقافية للمغرب الإسلامي بإفريقيا جنوب الصحراء

إعداد الطالب :
محمد كريم

إشراف :
د/ يوسف عابد

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
د/ يوسف عابد	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة-	مشرفا ومقررا
أ.د/إسماعيل سامعي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة-	رئيســـــــا
أ.د / عبد العزيز فيلالي	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري – قسنطينة –	عضـــــــوا
د/ رشيد باقة	أستاذ محاضر	جامعة محمد الحاج لخضر – باتنة –	عضـــــــوا

السنة الجامعية : 1432- 1433// 2011- 2012 .

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (6) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (65).

الأنعام .

صدق الله العظيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إهـــــداء :

إلى قرّة عيني ,وريحانة قلبي ,وسعادة نفسي ...

.إلى الغالية " أمي " .

إلى العزيز على قلبي ،والغالي على نفسي، والساعي على نفعي ...

إلى الغالي " أبي " .

إلى إخوتي وأخواتي .

وإلى أساتذتي وأصدقائي .

أهدي هذا العمل .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

□مقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعتبر منطقة السودان من بين المناطق العديدة التي كانت مجالا للكتابة المصدرية العربية الوسيطة ، فقد احتكرت هذه الكتابات جلّ المعلومات المتعلّقة بتاريخ السودان خلال العصر الوسيط ، وشكّلت لنا خير دليل أو أهمّ مصدر نملكه عن تاريخ المنطقة ، وهذه الظاهرة لا تنسحب على هذه المنطقة فحسب ، وإنّما تنسحب على عدد غير قليل من المناطق الأخرى التي تعرّف عليها المسلمون ، يقول المستشرق الروسي إ ، كراتشكوفسكي في معرض تقييمه للأدب الجغرافي العربي خلال العصر الوسيط : " لا يقتصر محيط الأدب الجغرافي العربي على البلاد العربية وحدها، بل يُمِدّنا بمعلومات من الدرجة الأولى عن جميع البلاد التي بلغها العرب ، أو التي تجمّعت لديهم معلومات عنها ، وذلك بنفس الصورة المتنوّعة التي وصفوا بها بلاد الإسلام ، وقد يحدث أحيانا أن تمثّل المادة الجغرافيّة العربيّة إما المصدر الوحيد أو الأهّم لتاريخ حقبة معينة " [1]، ومن هنا تبرز أهمية المصنّفات الجغرافية العربية إلى أنها كُتِبت في عصر كانت فيه المنطقة السودانية بعيدة عن مجال المعرفة الغربّية ، ولذلك اُعتبرت المعلومات التي وردت فيها مادّة فريدة وأصيلة ، وقد ساعد على ذلك نضج المعارف العربية الجغرافيّة وتطوّرها من خلال ما أقدم عليه العرب من ترجمة الكتب اليونانية والرومانية ، إضافة إلى المعارف الجغرافية القديمة من خلال ما توصّلوا إليه نتيجة أسفارهم ورحلاتهم ، إلى جانب النشاط التّجاري الذي كان قائما بين منطقة السودان وباقي الأقطار العربية ، وبالخصوص العلاقات مع بلاد المغرب الإسلامي شكّل ذلك مجموعة من المعارف حول هذه المنطقة ، اختلفت في مضمونها ومدى تصويرها للحقيقة التاريخية ، فهذه المعلومات تنوّعت بين المعرفة الجغرافيّة التي أصبح من خلالها تحديد الإطار الجغرافي لهذه المنطقة ممكنا ,إلى جانب تحديد الاختلاف بين الأجناس البشرية المستوطنة للمنطقة ، إضافة إلى العادات والتقاليد وبعض النظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة في المنطقة .

إن تتبّع تطور معرفة المسلمين بهذه المناطق انطلاقا مما ورد ذكره في المصادر الجغرافية ،كان من بين القضايا المهمّة التي دفعتني للبحث في هذا المجال ، وقد رأيت أن في العنوان الذي اخترته لهذه الرسالة ، والذي كان باسم " **بلاد السودان من خلال المصادر الجغرافية العربية (02هـ -08هـ)(08م-14م)** " .يحقّق هذا الهدف ،ولكن مثل هذا العنوان يمكن أن يحمل عدة معانٍ ودلالات ، لذلك وجدت نفسي ملزما بتوضيح بعض هذه المصطلحات

[1] اغناطيوس كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ت. صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1963م ، ج1 ، ص 17 .

وضبطها حتى لا يبقى من بعد ذلك مجال للتشكيك قد يُخرِج البحث عن النطاق المخصّص له ، وعليه كان لزاما عليّ ضبط معنى كل من المصطلحين التاليين : بلاد السودان و المصدر الجغرافي .

إن مصطلح بلاد السودان يدلّ في معناه العام على تلك المنطقة المحصورة بين الصحراء الكبرى شمالا ، ومنطقة الغابات الاستوائية جنوبا ، ومن بحر الظلمات غربا ، ليمتدّ من ناحية الشرق إلى بحر القلزم ، وهو يمثّل منطقة جغرافية واسعة تضمّ أجناسا سودانيّة مختلفة ، قُسِّمت هذه المنطقة إلى ثلاثة مناطق أساسية وهي: السودان الشرقي والأوسط والغربي ، و لم يتّسع بحثنا ليشمل هذه المناطق الثلاث ، فقد أقصينا منطقة السودان الشرقي من هذا البحث واقتصرنا على محاولة إبراز المنطقتين الأخريين الوسطى، والغربية فقط ، وعليه يكون النطاق الجغرافي المخصّص للدراسة يمتد من المناطق المنتشرة حول بحيرة التشاد شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، أما الحدان الشمالي والجنوبي فمتغيران وغير ثابتين يتقدمان أحيانا إلى الشمال ويتراجعان أحيانا أخرى إلى الجنوب ، يتحكم في تحديدهما مدى معرفة أصحاب المصادر الجغرافية ببلاد السودان .

أما معنى فكرة المصدر فهي فسيحة إلى حدّ تصبح فيه مبهمة ، فإذا قصدنا بالمصدر الكتابي كل ما يوصل الصوت والحسّ ، فإن ذلك يشمل الشاهد الكتابي ، والرسوم المحفورة في الحجر وفي الصخر ، أو في قطع النّقود ، ...وكل رسالة تحفظ اللّغة والفكرة ، بقطع النظر عن حاملها ، وقد يدفعنا هذا التمديد إلى أن نُقحم في ميداننا : العملة ، والخطاطة ، وسائر العلوم المساعدة التي صارت في الحقيقة مستقلة عن دائرة النص المكتوب [1] ، لذا فإننا في هذا البحث أقصينا كل ما هو خارج عن المصدر الكتابي المُدّون في شكل مصنّفات وكتب ، بمعنى سنقتصر فقط على ما هو مخطوط أو مطبوع ، وأما مصطلح جغرافي ، فهي كلمة مشتقة من جغرافيا ، وهي كما عرّفها حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : "علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض ، وعروض البلدان الواقعة فيها ، وأطوالها ، وعدد مدنها ، وجبالها وبراريها ، وبحارها وأنهارها ، إلى غير ذلك من أحوال الربع "[2] .

---

[1] هـــ.جعيط ، "المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر "، تاريخ إفريقيا العام ، تورينو – إيطاليا ، مطابع كانالي ، 1985م ، ج1 ،ص 103 .

[2] حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بيروت – لبنان ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت ،مج 1 ص 590.

وعليه يكون معنى " المصادر الجغرافية العربية " تلك المصنفات المدوّنة باللّغة العربية – بغض النظر عن أصول مؤلفيها– والتي اهتم واضعوها بتبيين أحوال الأقاليم ، وتبيان أطوال البلدان وعروضها ، وعدد مدنها وجبالها ، وبراريها وبحارها وأنهارها ، إلى غير ذلك من الأمور التي لها علاقة مباشرة بهذا العلم ، فتكون حينئذ هذه الرسالة مخصّصة للبحث عن تطوّر المعرفة العربية عن المنطقتين الغربية والوسطى من بلاد السودان ، انطلاقا من تتبّع ما ذُكِر حول هذه المنطقة في المصادر الجغرافية المدوّنة باللّغة العربية ، في الفترة الزمنيّة الممتدّة من (02هـ/08م) إلى القرن (08هـ/ 14م) ، ومع اعترافنا باتّساع مساحة البحث زمانيّا ومكانيا ، فإن عذرنا في هذا هو قلّة المصادر التي تناولت هذا الموضوع ، فهي في الغالب مصادر تدخل في نطاق كتب الجغرافيا والرحلات .

لقد جاء اختياري لهذا البحث انطلاقا من جملة من **الدوافع والأسباب** كانت حافزا لتناول هذا الموضوع ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

- أن مثل هذا النوع من الدراسات المتعلّقة بتاريخ إفريقيا الإسلامية جنوب الصحراء خاصة ما تعلّق بالعلاقات التي ربطتها ببلاد المغرب والمشرق لا تزال حقلا بكرا أمام الباحثين العرب .
- الأهمية الفائقة للمصنفات الجغرافية العربية والدور المتميز للجغرافيين والرحالة العرب في التعريف بالمنطقة وإخراجها إلى العالمية .
- الاطلاع الذي حظيت به على بعض المصادر والمراجع الجغرافية في مرحلة التدرج .
- دراسة هذا النوع من المواضيع يفتح آفاقا علمية معرفية من خلال ما يتيحه للباحث من التحليل والمقارنة والاستنتاج.
- الرغبة في المساهمة في الإنتاج الفكري في إعادة بناء التاريخ الإسلامي خاصة ما تعلّق منه بمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء .

أمّا فيما يتعلق **بإشكالية** البحث فلا ريب أن المتأمّل في هذا الموضوع سوف تُثار في ذهنه جملة من التساؤلات تحدّد الخطوط العريضة لهذا البحث ، وبحكم أن هذا الموضوع يناقش أساسا التّطور المعرفي الجغرافي العربي عن منطقة السودان انطلاقا ممّا ورد ذكره في المصادر الجغرافية العربيّة المحصورة بين القرنين (02هـ – 08هـ)(08م-14م)،

فإن الإشكالية الرئيسة التي تحاول هذه الدراسة الإجابة عنها هي : **كيف تطوّرت معرفة العرب عن بلاد السودان ؟ وكيف تم الانتقال من مفاهيم وتصورات سطحية إلى بناء معرفة تلامس في العديد من جوانبها الحقائق الفعلية ؟**

ويمكن أن ندرج في سياق هذه الإشكالية الرئيسة مجموعة من التساؤلات الفرعية ومن بينها :

ما هي العوامل والأسباب التي دفعت بالمسلمين للكتابة عن بلاد السودان ؟ وما هي أصناف المصادر الجغرافية التي أوردت لنا معلومات تتعلق بهذه المنطقة ؟ وكيف تحرى أصحاب هذه المصادر الأخبار التي أوردوها عن هذه المنطق ة ؟وما هي مناهجهم في إدراج الأخبار في مصنفاتهم ؟ ثمّ ما هي طبيعة المعرفة التي قدّمتها عن بلاد السودان في بدايات التواصل ؟ وكيف أدّى تطوّر الفكر الجغرافي العربي والرحلة في إطار العلاقات الإنسانية خاصة في جانبها الثّقافي والاقتصادي إلى تغيير الصورة وتجديد المعارف حول المنطقة ؟ ثم ما هو مآل المعرفة العربية عن بلاد السودان نهاية الفترة الوسيطة ؟

وبخصوص **مناهج البحث** فإن طبيعة الدراسة ،وخصوصية الموضوع ،تفرض علينا استعمال مناهج متعدّدة منها:

المنهج التاريخي : من خلال تتبّع بعض القضايا والجزئيات من الموضوع من حيث ذكرها وطريقة تناولها من مصدر إلى آخر مع مراعاة الترتيب الزمني والإطار المكاني .

المنهج التحلي النقدي : وكان اعتمادنا عليه من خلال شرح وتحليل ونقد المفاهيم والدلالات ، واستقراء مضامين النصوص وتحليل مادتها الخبرية .

كما اعتمدت على مناهج أخرى في تناول بعض القضايا والمسائل **كالمنهج الاستقرائي والمنهج المقارن** متوخيا في كل ذلك الوضوح والدقة .

وبخصوص **الصعوبات** فهي في واقع الأمر كثيرة ومتنوّعة ، غير أن أغلبها ذو طابع روتيني تعترض سبيل أي باحث أكاديمي مبتدئ، خاصة في حقل الدراسات التاريخية ، حيث ضرورة بذل مزيد من الجهد والصبر من خلال تصفّح النصوص ، وجمع المادة الخبرية ، وتعريضها للتحليل والنقد والمقارنة ، إضافة إلى أن الكتابة التاريخية الأكاديمية

تفرض على صاحبها توخّي الحداثة كأسلوب ، وتحرّي الأصالة التاريخية كمضمون ، والموضوعية كمنهج ، وخدمة الحقيقة التاريخية كهدف وغاية .

وعموما فإن أهم صعوبات البحث تجلت في التالي :

- مصادر جغرافية عربية تهّم الفترة المدروسة مفقودة ، و لم يبق منها إلاّ شذرات مبثوثة في مصادر أخرى ككتب التاريخ العام وكتب الجغرافيا الوصفية، وكتب الرحلات وغيرها مما يصعّب مهمة معرفة وتتبّع أعمال صاحب مصدر معيّن .
- التّنوّع في المصادر الجغرافية ، ممّا يؤدي إلى التّنوّع في أسماء المواقع والأماكن ، وأسماء بعض الأجناس والسّلالات البشرية المستوطنة للمنطقة .
- الدّلالات اللّغوية التي تحملها بعض المصطلحات ، إذ تُستعمل أحيانا للدلالة على" مكان جغرافي" و أحيانا أخرى تُستعمل "كمعطى بشري" للدلالة على جنس معيّن كمصطلح التكرور مثلا مما يُفرض على الباحث التعامل مع المصطلحات بحذر شديد .

وعليه فإنّ طبيعة هذا الموضوع تفرض علينا تقسيمه زمنيا ، مراعين في ذلك الخصائص المشتركة لهذه المراحل فقد قسّمت البحث إلى فصلين رئيسين يتفرع عن كل منهما مجموعة من المباحث والمطالب الجزئية ، فبخصوص **الفصل الأول** أوردته بعنوان :" التطلّعات العربية لاكتشاف مجاهل بلاد السودان " ،و حدّدته في إطار زمني يمتدّ من القرن الثاني هجري الموافق للقرن الثامن ميلادي وصولا إلى منتصف القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر ميلادي ، وقسّمته إلى أربعة مباحث ، تحدّثت في المبحث الأول منه عن صلة المسلمين ببلاد السودان ، ودور ذلك في تحقيق المعرفة عن هذه المنطقة ، وقد حاولت أن أبرز مساهمة الفتوحات الإسلامية للأجزاء الشمالية من الصحراء ، و أهمية الدعوة الإسلامية والعلاقات المغربية السودانية في تحقيق المعرفة عن هذه الأقاليم ، وفي المبحث الثاني حاولت أن أبيّن مساهمة أصناف المصادر الجغرافية الفلكية والوصفية في هذه الفترة الزمنية في التعريف ببلاد السودان ، ثم تحدّثت في المبحث الموالي عن مصادر الأخبار والمعلومات التي كانت تصل جغرافيي هذه المرحلة الأولى عن بلاد السودان ، والطرق التي تحرّى بها هؤلاء الجغرافيون لأخبارهم عن هذه المناطق وما هي شروطهم في قبول الخبر أو رفضه ، ثم تحدّثت في المبحث الأخير عن نوعية المعارف التي تحققت للمسلمين عن بلاد السودان سواء ما تعلق بالمجال الجغرافي أو بسكان هذه الأقاليم مراعيا في ذلك التطور الزمني ابتداء من القرن الثاني هجري (8م) ، وصولا إلى النصف الثاني من القرن الخامس

هجري (11م) ، وأمّا **الفصل الثاني** الذي أوردته بعنوان :" تطور المعرفة العربية عن بلاد السودان من منتصف القرن (5هـ/11م) حتى القرن (8هـ/14م) " ، فقد أوردته بنفس الطريقة التي اعتمدتها في الفصل الأول ولكن في فترة زمنية مختلفة ، فأوردت في المبحث الأول بعض العوامل التي أحسبها قد ساهمت بشكل فعّال في التطور الذي شهدته المعرفة في هذه المرحلة ، فذكرت في بعض الأمور المتعلقة بالنشاطات التجارية التي ارتبطت بها هذه المناطق مع بعض المناطق الأخرى من العالم الإسلامي ، كما ذكرت أيضا أهمية نشر الدين الإسلامي في هذه المناطق في كسر حواجز عدم التواصل والدفع بالمعرفة إلى آفاق جديدة ، وفي المبحث الثاني تتبعت أصناف المصادر الجغرافية التي دُوّنت في هذه الفترة الزمنية من (**5هـ/8هـ، 11م/14م**)كالمصادر الوصفية والمعاجم والموسوعات والرحلات ، وبيّنتُ مساهمتها في التعريف ببلاد السودان ، ثمّ ذكرت في المبحث الذي يليه مصادر الخبر عند هؤلاء الجغرافيين ، وبيّنتُ الذين قدّموا لنا معارف جديدة من أولئك الذين كان همّهم مجرّد إعادة ما دُوّن في المصادر السابقة ، ثم في المبحث الأخير تجنّبت ذكر نوع المعرفة المحصّلة كون أنها في هذه الفترة اتسعت لتشمل مختلف جوانب الحياة السيّاسية والثّقافية والاقتصادية والدّينية ... إذ يستحيل جمع كل هذه المعلومات ، فرأيت أن أبيّن النقاط المعرفية الأكثر تركيزا عند كل واحد من جغرافيي هذه الفترة مراعيا بالطبع التطور الزمني .

وفي سبيل الإجابة عن الإشكالية المطروحة ، وتحقيق أهداف البحث ، اعتمدت مجموعة متنوّعة من المصادر، وهذا التنوّع مردّه إلى ضرورات البحث التي تُلزم صاحبه بهذا الأمر ، والمطّلع على عنوان هذه الرسالة ، يتبيّن له مباشرة أنه بحث يُعنى – في الأساس – بالمصادر الجغرافية العربية المؤلفة في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثاني للهجرة ، الموافق للقرن الثامن للميلاد ، حتى نهاية القرن الثامن للهجرة ، الموافق للقرن الرابع عشر للميلاد ، وهي فترة زمنية واسعة دُوّنت فيها مجموعة من المصادر الجغرافية موزعة على أصناف العلم الجغرافي ، فنجد منها مصادر تندرج ضمن كتب الجغرافيا الفلكية ، ومنها ما يصنف ضمن مصادر الجغرافيا الوصفية ، كما نجد أيضا مصادر أخرى تندرج ضمن المعاجم ، وكذلك الموسوعات ، والرحلات .

ومن بين **مصادر الجغرافيا الفلكية** اعتمدت على ما كتبه محمد بن إبراهيم الفزاري (ت بعد 180هـ / 796م) انطلاقا مما أورده المسعودي الذي حفظ لنا بعض الفقرات من كتاب " القصيدة في هيئة النجوم والفلك " للفزاري وتضمّنت هذه المقتطفات إشارة مقتضبة لمناطق بلاد السودان هي الأولى من نوعها ، كما اعتمدت أيضا على كتاب

صورة الأرض للخوارزمي (ت بعد 232هـ/846م) ، وفيه حصر لنا هذا المؤلف إحداثيات بعض المدن السودانية وتأتي أهمية هذا النّوع من كتب الجغرافيا إلى أنها حفظت لنا الإشارات الأولى عن مناطق جنوب الصحراء .

كتب الجغرافيا الوصفية :

وقد حصرت ضمن هذا النوع من المصادر الجغرافية 14 مصدرا جغرافيا وصفيا تشّكل مدارس تتقاسم فيما بينها خصائص مشتركة ، فيمكننا أن نجعل من كتابات كل من :" المسالك والممالك" لابن خرداذبه (280هـ/893م) ، و"كتاب البلدان" لليعقوبي (ت 284هـ/897م) ، و"مختصر كتاب البلدان "وابن الفقيه (ت 290هـ/903م) ، وكتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودي (ت346هـ/957م) نموذج تأليفي تضمّن إلى جانب المعلومات الجغرافية، أخبارا تناولت العالم في عمومه وأدرجت فيها بقية العلوم التي لم تجد لها مكانا في الكتب الإسلامية ، وفي هذه المصادر نجد بعض الإشارات البسيطة إلى بلاد السودان وإلى الأجناس التي تستوطنه .

أما المجموعة الثانية من المصادر فيمكننا أن نضمّ إليها "مسالك الممالك" للأصطخري (ت340هـ/951م) وكتاب " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " للمقدسي (ت 387هـ/ 997م) وكتاب " صورة الأرض " لابن حوقل (ت 367هـ/977م) وتشكّل هذه الكتابات مدرسة التزم مصنفوها بضرورات منهجية كالاقتصار على وصف العالم الإسلامي وإهمال ذكر باقي الأقاليم الأخرى وقد ورد في هذا النوع من المصادر معلومات مهمة تخص بلاد السودان خصوصا وأن هذه المنطقة عرفت في هذه الفترة نشاطا تجاريا واسعا مع المسلمين .

البكري (487هـ/1094م) المسالك والممالك : ويُعتبر هذا المصدر من بين المصادر المهمة التي لا غنى لدارس تاريخ بلاد السودان من اعتماده والرجوع إليه ، فهو مصدر يشهد على نباهة صاحبه ، وقدرته على استغلال المصادر واستقصاء الأخبار عن هذه المناطق التي لم يسبق له عهد بها و لم يصل إليها ، وهو يعكس لنا المعارف المغربية والأندلسية عن مناطق جنوب الصحراء .

الإدريسي (ت 560هـ/1160م) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : ويُعتبر مصنّفه امتدادا لكتب الجغرافيا الوصفية الإقليمية ، وهو مصدر مهمّ تنوعت فيه المعلومات عن هذه المناطق ، وقدم لنا تفاصيل كثيرة لم تكن معروفة قبل عصره .

ابن سعيد المغربي (ت **685**هـ/**1386**م) : **الجغرافيا** : وتأتي أهمية هذا الكتاب في أنه ضم بين ثناياه أخبار الرحّالة ابن فاطمة الذي تجول في بلاد السودان وترك لنا وصفا مهما لهذه البلاد ، وقد قام ابن سعيد بنقل أخباره عن بلاد السودان انطلاقا مما أورده هذا الرحالة .

كتب المعاجم :

حُفظت لنا في فترة الدراسة ثلاثة معاجم جغرافية ، جُمِعت فيها معلومات مُهمّة تتعلّق ببلاد السودان ، مستوحاة من المصادر السابقة وهي : معجم البلدان لياقوت الحموي (ت 626هـ/1229م) ، و" آثار البلاد وأخبار العباد " للقزويني (ت 682هـ/ 1283م) ، و " الروض المعطار في خبر الأقطار " للحميري (ت 727هـ/1326م) وتعود أهمية هذه المعاجم في أنها حفظت لنا بعض الفقرات من مصادر ضائعة ، كما أن واضعوها أعادوا ترتيب المادة الجغرافية التي توفرت لهم من المصادر السابقة ، وأعادوا ترتيبها وفق حروف المعجم ما يسهل على مستعملي هذا النوع من المصادر البحث عن المدن والمواقع الجغرافية السودانية .

كتب الموسوعات :

حُفظت لنا ثلاث موسوعات هي : "نهاية الأرب في فنون الأدب " للنويري (ت 733هـ/1332م) , و"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " لابن فضل الله العمري (ت 749هـ/1349م) "وصبح الأعشى في صناعة الإنشا " للقلقشندي (ت 821هـ/1418م) ، وقد حفل هذا النوع من المصنفات بالأخبار المتعلقة ببلاد السودان ، بسبب أن هذا النوع من المصادر وُضِع في فترة متأخّرة مقارنة بالمصادر السابقة ، ممّا وفّر لأصحابها مادة جغرافية قيّمة عن بلاد السودان .

كتب الرحلة :

حظيت بلاد السودان برحلة واحدة فريدة من نوعها ، وهي رحلة ابن بطوطة (ت 779هـ/ 1377م) الموسومة بـــ " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ، وتكتسب هذه الرحلة أهميتها في أن صاحبها وقف بنفسه على كثير من المعلومات التي ذكرها في رحلته ، وكان منهجه في التدوين يعتمد على المشاهدة المباشرة متفوّقا بذلك على غيره من الجغرافيين الذين كانوا مجرد ناقلين لأخبار بلاد السودان من مصادر غيرهم .

مصادر غير جغرافية لمؤلفين كتبوا في الجغرافيا :

لقد حاولت أن لا أكتفي في هذا البحث بالاطلاع على المصادر الجغرافية المقصودة بالدراسة فقط ، بل ألزمت نفسي بالرجوع إلى باقي المصنّفات الأخرى غير الجغرافية التي كتبها هؤلاء الجغرافيون ، لأن ذلك يسمح لي بأن أقوم بمقارنات بين المعلومات التي وردت في مصنفه الجغرافي وغير الجغرافي ، ويُمَكّنُني من معرفة نوع المعرفة التي تحقّقت لهذا المؤلف عن مناطق إفريقيا جنوب الصحراء ، وفي هذا الخصوص اعتمدت على كتاب "التاريخ " لليعقوبي (ت284هـ/897م) الذي جاءت معلوماته في هذا الكتاب أغزر وأكثر تنوّعا مما أورده في كتابه الجغرافي "البلدان" ، واعتمدت كذلك على المصنفات الأخرى للمسعودي (ت346هـ/957م) مثل : كتاب "أخبار الزمان" الذي احتوى بدوره على معلومات مهمّة عن بلاد السودان تختلف عمّا أورده في مروج الذهب .

كتب التاريخ العام :

جاء اعتمادي على مجموعة من المصادر التاريخية في محاولة مني للتثبّت من مدى انتشار المعارف عن إفريقيا جنوب الصحراء وتطورها مع القرون المخصصة للدراسة بداية من القرن (02هـ /08 م) وصولا إلى القرن (08هـ / 14م) ، ومقارنة ذلك مع ما ورد في بقية المصادر الجغرافية المعاصرة لهذه المصادر التاريخية ، فجاء اعتمادي على : مصادر كتبت في القرن الثالث هجري (09م) مثل : تاريخ خليفة بن خياط (ت 240هـ / 855م)، و "كتاب المعارف" لابن قتيبة (ت 276هـ/890م) ، اللّذين حفظا لنا بعض الإشارات المهمّة والمتعلقة بالأجناس السودانية ، ومن مصادر القرن الرابع هجري (10م) اعتمدت على : كتاب "البدء والتاريخ " لابن طاهر المقدسي , ثمّ اعتمدت كذلك على كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (ت 606هـ/ 1210م) في القرن السابع هجري (13م) ، واعتمدت من مصادر القرن الثامن هجري الموافق للقرن الرابع عشر ميلادي كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر للمؤرخ العربي المشهور ابن خلدون (ت 808هـ/ 1406م) .

كتب الفتوح :

واستفدت من هذا النوع من الكتب في معرفة النقاط التي وصلت إليها توغلات المسلمين في الأجزاء الشمالية من الصحراء الإفريقية ، ومن بين هذه المصادر " فتوح مصر والمغرب " لابن عبد الحكم (ت 257هـ/ 871م) ، وكتاب فتوح البلدان للبلاذري (ت 279هـ/ 892م) .

كتب التراجم والطبقات :

تظهر أهمية هذا النوع من المصادر في أنها كُتِبت في الفترات الأولى لعمليات التواصل بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان ، وقد أفادنا هذا النوع من المصادر فيما قدّمته لنا من تراجم لبعض الأشخاص الذين كانت لهم تنقّلات

إلى بلاد السودان ومن بين هذه المصادر على سبيل المثال : كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي (ت 483 هـ/1090م) وكذلك كتاب ابن الصغير أخبار الأئمة الرستميين الذي أفادنا بوجود علاقات تجارية مبكرة بين دولة الرستميّين وممالك من مناطق إفريقيا جنوب الصحراء .

وأما المراجع التي اعتمدتها في هذا البحث فهي كثيرة ومتنوّعة ، يتصدّرها مرجعان أساسيان كانا ركيزتين لي في هذا البحث وهما : الجزء الأول من كتاب " **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** " للمستشرق الروسي كراتشكوفسكي ، فقد قدّم لنا هذا المستشرق تراجم مهمّة لعدد ضخم من الجغرافيين المسلمين وكتابه عبارة عن مجموعة المحاضرات التي كان يلقيها في جامعة "بطرسبورغ "، وهي خلاصة بحثه الذي استغرق نيفا وأربعين عاما كان يتعهده خلالها بالزيادة والتعديل[1] ، وهو مرجع قيم لا غنى لدارس الفكر الجغرافي العربي من الرجوع إليه ، وأما المرجع الثاني فهو مدونة يوسف كيوك الموسومة بـــ(Recueil Des Source Arabes Concernant L' Afrique Occidentale Du 8e au 16e siécle) فقد قام هذا الأخير بجمع النصوص المصدرية العربية التي كُتِبت عن مناطق جنوب الصحراء وقام بترتيبها زمنيا وعلّق عليها ، وقد اعتمدناه خاصة في تتبّع بعض النصوص العربية الضائعة ، إلى جانب الأعمال التي قام بها العرب في إطار دراسة الفكر الجغرافي العربي مثل ما قام به : محمد محمود محمدين " **التراث الجغرافي الإسلامي**" ، وكتاب جمال زكرياء قاسم في كتابه " **الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية** " ، إلى جانب العمل الثنائي الذي قام به "علي الخفاف" و"محمد أحمد عقلة " في كتابهما المعنون بـــ " **دراسات في التراث الجغرافي العربي الإسلامي**" وغيرها من المصنفات الأخرى .

وفي الأخير آمل أن أكون قد وفقت في الإجابة على الإشكاليات المطروحة في هذه الرسالة وأن يكون لهذه الدراسة إسهام في توضيح بعض القضايا المتعلقة بإحدى المناطق الإسلامية التي لم تحظ باهتمام كبير مثل ما حظيت به باقي الأقاليم الأخرى ، كما لا يفوتني أن أتقدم بأسمى عبارات الشكر والثناء والتقدير إلى كل من ساعد على إتمام هذا العمل خاصة إلى أستاذي الدكتور "**عابد يوسف**" الذي كان له الفضل في الإشراف على هذه الرسالة . وكذلك الشكر لجامعة الأمير عبد القادر عمالا وإداريين بفضل ما وفرته لنا من تسهيلات وخدمات .

[1] كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج1، ص 09 .

الفصل الأول :

التطلعات العربية لاكتشاف مجاهل بلاد السودان من ق □ (2هـ/8م) حتى منتصف ق (5هـ/11م)

المبحث الأول : صلة العرب بالمنطقة ودورها في تحقيق المعرفة عن هذه المنطقة .

المبحث الثاني : مساهمة أصناف المصادر الجغرافية في الفترة الزمنية من ق (2هـ/8م) حتى منتصف القرن (5هـ/11م) في التعريف ببلاد السودان .

المبحث الثالث : مصادر أخبار جغرافيي المرحلة الأول عن بلاد السودان .

المبحث الرابع : نوع المعرفة المحصّلة عن بلاد السودان في المصادر الجغرافية حتى منتصف القرن (5هـ/11م).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : صلة المسلمين ببلاد السودان ودورها في تحقيق المعرفة عن هذه المنطقة.

إبراز مساهمة الفتوحات الإسلامية في تحقيق المعرفة .

لم تكن محاولات كشف القارة الإفريقية والولوج إلى أعماقها ، ومحاولة التعرف على سكانها ، وليدة الفترة الوسيطة وإنما تعود إلى أزمنة قديمة تمتد إلى ما قبل الميلاد [1] , فقد ظلت دواخل هذه القارة غالبا أرضا مجهولة " فشعوب أروبا وآسيا لم تكن لديهم أية معرفة أو دراية بهذا الجزء من العالم باستثناء بعض المحاولات البسيطة لاكتشاف ما أطلق عليه العالم القديم والوسيط اسم القارة الغامضة [2] ، أو العالم المجهول، وتقريبا جميع المعلومات التي خلّفتها المصادر في الفترة القديمة ابتداء من" **هيرودوت**" في القرن الخامس قبل الميلاد وصولا إلى كتابات " **بطليموس**" في القرن الثاني للميلاد ، تتحدّث عن شعوب المناطق الشمالية للصحراء الإفريقية دون أن يكون لها تعمّق إلى داخل القارة [3] ، وحتى الإشارات إلى هذه الشعوب لم تكن من الأهمية الكبيرة في شيء ، فهي في العموم تضفي على هؤلاء معلومات تكتسي طابع التهويل والتضخيم ترقى في أحيان أخرى لتصل إلى حد الخرافة والأسطورة[4] .

---

[1] أخص بالذكر الكتابات التي خلفها الإغريق (هيرودوت) ، وكذا المحاولات القرطاجية مثلا رحلة " **حانو**" ودورانه على الجهة الغربية للقارة انظر: بوفيل ، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ت ، الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز ، ط 2، بنغازي ،منشورات جامعة قاريونس ، 1988م ، ص ص 63-64.

[2] عطية مخزوم الفيتوري ، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء(مرحلة انتشار الإسلام) ، بنغاري ، منشورات جامعة قاريونس ، 1998، ص 10.

[3] " ...فهذه تصل بنا إلى الحدود الجنوبية للمغرب فالنيجر الذي تحدّث عنه – بطليموس على سبيل المثال – ليس سوى مجرى مائي في الجزائر الجنوبية ، وفزّان على هذا – هي أقصى منطقة جنوبية كانت معروفة للرومان ..." انظر : ب . سلامة "الصحراء في التاريخ القديم" ، تاريخ إفريقيا العام ، 1985،ج2 ، ص 532.

– انظر الملحق رقم 01.الذي يُمثّل المناطق التي انتهى إليه علم جغرافيي القرن الثاني ميلادي عن دواخل القارة الإفريقية .

[4] يشير هيرودوت إلى محاولة فتية من "**النسمونيين**" اجتازوا الصحراء فقطعوا أرض الوحش ودخلوا الصحراء وبعد مدة أسروا لدى قبيلة كاملة من الأقزام السود في أرض مليئة بالمستنقعات انظر : تاريخ هيرودوت ،ت ، عبد الإله الملاح ، أبو ظبي – الإمارات ، منشورات المجمع الثقافي ، 2002م ، ص 147.

تعبّر هذه المادة المصدرية عن الأشكال الأولى للمعرفة التي تشكّلت لدى الإغريق والقرطاجيين ثم الرومان عن شعوب المنطقة الجنوبية , ولقد تضافرت عوامل عديدة أدّت إلى تشكيل هذا النمط البسيط من المعرفة عن هذه المناطق ، ويمكن إيعاز ذلك إلى عوامل تحكّمت فيها الطبيعة والمتمثلة في مشكلة الصحراء الكبرى بكل ما يمكن أن ينسب لها من صعوبات ومشاكل , خاصة مشكلة الأمن ، ومشكلة نقص مصادر المياه ، ممّا يعرّض كل من يقدم على مثل هذه المحاولات للخطر[1] ، كما تجدر الإشارة إلى عوامل أخرى وثيقة الصلة بالطبيعة البشرية في حدّ ذاتها ، خاصة إذا علمنا أن سكّان الضفة الجنوبية من الصحراء لم يكن لديهم استعداد للتواصل مع سكان الشمال في أيّ مجال خارج التجارة , وحتّى التعامل التجاري حدّدت له ضوابط وقوانين حتى يُضبط هذا التواصل ، ولا يخرج عن هذا النطاق التّجاري المحدّد له[2] ، ويصبح هذا الأمر مقبولا ونتفهّم هذا الطرح ، خاصة إذا علمنا أن الطرف الآخر في عمليّة التّواصل والمتمثّل في أهل الشمال في ربطهم للعلاقات مع الجنوب في أول الأمر ، لم يهدفوا إطلاقا إلى بناء معرفة عن المنطقة لأغراض علمية أو توسعية مثلا ، بقدر ما كان الهدف تجاريا بالدرجة الأولى ، فقد وجد الشماليون في هذه القوانين المطبّقة على عملية التبادل التجاري تحقيقا للغرض المطلوب وهو الحصول على منتوجات جنوب الصحراء ، وبالتالي فلا حاجة للتّعمق في معرفة المنطقة أكثر من هذا .

وعليه فإن هذا التعامل مع " **سلعة الآخر**" وليس مع الآخر في حد ذاته ، هو الذي اصطبغت علية عملية التواصل في بداياتها ، أي المعلومات التي توفّرت لدى الشماليين حتى هذه الفترة تتلخّص فيما يمكن أن يحقّقوه من كسب من وراء هذه البلاد؟ وما هي السّلع والمنتوجات التي تدفعهم لإقامة هذه العلاقات التجارية مع هذه المنطقة ؟ بمعنى اقتصرت المعرفة على السلع المتوفرة فيما وراء الصحراء ، وتدريجيا ارتبط المفهومان " **السلع" و" المكان"**

---

[1] عن بعض الإشارات الواردة عن مخاطر اجتياز الصحراء أنظر : الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، تح ، مجموعة علماء ،مصر ، مكتبة الثقافة الدينية ، د،ت ،مج ، ص 107 ، ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، إسماعيل العربي ، ط 2 ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982، ص ص 111- 113، وانظر: فيما يخصّ نقص مصادر المياه : ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، لجنة من الأدباء ، مصر ، المكتبة التجارية الكبرى ،1958، ج2, ص192.

[2] أقصد بهذا الكلام "**التجارة الصامتة**" التي كانت تقتضي التبادل التجاري دون أن يتم فيه التخاطب بين طرفي التجارة انظر : المسعودي ، أخبار الزمان ، عبد الحميد أحمد حنفي، العراق ، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي ، 1938، ص 65. والعملية مفصلة في كتاب: ج. هوبكنز ، التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية ، ت ، أحمد فؤاد بلبع ، المكتبة الأعلى للثقافة ، 1998، ص ص، 52- 53 ،وكذا عيسى الحريري ، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ،ط2، الكويت، دار القلم ، 1987 ، ص 225.

وأصبحت السّلع تدل على المكان ، وأُدرج ذلك في الاصطلاح اللّغوي ، فأصبح المكان يُقرن بالذهب ، وأصبحنا نجد تعبيرا جديد يدل على هذه المنطقة هو " **بلاد الذهب** "[1] بالإضافة إلى اصطلاح آخر يُغلّب فيه لون البشرة على المكان ، فنجد تعبير " **بلاد السودان**"[2] .

هذه المعلومات النّاتجة عن بدايات التّواصل والمتمثّلة في" **وفرة الذهب في جنوب هذه الصحراء التي يقطنها الجنس الأسود**" ، تأصّلت عند سكان بلاد المغرب ، وأصبحت من المعلومات والمعارف المسلّم بها ، ونقل الرومان هذه المعارف على مدونات شكّلت فيما بعد مصدرا للمعرفة لدى المشارقة عن حقيقة بلاد ما وراء الصحراء ، خصوصا بعد النهضة العلمية وحركة الترجمة التي شهدتها الحضارة الإسلامية زمن الخليفة المأمون[3] .

وبعد الفتوحات الإسلامية شهدت **المعرفة عن منطقة جنوب الصحراء** نقلة نوعية ، ولا أقصد بهذه العبارة المعرفة أيام الفتح الأول ، إنما أقصد بذلك ما تأتّى من نتائج هذا الفتح فيما بعد من توحيد للمجالات السياسية والدينية وحمل الإسلام عن طريق التّجارة والدعاة إلى مناطق جديدة لم تكن معروفة من قبل .

وعليه فلم يتردّد الكثير من الباحثين في إعلان حقيقة أنه بفضل الإسلام والمسلمين ازدهرت المعارف عن بلاد السودان نتيجة تدوين المسلمين لتاريخ المنطقة ، بل وذهب البعض إلى أبعد من ذلك حين أعلن صراحة " أنه بالإسلام يبدأ العصر التاريخي لأفريقية السوداء "[4].

---

[1] ورد هذا الاصطلاح عند الجغرافي الفلكي الفزاري يقصد مملكة غانة ، المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تح ، محمد محي الدين عبد الحميد ، ط 5، بيروت ، دار الفكر ، 1973، ج2، ص 235 . كما أشار ابن الفقيه إلى أن الذهب ينبت في غانة نباتا كالجزر : ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، دي خوييه ،ليدن ، بريل ،1885 ، ص 87.

[2] أخذ بهذا التعبير غالبية المصنفات العربية وهو مصطلح مطاطي يختلف مدلوله الاصطلاحي من مؤلف إلى آخر ، وينطبق عموما على المنطقة الممتدة ماوراء بلاد المغرب والصحراء شمالا ، ومن بحر القلزم في الشرق ، إلى بحر الظلمات في الغرب .

[3] أخص بالذكر ترجمة كتب "**كلاوديوس بطليموس**" وغيره من علماء الهيئة والفلسفة ومدى تأثيره في الإنتاج الفكري ، انظر : جمال الفندي ، الجغرافيا عند المسلمين ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ،1982، ص ص 100 - 101.

[4] أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1230- 1430 ، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، 1999، ص 18، ويستبعد "موني" أن يكون القدماء عرفوا الصحراء جنوب " **التوات**" أو "**الفزان** " وينتهي به البحث إلى التسليم بهذه الحقيقة وهي أن معرفة إفريقيا جنوب الصحراء لم تأت إلا على يد العرب ، انظر : محمد زنيبر ، "تجارة القوافل في المغرب" ، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر ، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ، بغداد ،1984، ص 164 .

وهنا تجدر الإشارة إلى نقطة أساسية في البحث وهي دور الفتوحات الإسلامية في الكشف عن بلاد السودان والدور الذي لعبته في إخراج هذه المنطقة إلى العالمية ؟ وكيف صوّرت لنا المصادر الجغرافية العربية هذا التواصل ؟

الإجابة عن هذا السؤال تقتضي البحث المتأني الدقيق في المادة المصدرية المخلّفة ، سواء كانت جغرافية أو غيرها ، حتى نصل من خلالها إلى استجلاء حقيقة المعرفة العربية عن بلاد السودان حتى فترة القرن الخامس هجري ما يوافق القرن الحادي عشر ميلادي .

موضوع التعامل مع المادة الإخبارية عموما والجغرافية خصوصا يطرح إشكالا كبيرا خاصة إذا علمنا أن هناك فاصلا زمنيّا بين الحدث وتدوينه ، ويزداد هذا المشكل تعقيدا إذا علمنا أن أغلب المصادر التي وصلتنا ، عرفناها من خلال نسخ منقولة عنها فقط ، و لم تصلنا الوثيقة الأصلية ، وعليه فإننا لا نجد في القرن الأول هجري كتابات جغرافية أو حتى غيرها ، تشير إلى الفتوحات الإسلامية في شمال القارة الإفريقية ، ولكن هذا لا يعني انعدام الخبر كلّية فقد خلفت لنا المصادر المتأخرة [1] مجموعة من الأخبار التي تشير إلى عمليات الفتوح للأجزاء الشمالية من الصحراء ، ما يشكل أول احتكاك بين المسلمين وسكان الصحراء .

نجد في هذه المصادر إشارات عن بداية التواصل مع بلاد السودان ، تعود إلى الحملات الاستطلاعية التي قام بها الفاتحون الأوائل والمتمثّلة في حملات " **عقبة بن نافع** "[2] على الأجزاء الشمالية الشرقية للصحراء الكبرى ووصوله إلى مناطق قياسية لم يكن للمسلمين عهد بها ، فقد كانت تحرّكات عقبة بن نافع لا تستند إلى معارف سابقة أو دراية بالمنطقة ، بل كان كل اعتماده في هذه التوغّلات على ما كان يحصل عليه من معلومات من أهل المناطق التي أخضعها ، فكان في كل مرة يسأل هل من ورائكم أحد ؟ حتى وصل إلى منطقة كوار فافتتح قصورها ، ووصل إلى أقصاها ، و لم يستمر أكثر من ذلك ، لأن معرفته عن ما وراء هذه المنطقة توقّفت بحكم أن الدليل الذي كان مع عقبة لا يعرف ما

---

[1] انظر كتب الفتوح على سبيل المثال : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تح ، عبد المنعم عامر ، القاهرة ، شركة الأمل للطباعة والنشر ، وكذا : البلاذري ، فتوح البلدان ، تح ، عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، بيروت ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، 1987 . وكتب التاريخ مثلا : اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، خليل المنصور ، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان ، ط2، 2002.

[2] ولد في أوائل الهجرة النبوية فاعتبر لذلك صحابي المولد ، تولى إمارة جيش إفريقية مرتين ، الأولى كانت من عام(50هـ/670م، 55هـ/674م) والثانية كانت امتدت من عام (60هـ/680م، 64هـ/684م) .

وراء هذه البلاد تجعلنا هذه الإشارة التي أوردها ابن عبد الحكم [1] نتساءل عن مدى ما كان يعرفه العرب الفاتحون عن بلاد السودان [2]، بل وحتى معرفة سكان بلاد المغرب أنفسهم عن الصحراء إذا كان دليل عقبة نفسه لا يعرف ما وراء هذه البلاد ، يجعلنا هذا الأمر نصدر حكم القطيعة المعرفية التي كانت بين ضفتي الصحراء الشرقية قبل وصول المسلمين إليها.

بعد ذلك توالت الإشارات في كثير من المصادر المتأخرة تتحدّث عن وصول عقبة إلى بلاد السودان وافتتاحه كورا منها[3] ، ولكن الغالب على تفسير هذه الإشارات في ذكرها لمصطلح بلاد السودان فإن ذلك يعود إلى أعداد الرقيق الأسْود التي غنمها عقبة في هذه الحملة ، ما جعل أصحاب المصادر ينسبون وصول عقبة إلى بلاد هؤلاء السودانيين .

أما في ما يخصّ الجهة الغربية من الصحراء فعلى الرغم من بعد المسافة الفاصلة بين بلاد المغرب والسودان ، إلا أن المنطقة كانت توّفر مناخا أنسب للتّعرّف على جنوب الصحراء ، فعلى العكس من المنطقة الشرقية التي لا تورد لنا المصادر سوى محاولة واحدة وهي تلك التي قادها عقبة بن نافع ، نجد في المنطقة الغربية عدة محاولات ، أولها تشير إلى وصول عقبة بن نافع إلى السوس ومدينة نفيس وبنائه مسجدا بها [4] ثمّ حملة موسى بن نصير (86هـ/ 97هـ،

---

[1] وردت هذه الإشارة عند ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص 263 ، ونقلها عنه البكري ، المسالك والممالك ، تح ، جمال طلبة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 2003، ج2، ص ص 185- 186.

[2] يعلّق بوفيل على توغل الفاتحين إلى الجنوب بقوله "... وبلغوا واحة "كوار" لكنهم عادوا ، وكانوا على وشك أن يكتشفوا أراضي السودان العشبية ..." ، بوفيل ، تجارة الذهب ، ص116.

[3] تغيب الإشارات عن وصول عقبة إلى بلاد السودان من الجهة الشرقية للصحراء عند ابن عبد الحكم ، والرقيق القيرواني ،والبلاذري ،والمالكي ، وابن عذاري المراكشي ،في حين مصادر أخرى تشير إلى وصوله أنظر : تاريخ خليفة بن خياط ،تح ، أكرم ضياء العمري ، ط2، الرياض ،دار طيبة للنشر ،1985، ص 206.اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، القاهرة ، دار الكتاب الإسلامي ، 1993م ج1،ص 119.ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تح ، علي محمد البجاوي ، بيروت ، دار الجيل، 1996، ج3 ص1076, ابن عساكر، تاريخ دمشق ، تح ، علي شيري، بيروت ، دار الفكر ، 1998، ج40،ص531، ، ابن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تح ، محمد الأرناؤوط ، بيروت ، دار ابن كثير 1986، ج1ص 232.

[4] البكري ، المسالك والممالك ،ج 2، ص 346.ونجد في المصادر بعد البكري إشارات إلى وصول عقبة إلى بلاد السودان أنظر: ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تح ، ج.س.كولان و ليفي بروفينسال ، ط 3 ، بيروت ، دار الثقافة ، 1983 ، ج1،ص 28 .

705م/716م) على السوس الأقصى وسجلماسة ودرعة وكذلك حملة حبيب بن أبي عبيدة الفهري [1] في ولاية عبيد الله بن الحبحاب[2].

تشهد هذه المحاولات على أهمية المنطقة الغربية ودورها البارز في ربط مناطق بلاد المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء ، خاصة وأن المنطقة تتوفّر على مقوّمات تسمح لها بأن تلعب مثل هذا الدور خصوصا إذا علمنا بأن المنطقة كان مجالا جغرافيا لقبائل صنهاجية تجمعها رابطة النسب بالقبائل البربرية في بلاد المغرب [3] ، وعليه فإن العلاقات لم تشهد القطيعة التي شهدتها المنطقة الشرقية ، بل كانت هناك استمرارية في النشاط التجاري وهو الذي أكسب المنطقة بعض الثراء خصوصا الذهب الذي تُشير إليه المصادر العربية ، وتجعله الغنيمة الأولى من مكاسب المسلمين في حملاتهم على هذه المناطق[4] ، إلى جانب الذهب أيضا تشير المصادر إلى غنائم بشرية كالجواري على سبيل المثال وتضفي نوعا من الغرابة على هذا السبي[5] ، وفي ذلك استمرارية للموروث القديم المتمثل في ربط المنطقة بالخرافات والأساطير .

وعليه فإنه منذ بداية عمليات الفتح وحتى انتهاء فترة الولاة في بلاد المغرب كانت المعلومات ضحلة جدّا عن بلاد السودان ، لا تكاد تضيف جديدا إلى الأفكار القديمة الموروثة لدى شعوب بلاد المغرب عن ما وراء الصحراء ،

---

[1] تُشير هذه المصادر إلى وصول حبيب بن أبي عبيدة إلى بلاد السودان انظر: ابن عبد الحكم ، ص 294.البلاذري ص 324. الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية والمغرب ، تح ، عبد الله العلي الزيدان و عز الدين أحمد موسى ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ص 108. ابن عذاري ج1ص51 .ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تح ، أبي الفدا عبد الله القاضي ، بيروت ،دار الكتب العلمية ،1987 ، ج4، ص 412 ، 416.خليفة بن خياط ، التاريخ ، ص 347.ابن عساكر ، تاريخ دمشق ج 37،ص 416.الناصري ، الاستقصا ،ج1، ص 162.ابن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن ، ضبط المتن خليل شحادة مراجعة سهيل زكار ، بيروت ، دار الفكر ، 2000م ، ،ج3،ص 176 كذلك ج4،ص 242.

[2] ولّاه "هشام بن عبد الملك" على المغرب والأندلس بالإضافة إلى عمله بمصر وذلك سنة 116هـ/734م .

[3] نسب "**بعيد**" وهو النسب الحامي (أبناء حام) انظر: ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تح ، عبد السلام محمد هارون ، ط 5، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت ، ص 495 ، و"**قريب**" من حيث اعتبار صنهاجة اتحاد قبلي يضم فرعين شمالي(التلكاتة ، أنوغة ، بني مزغنه ، بنو جعد ، ملكانة ,وآخرون) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 153. وفرع آخر في الصحراء وهم (كزولة ولمتونة ومسراتة ولمطة ووريكة,وآخرون) نفسه ،ج1، ص 57.

[4] بخصوص غنائم المسلمين من الذهب انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص 294 ، وخليفة بن خياط ، تاريخ ، ص 347.

[5] تتمثّل في أوصاف جمال النساء التي لم الناس في الدنيا مثلهن إلى جانب الأوصاف الجسمية للجاريتن اللّتين غنمهما "حبيب بن أبي عبيدة" ، انظر: الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، ص 108 .

وكل الذي حدث هو عبارة عن محاولات لاختراق الصحراء الشمالية ، دون أن يكون هناك إدراك لما وراء هذه الصحراء المجهولة والشيء الذي نجده في الكتابات الجغرافية المتأخرة من وصول الفاتحين إلى السودان [1] ، هو فقط عبارة عن إسقاطات لواقع معلوم على ماض مجهول[2] .

عموما فإن أهمية فترة الولاة ببلاد المغرب لا تكمن في المعلومات المحصل عليها نتيجة توغّلات المسلمين في الصحراء بقدر ما تنعكس الأهمية على أن هذه المرحلة كانت فترة تنظيمية ، تمثلت في إلحاق البلاد بالخلافة الإسلامية وما ترتّب عن ذلك من تنظيمات جديدة ، مسّت جوانب الحياة الاقتصادية والدينية في محاولة لإيصال الدين والحضارة الإسلامية إلى مناطق أخرى من القارة ما أعطى دفعا جديدا للمعرفة عن جنوب الصحراء في القرون الموالية .

أهمية الدعوة الإسلامية في تحقيق المعرفة الجغرافية عن بلاد السودان .

مع انتهاء فترة حكم الولاة ببلاد المغرب ، وحتى نهاية القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي ، بدأت المعارف عن مناطق جنوب الصحراء تأخذ طابعا مختلفا وشكلا متمايزا عما كانت عليه من قبل ، وتغيّرت المعلومة من حيث دقتها ووضوحها وتنوعها في معالجة قضايا جديدة تخص بلاد السودان والسودانيين ، وتغيّرت أيضا من حيث حجمها الذي كانت ترد به في الكتب الجغرافية أو غيرها ، فبعد أن كانت شبه غائبة أصبحت مستهدفة ، لكنها بقيت دائما في نطاق عرضي، ولقد ساعد على هذا التحوّل المعرفي جملة من الظروف والأسباب التي تعود أساسا إلى المستجدّات التي عرفتها بلاد المغرب وانتظامها ضمن حدود الدولة الإسلامية ، واعتناق سكانها للدين الإسلامي وما

[1] من بين هذه الروايات ما ذكره البكري في قوله " وببلاد غانة قوم يُسمّون بالهنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة في صدر الإسلام ..." ، البكري ، المسالك والممالك ، ج 2 ، ص 367.

[2] يُشير عبد الله العروي إلى هذه الحقيقة على حدّ تعبيره بأن"... المؤرخين الغربيين يتخيلون أوضاعا ويصورونها لنا تصويرا مفصلا لأنهم يسحبون على الماضي ما يعرفون عن حقب لاحقة ..." انظر : عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، ط 5 ، الدار البيضاء – المغرب ، المركز الثقافي العربي ، 1996 ، ص 111.

انجر عن ذلك من تنظيمات جديدة في المعاملات التجارية والعلاقات الإنسانية [1]، كما كان في ظهور الدول الإسلامية ببلاد المغرب فرصة لربط العلاقات مع الجنوب .

لقد أثّر الإسلام في دفع المعارف عن بلاد السودان عن طريق توجُّهين مُهمّين ، يتعلّق التوجّه الأول بحثّه على المعرفة وطلب العلم [2] ، ويتعلّق الثاني بدعوته إلى تبليغ هذه الرسالة إلى الأقوام الأخرى، وحتى يكون التحفيز أكبر لتبليغ الدعوة ، فقد رصد هذا الدين مكافآت أخروية مغرية لمن يقوم بمثل هذا العمل، وأما النقطة الثانية فتعود لاهتمامه أيضا بالتجارة وتنظيمه لها [3] وعليه فإن التجارة والدعوة كانت لهما أهمية كبيرة في تحقيق المعرفة عن الشعوب الأخرى ، مما يجعلنا نطرح التساؤلات التالية هل كان هناك فرق بين الداعي والتاجر ؟ وما هو دور كل منهما في صناعة المعرفة عن بلاد السودان , ولمن كان الدور البارز في تحقيق المعرفة للدعاة أم للتجار ؟

تأتي أهمية التجارة والدعوة إلى أنهما نمطان متمايزان من حيث أن كلا الأسلوبين يستوجب السفر والترحال ، وعليه فابتداء من انتهاء عصر الولاة ووصولا إلى قيام دولة المرابطين ، توفّرت للمسلمين حظوظ أوفر لارتياد مجاهل بلاد السودان ، خاصة بعد الأعمال التي قام الوالي الأموي " **عبد الرحمن بن حبيب** (**127هـ/140هـ، 745م/758م**) " من تسهيلات وبنائه لثلاثة آبار على طريق سجلماسة أودغشت [4] ، وقد كان لهذا العمل أهمية كبيرة من حيث أنه دفع بالنشاط التجاري إلى الازدهار من خلال تسهيل مهمة التجار في اجتياز مفاوز الصحراء ،كما "عمل على التقليل من المشقة والأخطار التي كانت تتعرّض لها القوافل التجارية [5] التي كانت تقطع الطريق إلى بلاد

---

[1] يُشير "محمد زنيبر" إلى أنه من بين أهم النتائج الايجابية لدخول الإسلام إلى بلاد إفريقيا والمغرب ما حدث من توسيع لشبكة الاتصالات الإنسانية والاقتصادية داخل القارة السمراء : انظر محمد زنيبر ، "تجارة القوافل في المغرب " ، تجارة القوافل ودورها الحضاري ، ص 161.

[2] أول آية نزلت من كتاب الله تحثّ على طلب العلم " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)" العلق الآية من 01إلى 05 ، إضافة إلى الأحاديث الكثيرة التي تدعوا للمعرفة وطلب العلم حتى لو كان ذلك في الصين" أطلبوا العلم ولو في الصين " .

[3] ومن ذلك مثلا : تحريم الربا والغش والتطفيف في المكيال والميزان .

[4] البكري ، المسالك والممالك ، ج 2 ، ص ص 342- 343.

[5] من بين الأخطار اتّخاذ موضع المياه مرصدا تُغير فيه قبائل لمطة وجزولة على المارّين بقوافلهم : البكري ، نفسه ، ج2 ، ص 343.

السودان ، وازدهرت تبعا لذلك حركة التجارة وعمل أيضا على انتشار الإسلام في بلاد الملثمين حتى أودغشت أولى بلاد السودان"[1] .

وطيلة هذه الفترة خلّفت لنا المصادر التاريخية والجغرافية والفقهية مجموعة متنوّعة من الرّحلات والتّنقلات البشرية قام بها سكان بلاد المغرب وحتى الوافدون عليهم من المشرق أو الأندلس إلى بلاد السودان ، وقد ضمّت هذه القوافل الدّعاة والتّجار معا لكن الإشكالية المطروحة هي هل يمكن مقارنة عدد الدعاة الداخلين إلى بلاد السودان بعدد التجار ؟

بالعودة إلى المصادر التّاريخية ، يُمكننا أن نثبت هذه الحقيقة ، وهي أنه لا يمكن بحال من الأحوال مقارنة عدد الدعاة ، بعدد التجار الداخلين إلى بلاد السودان ، فبينما لا نكاد نسجّل أي رحلة قبل القرن الخامس هجري ، الحادي عشر ميلادي لداعية أو فقيه مسلم [2] ، فإننا بالمقابل من ذلك نسجّل إشارات عديدة لرحلات لتجّار مغاربة ومشارقة وحتى لأندلسيين إلى بلاد السودان ، فقد كان السبب الأكبر الذي حفّز العرب على ارتياد أراض جديدة هو رغبتهم في التجارة [3] ،ولكن بالمقابل من ذلك فإننا لا نجد في هذه الفترة فرقا كبيرا بين الداعي والتاجر ، ففي كثير من الأحيان نجد أن الداعي يتّخذ من التجارة وسيلة لكسب الرزق ،كما نجد التاجر أيضا يدعو إلى الإسلام من خلال تجارته وصدق معاملاته مع غيره من السودانيين ، فقد كان التّجار يقومون إلى جانب أعمالهم التّجارية بالدعوة إلى الإسلام ، وقد ارتبط انتشار الإسلام في القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة في غرب إفريقيا بالتجار إلى الحد الذي أصبح من العسير

---

[1] نبيلة حسن محمد ، في تاريخ أفريقية الإسلامية انتشار الإسلام في السودان الغربي من القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجري ،دار المعرفة الجامعية ، 2007، ص 139.

[2] يستثنى من هذا القول بعضا من فقهاء الإباضية مثل : علي بن يخلف الذي تم على يده إسلام ملك مالي أنظر : الدرجيني ، طبقات المشايخ ، تح ، إبراهيم طلاي ، قسنطينة ، دار البعث ، 1974 ،ج2، ص ص 517- 518.

[3] جمال الفندي ، المرجع السابق ص 138. من بين المستشرقين من يرى بأن العرب لم يتّجهوا إلى هذه البلاد إلاّ لأسباب اقتصادية بحتة تتعلق خاصة بتجارة الذهب أنظر : سعود بن حمد الخثلان ، "المستشرق ترمنجهام ومنهجه في دراسة انتشار الإسلام في غرب إفريقيا وموقفه من الإسلام والمسلمين" ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز : الآداب والعلوم الإنسانية م9(1996) ، ص 205.

معه الفصل بين الحركتين ، مما لا يسمح أبدا بوضع فاصل بين الدور الذي قام به التّجار من جهة ، وبين العلماء من جهة أخرى ، فإنه غالبا ما يجتمع الدوران في الرجل نفسه[1] .

والفرق الذي يمكن أن نميزه بين الاثنين ، هو الهدف الأول من المقصد لبلاد السودان ، فالداعي هدفه الأول هو نشر الدعوة ، في حين يكون هدف التاجر الأساسي هو الكسب والربح ضمن الطرق المشروعة التي يفرضها انتماؤه إلى منظومة الإسلام الدينية , وعليه فإن دخول الإسلام في بادئ الأمر إلى بلاد السودان كان مدينا إلى حد بعيد للتجّار والسبب في ذلك هو أن الكسب الذي يمكن أن يحصل عليه التاجر من ذهب أو رقيق أو غيرها من منتجات بلاد السودان ، لا يتحقّق له إلا بدخوله لهذه البلاد ، في حين أن عمل الداعي لا يحتاج إلى الانتقال لبلاد السودان حتى يُحقّق هدفه الدعوي , فقد كانت أقوام كثيرة سواء في بلاد المغرب أو غيرها تحتاج لمن يعلّمها دينها ، أو إلى من يصحّح عقيدتها وبالتّالي كان التفوق للعمل التجاري على العمل الدعوي .

وعليه فإن المعرفة عن مناطق جنوب الصحراء حتّى فترة القرن الخامس هجري الموافق للحادي عشر ميلادي تحكّمت فيها التجارة وارتبطت بها ارتباطا وثيقا ، ففي هذه الفترة كان النّشاط التّجاري للمسلمين مقتصرا على الأطراف الجنوبية من الصحراء ، و لم يكن التّجار المغاربة يغامرون كثيرا في الدخول إلى أعماق هذه البلاد ، ورغم ذلك فقد تشكّلت مراكز تجارية على الأطراف الشمالية لبلاد السودان[2] ، قرّبت الجنوب من الشمال وأصبحت أسواقا يحتك فيها المغاربة بالسودانيين ، فإلى جانب تبادل السلع والمنتجات كان يتم أيضا تبادل الأفكار والآراء , وبالتدريج تحوّلت هذه المراكز إلى أماكن استقرار لجاليات عربية بالمنطقة [3]،كما أشار إلى ذلك البكري والإدريسي وكذا ابن بطوطة في زمن متأخّر .

---

[1] محمد صالح ناصر ، دور الأباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا ،سلطنة عمان ، الدار العمانية النشر والتوزيع ، د.ت , ص10 .

[2] أقصد من هذا بناء مدينة سجلماسة شمال الصحراء ، وعن أهمية هذه المدينة ودورها التجاري أنظر: شنايت العيفة ، دور بني مدرار بسجلماسة ودور تجارة القوافل ودور تجارة القوافل وازدهارها الحضاري بين القرنين الثاني والرابع الهجريين ، مذكرة ماجستير ، إشراف ، موسى لقبال ، جامعة الجزائر ، 1991 .

[3] بخصوص موضوع الجاليات العربية ببلاد السودان ، أنظر ، خالدي مسعود ، الجاليات العربية والبربرية في إفريقيا جنوب الصحراء (السودان الأوسط والغربي) بين القرنين الخامس والعاشر هجريين الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين ، إشراف ، مسعود مزهودي ، جامعة الأمير ، 2008.

وقد ساعد على الوصول إلى هذه المرحلة من العلاقات المغربيّة السودانية ، وإلى هذا التّمازج ، انتظام الطرق والمسالك التّجارية الرابطة بين بلاد المغرب الإسلامي وأجزاء من بلاد السودان [1] ، خاصة بعد الدور البارز الذي قامت به القبائل الصنهاجية في الجنوب من تأمين لطرق التجارة ، وتسهيل مهمة التّجار في الوصول إلى المناطق الجنوبية للصحراء من خلال تقديمها يد المساعدة للقوافل التجارية كالخفارة والدلالة [2] ، ولعبت دور الوساطة في عمليات التّبادل التّجاري ، كما أن الصحراء لم تعد بالخطورة والإبهام الذي كانت عليه في السابق ، إذ كان للأعمال المشجّعة التي قامت بها الدول المغربية في الشمال فرصة كبيرة في الدفع بالعلاقات التجارية وما ينجرّ عن ذلك من نمو في المعرفة وتطوّرها ، فتتبُّعنا للمادة الإخبارية عن بلاد السودان يُشعرنا بالعلاقة الطرديّة بين النشاط التجاري والمعرفة ، إذ تزداد بازدياده وتنقص بنقصانه ، وبالتالي ستتصدّر المدن الجنوبية للصحراء والتي كانت مركزا للنشاط التجاري [3] الصدارة في حجم وكمية ونوعية المعلومات الواردة عنها في المصادر الجغرافية كأودغشت مثلا ، في حين تقلّ مع ابتعادنا عن هذا المركز إلى أن تنعدم تماما في مناطق الجنوب التي لم يكن لها نصيب من المعرفة ، والتي بقيت مجهولة بسبب تحفّظات التّجار المسلمين من دخولها ، وحتى الأعداد القليلة من التّجار التي وصلت إلى مناطق الجنوب لم تكن من الكثرة ما يمكنّها من المساهمة المعرفية في بناء تصور عن هذه المناطق لدى شعوب بلاد المغرب .

الأمر نفسه نجده في مدن الشمال ، فالمعارف عن مناطق جنوب الصحراء لم تكن نفسها في جميع المدن وعند جميع سكان بلاد المغرب ، بل كانت تتفاوت من مدينة إلى أخرى ، والأمر المحدّد لذلك هو مدى قوّة العلاقات التجاريّة التي ربطتها مع مدن بلاد السودان ، وعليه فإن سكان قلعة بني حماد [4] مثلا ،لن تكون معارفهم عن مناطق

---

[1] ثلاث طرق أساسية ربطت بلاد المغرب ببلاد السودان : طريق شرقي , أوسط , غربي ، انظر : بان على محمد البياتي ، النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال (القرن 3-5هـ/9-11م)، مذكرة ماجستير آداب في تاريخ المغرب الإسلامي ، إشراف ، صباح إبراهيم الشيخلي ، جامعة بغداد ، 2004 ،ص ص 53- 54.

[2] اشتهرت قبيلة "لمتونة" بالخفارة وقبيلة "مسّوفة" بالدلالة . ابن حوقل ،صورة الأرض ، بيروت – لبنان ، منشورات دار مكتبة الحياة ، 1992، ص ص 98-99.

[3] مثل مدن : غانة , كوكو ، أودغشت .

[4] لم أجد في المصادر إشارة من شأنها إن تفيدنا بقيام علاقات تجارية بين الحماديين وبلاد السودان .

الجنوبية للصحراء كتلك التي كانت عند أهل مدينة سجلماسة التي تعتبر على حدّ تعبير البكري [1] حدّا فاصلا بين المغرب والسودان وبوّابة لولوج مفاوز الصحراء.

كما نجد بأن مدن الدّولة الرستميّة مثلا توفّرت لها معرفة أحسن من بقية مدن المغرب الإسلامي [2] بحكم سيطرة هذه الدولة على الأجزاء الشمالية للصحراء ، وعليه فقد توفّرت لها فرص أفضل للوصول إلى مناطق الصحراء الجنوبية وإقامة علاقات تجارية أو حتى دبلوماسية مع ملوك بلاد السودان ،كما نجد أيضا مدينة القيروان في المغرب الأدنى توفّرت لها بعض الفرص بحكم أنها كانت مركزا جمع بين التّجارة والعلم ، وفي عهد الأسرة الزيرية وصلت هدايا من ملوك السودان للأمراء الزيريين[3] وفيها إشارة إلى العلاقات وإلى التّنقلات البشرية بين المنطقتين .

هذا **التعامل التجاري على الأجزاء الشمالية والتوغّل في أعماق** الصحراء سينشّط معارف أهل الشمال عن بلاد السودان وعن أهلها ، وعن سلعها وعادات سكانها ومدنها إلى غير ذلك ممّا يمكن وصفه وتقريبه إلى سكّان بلاد المغرب ، الذين لم يتسنّ لهم الوصول إلى هذه البلاد كما أنّ هؤلاء التّجار الذين وصلوا إلى بلاد السودان سيشكّلون مصدرا مهما من مصادر المعرفة لدى شعوب بلاد المغرب ، سواء تعلّق الأمر بتدوين مشاهداتهم في كتب ومصنّفات ، وهو الأمر الذي لا نجد له صدى على الأقل قبل القرن الرابع هجري (10م) أو تعلّق الأمر بنقل معارفهم إلى شعوب بلاد المغرب عن طريق الاحتكاك بهم ومساهمتهم في بناء تصور مغربي عن المناطق التي وصلوها من مناطق جنوب الصحراء ، ومن ثمّ نجد هذا الأمر له من الأدلّة ما يشير إلى صحّته خصوصا إذا علمنا أن أسماء مدن ومناطق سودانية أضيفت إلى قاموس المصطلحات المعرفية للمغاربة كتلك الأسئلة والأجوبة التي تحملها كتب الطبقات [4]

---

[1] البكري ، المسالك والممالك، ج2 ،ص 333.

[2] نقبل هذا القول بحكم العلاقات التي ارتبطت بها مدن الدولة الرستمية مع بلاد السودان كما كانت تاهرت الرستمية مسرحا لتأليف بعض الكتب التي ذكرت فيها بلاد السودان مثل: كتاب ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين ، تح ، محمد ناصر وإبراهيم بحاز ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1986م .

[3] وصلت الهدية الأولى سنة (382هـ/992م) في عهد المنصور والثانية كانت سنة (423هـ/1032م) في عهد المعز انظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج2، ص 246 ، وكذا ص 275.

[4] انظر ترجمة سكن الصائغ: المالكي ، كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، تح ، بشير بكوش ، ط 2، بيروت – لبنان ، دار الغرب الإسلامي ، 1994، ج1ص 182.وكذا ترجمة أبو عبد الله زرارة بن عبد الله ، نفسه ،ج1 ، ص 282.

والنوازل[1] والتي تشير إلى أن العامة من الناس أو حتّى الذين لم تتوفّر لهم فرصة السفر إلى بلاد السودان أصبحت تدرك بعض المفاهيم الصحيحة عن هذا المكان .

مساهمة العلاقات المغربية السودانية في تحقيق المعرفة الجغرافية .

أشار "موريس لومبارد" في كتابه "الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى" إلى أن العالم الإسلامي في هذه الفترة ،كان في حاجة ماسة إلى الذهب والعبيد اللّذين بدأ يفرضهما التطور الحضاري للعالم الإسلامي وانتشار حياة التّرف والبذخ ، وما يتطلّبه ذلك من استعمال واسع للذهب ، سواء كان ذلك في الأمور النقدية [2] أو التّزيينيّة ، إلى جانب استعمال العبيد في مجالات الحياة المختلفة ، هذا الطلب المتزايد على هذه السلع أدّى بالتّجار إلى البحث عن مصادر جديدة لتمويل هذا النقص في هاتين السّلعتين ، ولّما كانت بلاد السودان أحد هذه المصادر ، فلم يدّخر التّجار جهدا للوصول إليها واستخراج هذه السلع منها ، وبسبب تعطّل الطريق الشرقي الرّابط بين مصر وجنوب الصحراء كما أشار إلى ذلك ابن حوقل [3] ، فإن بلاد المغرب أصبحت المنفذ الوحيد إلى هذه المناطق ، فانتشرت فيه الحركة التجارية ، وانتقل إليه التجار من المشرق الإسلامي وبلاد الأندلس ، وجعلوا من مدن بلاد المغرب مراكز للانطلاق نحو بلاد السودان ، مما أكسب بلاد المغرب أهمية تجارية بالغة ، فكانت المصدر الرئيس في تدفّق المعلومات من مناطق جنوب الصحراء الناتج عن حركة القوافل بين المنطقتين بحيث كانت تخرج من مدن بلاد المغرب بمنتوجاته ، وتعود محملة بالسلع بلاد السودان وبالمعرفة والأخبار الجديدة عن هذه المناطق السودانية ، فكان مدى اتساع النشاط التجاري محدّدا لمدى التطور المعرفي عن هذه المناطق ، وتدريجيا وبعد قيام الدول في بلاد المغرب الإسلامي ، أخذت التجارة أبعادا جديدة من خلال مجموعة الأعمال التي قامت بها من أجل تسهيل عملية إنفاذ القوافل إلى بلاد السودان ، وتسهيل عملية التبادل التجاري سواء كان هذا في بلاد المغرب أو في الصحراء أو حتى في بلاد السودان ، فمشاركة

---

[1] في السؤال الذي طُرِح على القابسي وردت فيه أسماء مدن سودانية هي : تاد مكة ، غانة , أودغست , انظر فتوى القابسي: الونشريسي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء إشراف محمد حجي ، الرباط ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، 1981، ج 9، ص 116.

[2] موريس لومبارد ، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ت. عبد الرحمن حميدة ، ط1، دمشق ، دار الفكر ، 1982 ، ص ص 143- 147 .

[3] ." وفيها الطريق من مصر إلى غانة فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردهم ، فأهلكت غير قافلة ، وأتت على غير مفردة ، وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة ، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة ....". ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 143.

السلطة السياسية للأعداد الكبيرة من التّجار الذين اهتموا بالتجارة الصحراوية ، ولّد إلزامية في ربط العلاقات مع الطرف الآخر المتمثل في ملوك السودان ، سواء كانت هذه العلاقات تجارية أو دبلوماسية أو غيرها بغرض تسهيل التعامل التجاري ، لكن يتفاوت هذا الاهتمام باختلاف الدول فمن بين التي كان هذا شغلها الشاغل ، نجد دولا أخرى لم تول هذا الأمر أيّ اهتمام .

وتُعتبر "**الدولة الرستمية**" سبّاقة في هذا المجال ، فقد خلّفت لنا النصوص الإباضية وغيرها مجموعة أخبار تُشير إلى الاهتمام الذي أولاه الأئمة الرستميون بالعلاقات مع بلاد السودان ،" فقد أدى استقرار الأباضية على أطراف الصحراء في واحات فزّان وجبل نفوسة وغدامس وواحات الجزائر ووارجلان وسدراته ثم وادي ميزاب منذ القرن الثامن الميلادي ، إلى ارتباطهم القوي بتجارة الصحراء " [1] فإلى جانب الثّراء والاستقرار الذي عرفته هذه الدولة كانت أيضا رقعتها الجغرافية لا تساعدها في التعامل مع بلاد السودان فقط بالقدر الذي كانت تفرضه عليها .

لقد عملت هذه الدولة على تشجيع التواصل مع بلاد السودان من خلال تذليلها للصعاب واهتمامها بالطرق والمسالك التجارية فقد أشار ابن الصغير إلى ذلك بقوله " واستعملت السبل إلى بلاد السودان " [2] ففي تعبيره هذا واستعماله للبادئة " است " إشارة إلى أن للإباضية دورا في تعهّد هذه الطرق وحمايتها وجعلها سالكة [3] ، كما قامت بربط علاقات متعدّدة مع دولة بني مدرار بسجلماسة [4] ، تسهيلا للحركة التجارية ما يسمح بالتوغل في الصحراء الكبرى وصولا إلى السودان .

---

[1] محمد صالح ناصر ، دور الأباضية في نشر الإسلام ، ص 11

[2] ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين ، ص 32.

[3] اشتهرت في تاهرت ثلاث طرق تصلها ببلاد السودان ، طريق يصل بين تاهرت وغانة بواسطة سجلماسة ، وطريق يصل بين تاهرت ووارجلان ليتّجه إلى تادمكت ثم كوكو ثم غاو وطريق تصل تاهرت بإفريقيا الشرقية إلى طرابلس مرورا بالقيروان ، محمد صالح ناصر ، المرجع السابق ، ص 15.

[4] ذكر ابن خلدون أن "اليسع" أصهر "لعبد الرحمن بن رستم" صاحب تاهرت بابنه "مدرار" في ابنته "أروى" فأنكحه إيّاها أنظر : ابن خلدون ، التاريخ ،ج 6،ص 172. ويعلّق جودت عبد الكريم على أن هذا الزواج كان تتويجا للعلاقات التجارية ويصفه بالزواج السياسي أنظر : جودت عبد الكريم ، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،1984، ص 215.

سجّلت لنا المصادر التاريخية نموذجين من الرحلات انطلقت من تاهرت ووصلت إلى بلاد السودان، وكان لكل منهما أهميتها في صناعة المعرفة عن هذه البلاد ، حيث تتعلّق الأولى بـــ" **الرحلات التجارية**" أما الثانية فهي"**الرحلات الدبلوماسية**" فأما الأولى فكان إسهامها في تحصيل المعرفة ضعيفا ،و لم يتحقّق لها من الإمكانية ما تحقّق للنموذج الثاني من الرحلات التي كانت تنفّذ بتحضيرات واهتمامات واسعة ، ما يجعلها تدوّن أو تذكر في بعض الكتب أو على الأقل تبقى محفوظة في الذاكرة الجماعية ، وهذا النموذج لا نعثر له على مثيل آخر في بلاد المغرب على الأقل حتى فترة القرن الخامس هجري الموافق للقرن الحادي عشر ميلادي، يكاد يكون هذان النموذجان من الرحلات واحدا ، والاختلاف بينهما يكمن في أن الأولى تنفذها السلطة الحاكمة على شكل سفارة [1] ، وتكون تتويجا لتوسع المبادلات التجارية ، في حين الثانية قد تكون من مجهود شخصي لتاجر أو لمجموعة تجار قد لا تربطهم أية رابطة بالسلطة الحاكمة ، ولكنّنا نجد في كثير من الأحيان روابط وثيقة بين هذين النموذجين من الرّحلات لأنهما يشتركان في الأهداف .

وإذا تحدّثنا عن النموذج الدبلوماسي من الرحلات فإن أول إشارة تستدعي الوقوف عندها هي إشارة أبي الربيع سليمان الوسياني عندما ذكر أن الإمام أفلح منع من السفر إلى بلاد السودان ، لأنه لم يعرف الإجابة عن مسألة فقهية بخصوص الربا ، قد لا يكون الغرض من هذه الرحلة دبلوماسيا بقدر ما كان الغرض منها تجاريا ، لأن في معنى الخطاب الذي ردّ به الإمام عبد الوهّاب على ابنه بقوله " ارجع لئلا تطعمنا الربا" [2] يحمل معاني هذا الغرض.

لم يقدّر لأفلح السفر إلى بلاد السودان ولكن رغبته هذه تجسدّت فيما بعد عندما أنفذ " **محمد بن عرفة**" بهدية سفيرا إلى ملك السودان ، وقد ترك لنا ابن الصّغير [3] وصفا لهذا السفير الذي أعجب ملك السودان به يبته و بجماله و بفروسيته ، ويطرح جودت عبد الكريم [4] مجموعة تساؤلات فيما إذا كانت سفارة محمد بن عرفة هذه ردا على سفارة سودانّية قد حلّت من قبل على ملك السودان على الإمام الرّستمي ؟ وما إذا كان بالإمكان اعتبار أن هذه أوّل سفارة تاهرتيّة تنزل على ملك السّودان ، أم سبقتها سفارات أخرى ؟ لا تسعفنا المادّة الإخبارية حتّى هذه اللحظة في تقديم

---

[1] من الجدير بالذكر أن السفارة في ذلك العهد ، كان لها معنى غيره في هذه الأيام، فهي لم تكن وظيفة من وظائف الدولة الدائمة ، وإنما كانت مهمة طارئة يسندها الخليفة أو الأمير إلى من يشاء ، وتنتهي بانتهاء المهمة . جودت عبد الكريم ،العلاقات ، ص 238.

[2] أبو الربيع الوسياني ، السير ، تح: عمر بن لقمان حمو بوعصبانة ، سلطنة عمان ، وزارة التراث و الثقافة ،2009. ج 1، ص 328.

[3] ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين ، ص 62.

[4] جودت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص 239.

إجابة عن هذه الإشكاليّة لكن بالمقابل من ذلك تحكيمنا لما ورد في المصادر يجعلنا نميل إلى الرّأي القائل بأن هذه السفارة لم تكن أوّل سفارة تاهرتية إلى بلاد السودان فحسب ، وإنما كانت أوّل سفارة مغربيّة تصل بلاد السودان على الإطلاق ، وعلى الرغم من أن أخبار هذه الرّحلة لم تدوّن وما خلّفته المصادر عنها قليل ، إلا أنّها تركت لنا على الأقل تصريحا واضحا يفيد باتصالات دبلوماسية بين بلاد المغرب والسودان ، ونعرف بوضوح أحد أطراف هذا التّواصل .

أما الدولة الثانية التي لعبت دورا في التقريب بين الشمال والجنوب فهي دولة بني مدرار بسجلماسة ، فقد كانت المدينة محطّة تجارية مهّمة وسوقا رائجة ، وعبرها كانت تنفذ القوافل إلى بلاد السودان ما يجعلها خزّانا معرفّيا مهمّا عن هذه المنطقة ، "وحسبنا أن عناصر سودانية أسهمت في إقامة هذه الدولة وتصدّت لزعامتها حتى كان أول أمرائها سودانيّا يدعى "عيسى بن الأسود" واستقرت هذه العناصر في سجلماسة ، وكان لهم حصن خاص يعرف بحصن السودان ، ولاشك في أنهم ساعدوا على توثيق الصلة بين وطنهم الأم وموطنهم الجديد ، فكانت سجلماسة حلقة اتّصال بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي"[1] .

يتجسّد الدور البارز الذي لعبه الخوارج في الدفع بالمعرفة عن جنوب الصحراء نحو الأفضل في السّماح لباقي القوافل باستعمال الطرق المارة في مجالات أراضيهم وباستعمال أسواقهم ومراكزهم التجارية ، و لم يكن ليعكّر صفو هذه التجارة شيء ، "فلم تحل العلاقات السياسية غير الودية بين دولتي الخوارج وبين أعدائهم السياسيين والمذهبيين ، دون استمرار الصّلات التّجارية " [2] ، ما سينعكس بالإيجاب على النّمو المعرفي عن بلاد السودان ، انطلاقا من عمل هؤلاء التّجار .

أما العلاقات بين السودان والأدارسة في المغرب الأقصى ، فليست لدينا نصوص صريحة عنها ولكن نسبة إلى الرواية التي يوردها الإدريسي والتي تقول أن ملك غانة من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، أنّه كان ثّمة علاقات بين السـودان والأدارسة [3]، كما أن جهـودهم في التوسع إلى الجـنوب أوصلتهم إلى مدينة

---

[1] محمود إسماعيل ، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري ، ط 2، الدار البيضاء – المغرب ، دار الثقافة ، 1985، ص 280.

[2] نفسه ، ص 276.

[3] نبيلة حسن محمد ، في تاريخ أفريقية الإسلامية ، ص140 .

تامدلت[1] وتكمن أهمية هذا الانجاز في أنه يمثّل دعما وتشجيعا للنشاط التجاري بين بلاد المغرب الأقصى وبلاد السودان عبر الصحراء[2].

ومع الزيريين تصلنا إشارات إلى العلاقات التي ارتبطت بها هذه الدولة مع بلاد السودان وتسجل لنا المصادر في هذه الفترة رحلتين دبلوماسيتين تمثّلت في وصول هديتين من ملوك السودان كان أولها سنة (**382هـ/ 992م**)، في عهد المنصور وفيها حيوان الزرافة [3] والثانية كانت سنة (**423هـ/ 1032م**) في عهد المعز ،وفيها رقيق كثير وزرافات وأنواع غريبة من الحيوانات[4] ،ولكن بالمقابل من ذلك لا تذكر المصادر أية هدّية بعث بها أمير زيري إلى ملك من ملوك السودان ، فهل هذا يعني أن السودانيين أصبحوا هم المبادرين في ربط العلاقات والخروج من هذه العزلة لمعرفة الأقطار الأخرى؟ أم أن الأمر يتعلق بإشكالية الولاء والانتماء للمذهب الإسماعيلي الشيعي[5] ؟

إلى جانب هذه العلاقات التي ارتبط بها الطرفان الشمالي المغربي و الجنوبي السوداني من إنفاذ الرحلات والتنقلات بين المنطقتين وما يمكن أن تسهم به هذه الأعمال من دفع المعارف عن بلاد السودان ،كان هناك عامل آخر له إسهامه في صناعة المعرفة عن إفريقيا جنوب الصحراء ، وهي الأعداد الكبيرة من العبيد السود الذين كانوا يُجلبون من هذه البلاد ، ورغم أن المصادر لا تشير إلى عددهم ولو بشكل تقريبي إلا أنه من المتوقع أن يكونوا جماعة وافرة العدد[6] فقد استخدم هؤلاء العبيد في خدمة الملوك والأمراء المغاربة ، فالمصادر تشير إلى أن أول من استخدم العبيد السود

---

[1] وتامدلت بلد من بلاد المغرب شرقي "لمطة "وقيل "تامدنت "بالنون مدينة في مضيق بين جبلين في سند وعر ، ولها مزارع واسعة، وحنطة موصوفة من نواحي إفريقية . ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص100.

[2] بان على محمد البياتي ، النشاط التجاري في المغرب الأقصى ، ص 28.

[3] ابن عذاري المراكشي ،البيان ، ج1، ص 246.

[4] نفسه ، ج1، ص275 .

[5] وردت إشارة عند المهلبي بأن أهل أودغشت أسلموا على يد المهدي عبيد الله انظر : الحسن المهلبي ، الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك ، جمعه تيسير خلف ، دمشق ، التكوين للطباعة والنشر ،2006، ص 46 .

[6] جودت عبد الكريم , العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ص267 .

في الجيش هم الأغالبة، فقد جمع منهم "**إبراهيم بن الأغلب**" خمسة آلاف أسود وجعلهم في قصره [1] ،كما أن "**إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب**" في أحداث سنة (279هـ، 892م) استخدم السودان في عسكره [2] ، أما الأمراء الزيريون فاستعملوا العبيد السود وتقوّوا بهم على أعدائهم كما فعل " **عبد الله بن محمد الكاتب**" [3] عامل إفريقية ، فهذه الأعداد الكبيرة من الرقيق السود المنتشرة في بلاد المغرب ستساهم حتما في تقديم معلومات لمن تهمه الكتابة عن بلاد السودان، بحكم أن أخبار هؤلاء لها من المصداقية كون هؤلاء العبيد خبروا البلاد واستوطنوها .

مجموعة هذه العوامل المذكورة شكّلت لنا الإطار العام الذي كانت تذكر ضمنه المعلومة وكلها عوامل كانت تدفع بالمعارف نحو التحسن وضمنها وصلتنا أولى الكتابات عن المنطقة .

ممّا سبق يتبين لنا أن الحضارة الإسلامية بشرائع الدين وتشجيعها للعلم ولاتساع رقعتها ولنشاط المسلمين السياسي والاقتصادي أثر واضح في زيادة النشاط الجغرافي على صعيد جمع المعلومات سواء تلك المتعلقة بالعالم الإسلامي ، أو بتلك المتعلقة بالمناطق التي تعتبر مجالا لنفوذ المسلمين .

---

[1] البلاذري ، فتوح البلدان ، 328. والبلاذري لا يذكر مصدر هؤلاء العبيد أو لونهم ، لكن محمد الطالبي يرى بأنهم عبيد أسود أنظر: محمد الطالبي ، الدولة الأغلبية التاريخ السياسي (184هـ-296هـ/ 800-909م)،ت. المنجي الصيادي ،ط2، 1995، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1995، ص 158.

[2] ابن عذاري ، البيان ،ج1، ص 123.

[3] نفسه ، ج1 ، ص 239.

المبحث الثاني : مساهمة أصناف المصادر الجغرافية في الفترة الزمنية من ق (2هـ|8م) حتى منتصف ق (5هـ|11م) في التعريف ببلاد السودان .

تبلور الكتابة الجغرافية عند المسلمين .

يُعتبر الحديث عن أي نوع من الأنواع التي يمكن إدراجها ضمن معنى الكتابة الجغرافية قبل القرن الثاني الهجري سابقا لأوانه [1]، فالعرب الذين استوطنوا شبه الجزيرة العربية لم يعرفوا معنى التأليف في الأصل ، وكل الذي اعتمدوا عليه في نقل المعلومات والمعارف هي المشافهة والحفظ ، وحتى المعرفة الجغرافية التي توفّرت لهم ،اقتصرت على بعض المعلومات البسيطة والمتعلّقة بحركة الكواكب والنجوم التي أفادوا منها في سراهم في الليل [2] ، وببعض المواقع الجغرافية التي لا تتعدى حدود الجزيرة العربية إلا نادرا [3]، غير أن ظهور الإسلام وانتشاره في القرن الأول هجري الموافق للقرن السابع الميلادي ، شكل نقطة مهمّة في التقدّم بهذه المعرفة الجغرافية إلى آفاق جديدة لا تستهدف الجزيرة العربية فحسب ، إنما تستهدف غالبية الأقاليم والأماكن التي وصلها الإسلام أو حتى تلك التي كانت مجالا للتعامل التجاري مع المسلمين .

لقد ساعد على أهمية المرحلة الإسلامية ذلك التواصل الذي تمّ للعرب مع غيرهم من الأمم الأخرى خاصة بعد عملية الفتوحات الإسلامية التي حملت العرب بعيدا عن حدود جزيرتهم إلى مختلف الأقطار ، وهذا الأمر الذي كان من شأنه أن يُحدث تغييرا شاملا في تصويرهم للعالم ويؤدي بلا ريب إلى اتساع أفقهم الجغرافي [4] .

لقد ساهمت عوامل عديدة دفعت بالمعارف الجغرافية للمسلمين إلى الازدهار ، ودفعتهم إلى المساهمة في التأليف والتدوين ، وقد ساعدهم في ذلك مجموعة من العوامل منها عاملان أساسيان والبقية عوامل مكمّلة ، ويتعلّق العامل

---

[1] يُرْجِعُ كارلو نلينو ذلك إلى فتوح البلدان والجهاد لنشر الإسلام واشتغال المسلمين بالسياسة والحرب والأمور الدينية، واستمر الأمر على حاله بعد قيام الدولة الأموية التي اشتغلت بإحياء علوم الجاهلية كالشعر والأخبار ..." .أنظر : كارلو نلينو ، علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، ط2 ، بيروت ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، 1993م ، ص 137.

[2] عن معارف العرب بالسماء والنجوم ، انظر: كرلو نلينو ، المرجع السابق ، ص ص100- 107.

[3] اغناطيوس كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج1 ، ص 44.

[4] نفسه ،ج1 ، ص 50.

الأول باتساع رقعة الخلافة الإسلامية والتي أصبحت تشمل أقطارا واسعة من القارات الثلاث آسيا ، وإفريقيا ، والجزء الجنوبي الغربي من أوروبا، فقد كان هذا التوسع الذي صحبه توحيد للمجالات السياسية فرصة لتسهيل عملية الانتقال والرحلة ضمن أقطار هذه الخلافة ، سواء تعلّق هذا الانتقال بالأغراض الدينية التي يفرضها الانتماء إلى الدين الإسلامي كالحج مثلا ، وما يتطلّبه من معرفة بالطرق الموصلة إلى مكة والمدينة ، أو بغرض التجارة وهو الأمر الذي يتطلّب معرفة بالمسالك المفضية إلى مختلف الدول والممالك ، إلى جانب هذا ، فإن مركزية التسيير التي تجمّعت خيوطها في بغداد ودمشق تطلّبت البحث عن طرق جديدة للمواصلات ، واستقصاء معلومات دقيقة عنها مع تحديد مراحلها وحساب مسافاتها[1] ، فقد شكّلت هذه النقاط الثلاثة موردا معلوماتيا مهمّا عن باقي الأقطار الإسلامية ستتجسّد هذه المعارف ضمن أولى المصنفات بعد ظهور حركة التأليف .

أما الأمر الثاني الذي ساعد على تطوّر المعارف الجغرافيّة فيتعلّق بالاتصال الذي شهدته الحضارة الإسلامية بغيرها من الحضارات ، سواء تعلق الأمر بحضارة اليونان أو الهند وما نجم عن هذا من ترجمة علوم هؤلاء إلى اللغة العربية[2] ، فقد وفّر هذا الاتصال للعرب بعض المناهج للاحتذاء بها ، فقد كان العرب حديثي عهد بالتأليف ، ووجدوا في هذه المناهج الوعاء الذي أفرغوا فيه معارفهم التي اكتسبوها عن بلاد الإسلام والمناطق المجاورة لها .

وفي هذا الإطار بدأت تظهر لدينا أولى المصنفات العربية في المجال الجغرافي [3] ، والتي بدأت تعكس لنا مدى تطوّر المعلومات والمعارف التي تجمّعت للعرب عن بلاد الإسلام والمناطق والمجاورة لها ، وكثيرا ما شكّلت لنا هذه المادة الجغرافية كما عبّر عن ذلك المستشرق الروسي كراتشكوفسكي [4] المصدر الأهم أو الوحيد لتاريخ حقبة معيّنة لقطر ما ، ولّما كانت بلاد السودان ضمن منطقة النفوذ العربي بحكم العلاقات التجارية التي ربطتها مع بلاد الإسلام ، فقد ورد ذكرها في أولى المصنّفات التي يمكن إدراجها ضمن تسمية المصنفات الجغرافية .

---

[1] أحمد الخفاف و محمد عقلة المومني ، دراسات في التراث الجغرافي العربي الإسلامي ، الأردن ، دار الكندي ، 2000م ، ص 12.

[2] عن الكتب الهندية المترجمة إلى اللغة العربية أنظر :كارلو نلينو ، علم الفلك ، ص ص 149-151. وأما ما يتعلّق بالكتب اليونانية المنقولة إلى العربية فانظر: المرجع نفسه ، ص ص 216-229.

[3] عُنِيتْ أولى المصنفات من كتب الجغرافيا اللغوية بوصف الجزيرة العربية فقط .

[4] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي, ج1، ص 03.

لقد تحكّمت أصناف المصادر الجغرافية في نوعية المعلومات الواردة فيها ، وذلك بسبب الاختلاف في الطريقة التي اتبعها المؤلفون في جمع وترتيب وتدوين المعارف الجغرافية في هذه المصنفات ، مما يجعلنا نتساءل ضمن هذا المجال الزمني المُحدَّد بالدراسة من القرن الثاني إلى القرن الخامس هجري ، الحادي عشر ميلادي عن معنى المنهج ؟ وما هي الأنواع التي اعتمد عليها أصحاب المصنفات في ذكرهم لمناطق بلاد السودان ؟ وكيف تأثّرت نوعية المعلومات الواردة عن بلاد السودان بالمنهج المتبع في الكتابة ؟ ومن هم أصحاب هذه المصنفات ؟

خضعت عملية التأليف في المجال الجغرافي منذ بداياتها إلى القرن الخامس هجري الموافق للقرن الحادي عشر ميلادي لنمطين تأليفيين أساسيين ، يختلفان عن بعضهما البعض في طريقة ذكرهما للمعلومة ، ليست تلك المتعلقة ببلاد السودان فحسب ، ولكنها تنسحب على باقي المناطق الأخرى ، وحتّى النمط الواحد في حدّ ذاته يمكننا أن نجد فيه بعض الاختلافات والفروقات البسيطة في طريقة الكتابة، ولكنها تبقى غير مؤثّرة من حيث اعتبارنا أن هذا النوع من الكتابة يندرج ضمن هذا النمط أو ذلك .

وعلى العموم فقد أشار شاكر خصباك [1] إلى أنه في الحكم على مصنّف معيّن بأنه ينتمي إلى هذا النمط أو ذلك فيه الكثير من التسامح ، بحكم أن مؤلفيها لم يفكّروا في انتهاج أساليب ومناهج محدّدة إلا في حالات نادرة ،كما أنه ليس بالإمكان إخضاعها للتطور التاريخي ، فقد وُجدت مثلا المصنّفات الإقليمية في نفس الوقت الذي وجدت فيه المصنّفات الفلكية ، كما تجدر الإشارة إلى أن هذه المناهج التي اعتمدت في هذه المصنفات ، جاءت نتيجة اتصال العرب بالحضارات الأخرى .

لقد أحصى يوسف كيوك [2] في مدونته عن المصادر العربيّة المتعلّقة ببلاد السودان حتى فترة القرن الخامس هجري ، الحادي عشر ميلادي وبالضبط قبل كتابات البكري ، خمسة وعشرين مؤلفا عربيا ، تضمّنت مصنفاتهم إشارات عن بلاد السودان فإذا حاولنا أن نحدّد منها المصنفات ذات الصبغة الجغرافية ، فإننا لا نكاد نستثني منها إلا العدد القليل ، أما إذا حاولنا تقسيم هذا العدد من المصنفات على أنواع المناهج المعتمدة في الكتابة ، فأننا سنجد

[1] شاكر خصباك ، الجغرافيا عند العرب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،1986، ص 18.

[2] Joseph Cuoq , Recueil Des Source Arabes Concernant L' Afrique Occidentale Du 8e au 16e siécle , Editions Du Centre National De la Recherche scientifique , France , 1975.

مجموعتين أساسيتين هما مصنفات تتبع للمنهج الفلكي ومصنفات تتبع للمنهج الوصفي [1]، فما هو الفرق بينهما ؟ وما هو نصيب كل منهما في ذكر معلومات تخصّ بلاد السودان ؟

مساهمة مصادر الجغرافية الفلكية[2] في التعريف ببلاد السودان :

كان ظهور هذا النوع من التصانيف في العصر العباسي الأول في بغداد ، فقد اشتُهر عن المنصور ولعُه بالعلوم وشغفُه بترجمة الكتب ، وظلّ هذا الشغف قائما قرابة قرنين من الزمن [3] ، فكان من حصيلة ما ترجم العرب في عهده الكتاب المعروف بـــ" **السندهند**"[4] أو الحقيقة المطلقة ، وبعد ارتقاء المأمون العرش في سنة (198هـــ/ 811م) استدعى إلى قصره عددا من العلماء ، وكلّفهم بالقيام بترجمة عدد من الكتب من اللغات الأجنبية – معظمها من الإغريقية – إلى العربية وكان كتاب "**المجسطي** "من بين المؤلفات التي شملها نشاط العلماء المترجمين .[5]

يشير كراتشكوفسكي[6] إلى التأثير الكبير الذي أحدثته ترجمة هذين الكتابين في التصانيف الجغرافية اللاّحقة، فبالإضافة إلى الترجمات العديدة لهذين الكتابين وخاصة لكتاب المجسطي لبطليموس ، بدأ الكُتّاب العرب يحاكون هذا النموذج في تآليفهم وضمّنوها معارفهم الخاصة التي اكتسبوها نتيجة ترحالهم واتساع دولتهم ، فظهر لنا نموذج جديد من المصنفات الجغرافية تندرج ضمن اصطلاح " **الجغرافيا الفلكية** " وما يهمّنا نحن من هذه المصنفات ، هي تلك التي تطرّقت في جزء من جزئياتها لذكر بلاد السودان سواء تعلّق الأمر بوصف للمكان أو بذكر للأجناس .

---

[1] عن عدد المصادر التي ألفت في كلا النمطين الفلكي والوصفي ، أنظر الملحق رقم : 02 .

[2] مصادر الجغرافيا الفلكية: هي مجموعة المصادر التي تهتم بالأرض وموقعها وحركتها في الفلك وعلاقتها بالشمس والقمر والنجوم وقد قسّم "إخوان الصفا وخلان الوفاء" هذا العلم إلى ثلاثة أقسام : قسم يُعنى بالأفلاك والكواكب والبروج ويسمى " بعلم الهيئة " وقسم يعنى بالزيجات والتقاويم ،وقسم يعنى بدوران الفلك والبروج وحركات الكواكب ويسمى بعلم الأحكام . انظر : رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، الهند ، مطبعة نخبة الأخيار ، 1888، مج 1 ، ص

[3] جمال الفندي ، الجغرافيا عند المسلمين ، ص 91.

[4] أصله " **سدّهانت**" معناه بالسّنسكريتية "معرفة وعلم ومذهب علمي" وأطلق ذلك اللفظ اصطلاحا على كل كتاب في علم الهيئة وحساب حركات الكواكب ، ثم حُرّف اللفظ وعُدّل إلى لفظ "**السند هند**" انظر: كارلو نلينو ، علم الفلك، ص150.

[5] ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص 32.

[6] بخصوص الترجمات العديدة لكتاب المجسطي لبطليموس أنظر : كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج1 ، ص ص 79-81.

والحصيلة التي تَنْتُجُ لنا من خلال استقصائنا للمادة الخبرية الواردة في مثل هذه النصوص ، يبيّن لنا بأنّه من بين عدد كبير من المصنفين في هذا المجال ، لا يتطرّق لموضوعنا عن بلاد السودان سوى خمسة أسماء أساسية ذكروا هذه المنطقة ضمن هذا المنهج الفلكي وهم :

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفزاري (**ت بعد 180هـ / 796م**)[1]: فالمصادر تنسب إلى هذا الشخص مجموعة متنوعة من المؤلفات فهو صاحب كتاب " **الزيج**" و"**القصيدة في هيئة النجوم والفلك**" ، ضاعت برمّتها و لم يصلنا منها إلاّ بعض القطع بواسطة من نقلها عنها من أمثال ابن قتيبة والمسعودي [2] وياقوت وابن النديم[3] وابن القفطي والصفدي[4] والسيوطي ، فبالعودة إلى ما خلّفه لنا هذا الكاتب نجده يورد بعض الإشارات عن بلاد السودان والتي تُعتبر الأولى من نوعها من حيث قدّمت لنا ذكرا لبعض المناطق الداخلية لهذه البلاد ، إذ لم يسبقه إليها مؤلف عربي .

الخوارزمي (**ت بعد 232هـ/846هـ**)[5]: تكمن أهمية هذا الكاتب في مؤلفه " **صورة الأرض** " ، فعلى الرغم من الاختلافات حول طبيعة هذا المؤَلَّف فيما إذا كان هذا الكتاب من تأليفه ، أم أنه ترجمة لكتاب بطليموس فقط ، وكتاب صورة الأرض عبارة عن جداول فلكية أشبه بالأزياج منه بكتاب جغرافي اعتيادي ، فقد قسّمت الصفحة إلى ثلاثة أعمدة يشتمل الأول منها على اسم الموضع ، والثاني على خط طوله ، والثالث على خط عرضه ، وقد بدأ الخوارزمي بالمدن ، ثمّ بالجبال ، ثمّ بالبحار ،ثمّ بالجزر ، ثمّ بالعيون والأنهار [6] ، ويُقسّم المعمور من الأرض إلى سبعة أقاليم[7] ، ويجعل بلاد السودان منها في الإقليم الأول ، ويذكر بعض المعلومات المتعلقة بها .

---

[1] عبد الله الدفاع ، رواد علم الفلك في الحضارة العربية والإسلامية ، ط2، الرياض ، مكتبة التوبة ، 1993 ، ص 41 .

[2] المسعودي ، مروج الذهب ، ج2 ، ص 234.

[3] محمد ابن إسحاق النديم ،كتاب الفهرست ، تح رضا تجدد ، ص332.

[4] صلاح الدين الصفدي ، الوافي بالوفيات ، تح ، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، بيروت ، دار إحياء التراث ، 2000م ،ج1 ، ص 251.

[5] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج1، ص 99.

[6] شاكر خصباك ، الجغرافيا عند العرب ، ص 20.

[7] درس جغرافيو "المدرس الفلكية" الأرض على أساس تقسيمها إلى سبعة أقاليم في شكل نطاقات هندسية تمتد من الغرب إلى الشرق و لم و لم يبتدئ المسلمون تقسيمهم لهذه الأقاليم من فوق خط الاستواء بل بدؤوا من دائرة عرض 16° وانتهوا شمالا إلى دائرة عرض 50°،

البتاني (**244هـ، 318هـ/ 856م ، 929م**) [1]: يشير يوسف كيوك إلى أنه لم يصلنا من كتبه إلا كتاب "**الزيج** " على شكل جداول فلكية مثل طريقة الخوارزمي ، وفيها أشار إلى مملكة غانا ، محدّدا طولها وعرضها [2].

سهراب : كان معاصرا لأبي زيد البلخي (ت 322هـ/ 934م)[3] ، مصنّفه بعنوان " **كتاب عجائب الأقاليم السبعة** " ، طريقته في التأليف تخالف بعض الشيء طريقة صورة الأرض للخوارزمي ، ففي البداية يورد تعدادا للمدن وأقساما للأقاليم المختلفة ، ثمّ يلي هذا وصفا للبحار والجزر وتعدادا للجبال ، وبعد ذلك المنابع والأنهار ، وفي الخاتمة توزّع هذه الظواهر على الأقاليم المختلفة ، وتتمثّل الأهمية الرئيسة لكتاب سهراب في اتساع مادّته المستقاة من المصادر العربية ، ويبدو أن غرضه كان إضافة مادة جديدة إلى ما جمعه الخوارزمي قبل قرن من ذلك [4]، ويزداد عدد المدن السودانية المذكورة عند سهراب مقارنة مع الخوارزمي والبتاني [5].

البيروني (**362هـ، 440هـ/972م ، 1048م**) : له عدّة مؤلفات اشتهر منها كتاب "**الآثار الباقية في القرون الخالية**"**و**" **تاريخ الهند** " يكاد يحقّق الإجماع بين الدارسين للتّراث الجغرافي الإسلامي على أنه أكبر علماء عصره فكراتشكوفسكي[6] أفرد فصلا خاصا لعلماء القرن الحادي عشر ميلادي ، وجعل البيروني في مقدمتهم ، كما اعتبره يوسف كيوك[7] أحد أكبر علماء الإسلام ، ومع البيروني نحصل على تفاصيل أوفى عن بلاد السودان التي اعتبرها مصدرا العبيد، كما عيّن مواقع بعض المدن على نفس طريقة الجغرافيين الفلكيين السابقين ، غير أنه حقّق الريادة بحكم تأخّره الزمني مقارنة بالسابقين ، فقد تجمّعت له معلومات جديدة عن بلاد السودان .

محمد السيد غلاب ، << منهج العلماء المسلمين في البحث الجغرافي >> ، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول ، الرياض ،إدارة الثقافة والنشر بالجامعة ، 1984 ، ص 487. وانظر الملحق رقم : 03 الذي يُبيّن طريقة تقسيم الخوارزمي للأقاليم .

[1] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج1 ، ص 105.

[2] Cuoq , op.cit , p 57.

[3] نيقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت– لبنان ، الشركة العالمية للكتاب ، 1987، ص 32.

[4] كراتشكوفسكي ، المرجع السابق ، ج1، ص 104.

[5] عن المدن السودانية التي ذكرها سهراب . أنظر :

- Cuoq , op.cit , p 59 .

[6] كراتشكوفسكي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص ص 245- 258.

[7] Cuoq , op.cit , p79.

مساهمة مصادر الجغرافية الوصفية[1] في التعريف ببلاد السودان :

كان ظهور هذا النوع من المصنّفات فاتحة عهد جديد في الكتابة عن بلاد السودان مقارنة بالوضعية السابقة التي كانت عليها في مصنفات الجغرافية الفلكية ، فقد دعت مجموعة من الضرورات إلى ظهور هذا النمط الجديد من التأليف في المجال الجغرافي ، فقد كانت الحاجة ماسة أول كل شيء إلى معرفة الطرق الكبرى التي تربط أقاليم الدولة الإسلامية بعضها ببعض ، وكانت هذه المعلومات تطلب لأغراض إدارية وسياسية ، وكذلك كانت الحاجة ماسة إلى تعيين محطات للقوافل على طرق الحج الموصلة إلى مكة ، وكانت مادة هذه الأوصاف الخاصة بطرق المسافرين موفورة إلى حدّ ما في دواوين الحكومة .

وضمن هذا المنهج سنجد نمطين متمايزين في الكتابة ، فالنمط الأول يتمثّل في المصنفات البلدانية [2] ويمكننا أن ندرج فيه كتابات **ابن خرداذبه** (ت **280هـ/893م**) ، **واليعقوبي** (ت **284هـ/897م**) ، **وابن الفقيه** (ت **290هـ/903م**) ، **والمسعودي** (ت**346هـ/957م**) ، فالبقدر الكبير من التشابه عند هؤلاء في العديد من النقاط في إيرادهم للمعلومات المتعلّقة بالعالم بصفة عامة ، وعن السودان بصفة خاصة ، فإنهم يختلفون في نقاط أخرى في طريقة إيراد المعلومات ، لكن بالقدر الذي لا يخرجها عن النّطاق الذي يجعلها تنتمي إلى مدرسة واحدة ، فهؤلاء الكتاب تناولوا وصف العالم في عمومه مع تركيز أكبر على الدولة العباسية ، و لم تنل بلاد السودان الشيء الكثير من الكتابة سوى بعض الإشارات العرضية التي تكون في نطاق الحديث عن الأجزاء الغربية للدولة العباسية ، أو عندما يتعلّق الأمر بالإشارات إلى التجارة المغربية ، أو إلى الامتداد الجغرافي للدول المغربية المستقلة عن الخلافة العباسية إلى الجنوب ،كدولة الأدارسة على سبيل المثال ، ويتّخذ موقع بلاد السودان في التقسيم الإقليمي عند هؤلاء الكتاب أشكالا عديدة ، فابن

---

[1] يُعنى هذا النوع من المصنّفات بوصف المسالك والممالك ، فتُدرس الأرض من ناحيتين : الأرض والناس ، فتُدرس الأرض وما بها من جبال وأودية وأنهار وسهول وصحار ، ويُدرس الناس على أساس لباسهم وطعامهم ومعتقداتهم الدينية ونُظمهم الاجتماعية ونشاطهم الاقتصادي في الإنتاج والتجارة . محمد السيد غلاب ، <<منهج العلماء المسلمين في البحث الجغرافي >> ، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول ، ص 489.

[2] تناولت أصحاب هذه المصنفات العالم في عمومه والمعلومات التي احتوتها هذه المصنفات هي تلك المعلومات الدنيوية التي لم تجد لها مكانا في الكتب الإسلامية وبالتالي احتوت إلى جانب الوصف الجغرافي معلومات أدبية وتاريخية . جمال الفندي ، الجغرافيا عند المسلمين ، ص ص 111-112.

خرداذبه [1] وابن الفقيه[2] يقسّمان العالم إلى أربعة أقسام ، ويجعلان بلاد السودان ضمن الجزء الرابع الذي يسمّيانه " **لوبية** " ، وأما اليعقوبي (ت**284هـ/897م**) صاحب كتاب " **البلدان** " فله نفس التقسيم الرّباعي ، غير أنه يورد بعض المعلومات المتعلّقة ببلاد السودان ضمن الربع الثالث الذي أطلق عليه مصطلح " **الجربي**" وهو ربع الشمال في تقسيمه للأقاليم ، أما المسعودي (ت **346هـ/956م**) فالأقاليم عنده ممثّلة في شكل ست دوائر تحيط بدائرة في المركز تمثل الإقليم الأول الذي سمّاه بمركز الدنيا كونه مقرا للخلافة العباسية ، ويضمّ أرض بابل ، خراسان وفارس والأهواز والموصل وأرض الجبال ، أما السودان فقد أوردها في الإقليم الثاني مع كل من الهند والسِّند [3] ، وعلى الرغم من هذا الاختلاف في التّقسيمات التي نجدها عند أصحاب هذه المدرسة ، إلا أن ذلك لا يكاد يؤثر في نوعية المعلومة المقدّمة ، إذ تطغى صفة النقل المباشر من المصنفات السابقة كما أن أصحاب هذه المدرسة لم يخلفوا لنا خرائط عن بلاد السودان لكنهم في المقابل من ذلك أشاروا إلى تصورات لشكل الدنيا التي جعلوها على شكل طائر رأسه الصين وذنبه بلاد السودان[4] .

أما النّموذج الثاني فهي المصنفات الإقليمية [5] ويمكننا أن نضمّ إليها كتابات كل من **الأصطخري** (ت**340هـ/951م**) ، **والمقدسي** (ت **387هـ/ 997م**) **وابن حوقل** ، (ت **367هـ/977م**) ويسمّي جمال الفندي [6] هذه المدرسة بالبلخية ،كون أن واضع أسسها هو أبو يزيد البلخي [7] ، فهؤلاء المصنّفون ركّزوا جلّ اهتمامهم على بلاد

---

[1] ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، تح ، دي خوييه ، ليدين ، بريل ،1889، ص 155.

[2] ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص 07.

[3] المسعودي ، مروج الذهب ، ج1، ص 87. وانظر الملحق رقم : 04 الذي يُمثّل الأقاليم عند المسعودي .

[4] ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ص 119.

[5] اهتم أصحاب هذا النوع من المصادر بوصف أقاليم العالم الإسلامي فقط دون غيره من الأقاليم ، وهذه المصنفات تهتم المعلومات الجغرافية فقط إذ أن تركيزها مقتصر على وصف المكان والأجناس التي تستوطنه .

[6] جمال الفندي ، الجغرافيا عند المسلمين ، ص 125.

[7] بحيث تخلّى عن فكرة الأقاليم السبعة وأخذ بتقسيم دار الإسلام إلى عشرين جزءا ، ومصطلح الإقليم عنده مغاير لمعناه الأصلي وقصد به كيانات أرضية إسلامية أنظر: أندريه مايكل ، جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر ، ت. إبراهيم خوري ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، 1983، ص 175.

الإسلام ووصفوها دون غيرها من الممالك ،باعتبارهم كفارا و لم يصلوا بعد إلى درجة من التحضّر [1] ، وعلى الرغم من اقتصار أصحاب هذه المدرسة على وصف العالم الإسلامي فقط على حد تعبير روادها في مقدمات كتبهم [2] ، فإن بلاد السودان وعلى الرغم من اعتبارها متطرّفة عن العالم الإسلامي ، فإنها نالت نصيبا وافرا في كتاباتهم من تلك التي وردت مع أصحاب المصنفات السابقة ، ويتفاوت حجم المعلومات الواردة في هذه المصنفات باختلاف المصنّف ، فالمعلومات عن بلاد السودان تقلّ عند الأصطخري ، أما المقدسي ، فالبرغم من المكانة المرموقة التي يحظى بها هذا الجغرافي بين غيره من الجغرافيين باعتباره أكبر جغرافيي عصره ، إلاّ أن الخبر عنده عن بلاد السودان يكاد ينعدم ، ممّا يجعلنا نساءل عن سبب ذلك ، هل يعود إلى المنهج الصارم الذي تقيّد به حرفيا ؟ أم إن ضرورات المنهج الذي اتّبعه هذا الكاتب جعلته يُقصي كثيرا من المعلومات التي توفّرت له بحكم عدم استيفائها للشروط المناسبة لذلك ؟ لكن هذا الأمر يختلف عند ابن حوقل فعلى الرغم من إشارته في المقدمة إلى أنه تفادى بلاد السودان من الذكر كونها بلاد مهملة للحضارة وأهلها غير مسلمين ، إلاّ أنه عند الاطلاع على الكم المعلوماتي الذي أورده يجعلنا نعتبر أن ابن حوقل خالف منهجه كلّية , فقد زوّدنا بمعلومات مهمّة ما يجعلنا نعتبر أنه أدرج بلاد السودان ضمن الدولة الإسلامية عن غير قصد ، بحكم أنه توفرت له معطيات جديدة لم تتوفّر لغيره من الجغرافيين .

أما محلّ بلاد السودان في التقسيم الإقليمي عند هؤلاء فلا نجد لها أثرا ، إذ أنّ تقسيمات أصحاب هذا المنهج لم يكن هدفهم تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم كما كان الأمر منتشرا من قبل [3] ، بل استحدثوا طريقة جديدة في التقسيم اقتصرت على بلاد الإسلام والتي قسّمت إلى عشرين إقليما [4] والإقليم عند هؤلاء تحدّده مجموعة من الخصائص المشتركة

---

[1] ورد عند كل من الأصطخري وابن حوقل قولهما " ... و لم نذكر بلد السودان في المغرب والبجة والزنج ومن في أعراضهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ولا حظ لهم في شيء من ذلك فيستحقوا به إفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك ..." الأصطخري ، مسالك الممالك ، تح ، دي خوييه ، ليدن ، مطابع بريل ، 1927. ص ص 4- 5. وكذا : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 19.

[2] يقول الأصطخري " فقصدت منها بلاد الإسلام ..." ، المصدر السابق ، ص 02، والمقدسي "...و لم نذكر إلا مملكة الإسلام ..." المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط 2، تح .دي خوييه ، ليدن ، مطبعة بريل ، 1906، ص 09.ابن حوقل , المصدر السابق ، ص 10.

[3] يُشير الأصطخري إلى هذه النقطة بقوله "... و لم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض ..." الأصطخري ، المصدر السابق ، ص 03 ، ولكن ابن حوقل يورد ضمن إشارة عرضية أن جلّ بلاد السودان من الإقليم الثاني " ابن حوقل،المصدر السابق ص ، 340.

[4] يقول الأصطخري "... ففصّلْتُ بلاد الإسلام عشرين إقليما ..."، الأصطخري ، المصدر السابق ، ص 03 .

المشتركة لمنطقة معيّنة ، وبالمقابل أهملت أقاليم الكفار بما فيها بلاد السودان [1] ، لكن هذا لا يعني انعدام الإشارة إليها ، بحيث كثيرا ما كانت تربط بأقاليم بلاد المغرب ، أمّا عند المقدسي فقد أشار إلى أن أدنى أرض السودان تقع في الإقليم الأول [2] والشيء الجديد الذي أضافه هذا المنهج وتميّزت به هذه المدرسة عن غيرها ، فهو المصورات الجغرافية أو الخرائط للأقاليم التي يسمّيها كراتشكوفسكي "**بأطلس الإسلام**" [3]، وفيه تظهر السودان جنوب بلاد المغرب وتعيّن عليها بعض الممالك المعروفة والتي توفرت عنها بعض المعلومات عند أصحاب هذه المدرسة ، أما في الجنوب حتى البحر المحيط فتوضع براري الجنوب التي كانت تعتبر قفرا تنعدم فيها الحياة بسبب الحرارة الشديدة التي تسبّبها قرب الشمس من هذا الموضع[4] .

وقد برز في هذه الفترة مؤلف آخر يسمى المهلبي ويختلف منهجه في التأليف عن أصحاب هذه المدرسة وجاء عنوان كتابه مشابه لكتبهم فهو من نوع " المسالك والممالك "، وضعه المهلبي (**ت 380هـ/990م**) للخليفة الفاطمي العزيز ولذا فكثيرا ما ورد اسم الكتاب بعنوانه المقتضب " العزيزي " [5]، ويُعلّق آدم ميتز في كتابه " **الحضارة الإسلامية** "[6] على هذا الكتاب بقوله "... وفي سنة (**375هـ / 975 م**) كتب المهلبي للخليفة الفاطمي العزيزي بالله كتابا في الطرق والمسالك وهو أول كتاب عن وصف بلاد السودان وصفا دقيقا وكان علماء الجغرافية في القرن الرابع لا يعرفون من أخبار السودان إلا قليلا جدا... " و لم يبق من هذا الكتاب غير بعض الإشارات البسيطة موزعة على باقي المصنفات الجغرافية ما يجعل التعامل معه صعبا .

---

[1] يقول المقدسي "...و لم نتكلّف ممالك الكفار لأنّنا لم ندخلها و لم نر فائدة في ذكرها ..." ، أحسن التقاسيم ، ص09.

[2] نفسه ، ص 59.

[3] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج1 ، ص 197.

[4] أنظر موقع بلاد السودان في خريطة العالم للأصطخري الممثّلة في الملحق رقم : 05 الشكل 01، وخريطة العالم لابن حوقل الممثّلة في الملحق رقم : 05 الشكل 02.

[5] كراتشكوفسكي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 230.

[6] آدم ميتز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري أو عصر النهضة في الإسلام ، ت . عبد الهادي أبو ريدة ، ط 3، القاهرة ، 1958, ج2 ،16 .

تقييم المصادر الجغرافية في الفترة الممتدة من ق (2هـ/8م) حتى منتصف ق (5هـ/11م) .

أ –تقييم مصنفات الجغرافية الفلكية :

تعود أهمية هذه المصنفات إلى أنها حفظت لنا الأشكال الأولى للمعرفة عن بلاد السودان ، والمعلومات الواردة فيها تُعتبر حصيلة معارف يونانية قديمة مضافة إليها ما حصّله العرب من معارف جديدة ، ممثّلة في شكل جداول فلكية تعتمد على العلوم الرّياضية لتحديد طول المكان وعرضه بالدرجات ، والدقائق ، ممّا يكسبها دقّة أكبر، كما أن هذا النوع من المصنفات ، لم تجعل لنفسها حدود معرفية معيّنة ، إذ لم يقصر جُهدها على إبراز إقليم معيّن مثلا ، وإنما تميّزت بالشمولية والعالمية ، بمعنى آخر وضع هؤلاء المصنّفون إلى جانب ما حصّلوه من الكتب اليونانية ، جلّ معارفهم عن مواقع بلاد السودان .

أما فيما يخص الجانب السلبي لهذا المنهج والذي وصفه أحمد الشكري بالضحل [1] كون أنّ المصادر الجغرافية التي دُوّنت وفق هذا النمط لم تقدّم لنا معلومات مهمّة عن بلاد السودان ، ويعود تفسير هذا النقص إلى مجموعة متعدّدة العوامل والأسباب ساهم كل منها في تكريس هذه الحقيقة المتمثّلة في إيصالنا هذا الترر اليسير من المعلومات ويمكننا تلخيص بعض نقاط ضعف هذا المنهج في التأليف إلى أن هذه المصنفات كُتبت في وقت كانت فيه عملية التأليف في حدّ ذاتها شيئا جديدا على العرب ، وبالتالي فإننا لن ننتظر منها أن تُمدّنا بالجديد عن بلاد السودان ، كما أن واضعوا هذه المصنفات يشتركون في مجموعة خصائص تنقص من أصالة الكتابة عن بلاد السودان إلى حدّ بعيد ، فلم يكتب أيٌّ من هؤلاء معارفه عن هذه البلاد من معاينة ومشاهدة مباشرة ، بمعنى آخر لم يكن أصحاب هذه المصنفات من الرّحالة الذين دخلوا البلدان ووصفوها ، كما أن بعدهم عن هذه البلاد ساهم في تكثيف حالة الضبابية ، فإذا علمنا أن هؤلاء المصنّفيين مشارقة وأعاجم [2]، ينتمون إلى الأجزاء الشرقية للعالم الإسلامي ، ثم نحاول بعدها أن نعثر في مصنفاتهم على إشارات تخصّ الحدود الجنوبية الغربية للعالم الإسلامي ، فمن الأكيد أنّنا لن نوفّق في العثور على كثير منها ، وحتّى وإن تصادفنا مع بعضها فلن تكون هذه المعلومات من الدّقة الكافية ، كما أن هذه المصنفات طغى عليها المنهج الرياضي

---

[1] أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 21.

[2] انظر الملحق رقم : 06 الذي يُمثّل الأماكن التي دوّنت فيها المصادر الجغرافية في الفترة الزّمنية الممتدّة من القرن (2هـ/8م) حتّى منتصف القرن (5هـ/11م).

الحسابي في تحديد الأماكن ، و لم تخلّف لنا مادة أدبّية للتعامل معها ، ما يجعل هذا النوع من المصنفات عسيرا على عامة الناس ، وربما كان هذا السبب الأساسي الذي حدّ من انتشار هذا النوع من التآليف في المراحل الكتابية اللاّحقة ، كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن هذا المنهج ركّز على المكان وما يتعلّق به من مظاهر تضاريسية ، وأهمل من يستوطن هذا المجال الجغرافي ، فالإشارات إلى الجنس البشري الأسود غائبة تماما ضمن هذا النوع من التصانيف ، وعلى الرغم من هذا التركيز على المكان ، فهذه المصنفات لم تخلّف لنا أي مصوّر جغرافي يخصّ البلاد [1] .

ب – تقييم مصنفات الجغرافية الوصفية :

استفادت الكتابة ضمن هذا المنهج من مجموعة متنوعة من العوامل كان لها الأثر البارز في الدفع بالمعرفة العربية عن هذه المناطق ، فقد استفاد كتّاب المصنفات في هذه الفترة من بعض التّجارب والمحاولات السابقة التي عُنيت بتقديم معلومات عن منطقة جنوب الصحراء ، وبالتدريج بدأت تجعل لنفسها بعض التقاليد الكتابية ، والتي شكّلت قاعدة لمن يريد التصنيف في هذا المجال ، فنبذت الصبغة الرياضية التي طغى عليها استعمال الرموز ، وأوردت معلوماتها في صياغة أدبية مفهومة للعامة من الناس ، خاصة وأن هذا النوع من المصنّفات كان موجها للتجار لتسهيل معرفة الطرق والمسالك ، ثمّ إن هذه المصنفات كُتبت في فترة توفّرت فيها بعض الظروف المناسبة ،كاتساع الحركة التّجارية التي ربطت بلاد السودان بالعالم الإسلامي ما يسمح بتوفّر معطيات جديدة تخص هذه البلاد ،كما أن هؤلاء المصنّفين جمعوا بين أمرين أساسين هما الاطلاع على المصنفات السابقة التي تَحَقَّقّ لهم سهولة الوصول إليها بحكم المناصب الإدارية التي شغلوها في البريد، والأمر الثاني هو أن جلّ هؤلاء الكتاب كانوا من الرحالة الذين توفرّت لهم فرصة المعاينة والمشاهدة المباشرة ، مكنهم هذا الأمر من الوصول إلى مناطق قياسيّة من بلاد السودان ، سواء كان هذا من الجهة الشرقية كما فعل المسعودي [2]، أو من الجهة الشمالية كما فعل ابن حوقل الذي وصل إلى مدينة أودغشت [3]،كما تجدر الإشارة إلى

---

[1] لا ننفي وجود الخرائط مطلقا عند أصحاب هذه المدرسة فالخوارزمي له أربع مصورات جغرافية إحداها للنيل ، ولكن ننفي إيراد بلاد السودان في خرائط أصحاب هذه المدرسة انظر الخرائط عند : أبو موسى الخوارزمي ، صورة الأرض ، هانس فون مجيك ، فيينا ، مطبعة أدولف هولزهوزن ، 1926.

- بخصوص مصور الخوارزمي للنيل للخوارزمي أنظر الملحق رقم : 07 .

[2] ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 67.

[3] "...وقد رأيت بأودغشت صكا ..." نفسه ، ص 96.

أن المنهج المعتمد لدى أصحاب المصنفات الأولى المتميّز بالشمولية ساعد على توفير بعض الإشارات المهمّة عن بلاد السودان ، والنقطة الأهم في كل هذا ، هي تجسيد هذه البلاد في المصوّرات الجغرافية [1] التي خلّفها لنا كتاب هذه الفترة .

وتبقى لهذا المنهج الوصفي في التأليف سلبيّات كثيرة تنسب له باعتبارها السبب الرئيسي الذي حرمنا من معلومات أوفى عن بلاد السودان ،كما أنه يمكننا تسجيل نقائص أخرى لا تتعلق بالمنهج بقدر ما تتعلق بأصحاب هذه المصنفات في حد ذاتهم ، فباستثناء ابن حوقل الذي وصل إلى مدينة أودغشت وسجّل لنا ملاحظاته المباشرة فأنه لا أحد من كتاب هذه الفترة دخل بلاد السودان ، أو على الأقل وصل إلى النقطة التي وصل إليها ابن حوقل ،كما ساهم البعد بين مكان تدوين المعلومة والذي كان في المشرق ، وبين المكان المقصود بالمعلومة ، – بلاد السودان – ، في تكثيف حالة اللّبس والضبابية التي تصادف الجغرافيين في التّعامل مع مثل هذا النوع من المواضيع ، هذا فضلا عن المنهج المعتمد لدي مصنفي الفئة الثانية والذي يقصي بلاد السودان كلّية عوض إدراجها في هذه المصنفات باعتبارها لا تنتمي للدولة الإسلامية مما كان له بالغ الأثر في حرماننا من الحصول على معلومات كانت ستغيّر المعارف عن هذه البلاد إلى حالة أحسن مما هي عليه.

[1] كان تقدم الخرائط العربية تابعا ومحددا بمدى تطور المعرفة الجغرافية ذاتها ولذلك فلم تحتل الخرائط العربية مكانة بارزة في النهضة العلمية العربية فيما بين القرنين السابع والثاني عشر الميلادي ، فتحي عبد العزير ، الجغرافية العلمية ومبادئ قراءة الخرائط ، بيروت ، دار النهضة العربية ، 1998 ، ص 133.

المبحث الثالث : مصادر أخبار جغرافيي الرحلة الأول عن بلاد السودان:

ارتبطت المعرفة التاريخية في بداياتها عند العرب بعلم الحديث ارتباطا وثيقا ، إلى درجة أصبح فيها فصل أحدهما عن الآخر أمرا مستحيلا ، وذلك بسبب حاجة كل منهما إلى الآخر واعتماده في كثير من جزئياته على مناهج الآخر ، فعلوم الحديث التي اعتمدت التاريخ في ثبت سمة وفيات الرجال ، والذي كان أمرا ضروري ا في علم الجرح والتعديل وتحقيق الحديث[1] ، فإن التاريخ من جهته هو الآخر أخذ من المناهج والقوانين الصارمة التي وضعها المحدثون من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية ، وكان مما ساعد على ترابط هذين العلمين أنهما كثيرا ما كانا يجتمعان في الرجل نفسه [2] ، ثم إن كليهما كان يهدف إلى تحقيق خبر الماضي .

وبعد اتساع رقعة الخلافة الإسلامية ودخول أجناس جديدة في نطاق الحضارة الإسلامية ، ومع ابتعادنا تدريجيا عن مصدر الخبر وبداية ظهور التدليس والتغير في الرواية ،كانت الحاجة ماسة إلى استحداث علم جديد هو " **علم الجرح والتعديل**"[3] أو ما يسمى بعلم ميزان الرجال ، وهو العلم الذي وُضعت له قواعد وشروط محدّدة ، بموجبها أصبح المحدِّث يقبل حديث هذا ، ويرفض حديث ذاك .

---

[1] وقد احتل التاريخ عند أهل الحديث مكانة هامة جدا لمعرفة اتصال الأسانيد وانقطاعها، وفي الكشف عن أحوال الرواة وفضح الكذابين. قال سفيان الثوري: "لما استعمل الرواة الكذب استعلمنا لهم التاريخ"، وقال حفص بن غياث: "إذا اهتمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين". يعني احسبوا سنه وسن من كتب عنه انظر : نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث ، دمشق–سورية ، دار الفكر ، 1997م ، ص 143.

[2] خاصة ما اصطلح عليهم بأصحاب "**مدرسة التاريخ في المدينة** " وهم كثير منهم : عبد الله بن عباس ، أبان بن عثمان بن عفان ، محمد بن مسلم الزهري ، عاصم بن عمر بن قتادة ، الواقدي ، محمد بن سعد ، انظر : محمد أحمد ترحيني ، المؤرخون والتأريخ عند العرب ، بيروت– لبنان ، دار الكتب العلمية ، د.ت ، ص ص 41– 58 . وانظر كذلك : طاهر سبع ، دور مدرسة المدينة في الكتابة التاريخية من خلال أبرز مؤرخيها حتى مطلع القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي ، مذكرة ماجستير ، إشراف ، موسى لقبال ، جامعة الجزائر ، 2002 .

[3] هو علم يُعنى بإظهار أحوال أهل العلم من كان منهم ثقة أو غير ثقة انظر أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر الخطيب البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ، تح ، أبو عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني ، المدينة المنورة ، المكتبة العلمية ، ص 38 .

لم يقتصر هذا المنهج على علوم الحديث فحسب ، بل اتّسع نطاقه ليشمل كل علم يعتمد في أساسه على تحقيق الأخبار ، فقد تبنّى المؤرخون والجغرافيون هذا المنهج مراعين في ذلك خصوصية الخبر التاريخي أو الجغرافي ، الذي يختلف في جوهره عن خصوصية علم الحديث ، فأصبحنا نجد ضمن هذه المصادر الجغرافية والتاريخية إشارات إلى المصنفين الثّقات في إيراد الخبر ، أو المدلسين الذين شحنوا كتبهم بالخرافات والأباطيل ، هذا الأمر استدعى منّا البحث عن الطرائق التي اعتمدها المصنِّفون من أجل تحقيق الخبر وعن الشروط التي وضعوها لذلك .

في هذا السياق التاريخي وصلتنا المعلومات عن بلاد السودان في المصنفات الجغرافية ، والتي نلحظ من تتبّعنا للمادة الخبرية الواردة فيها ، التناسب الطردي للمعلومات مع الزمن ، وتفسير هذه الملاحظة هي اعتماد المصنِّفين المتأخرين على المصنفات التي تقدّمتهم ، فأخذوا الكثير عنها وأضافوا إليها ما استجد لهم من معارف ومعلومات ، يجعلنا هذا نطرح تساؤلا رئيسا مفاده هل وضع أصحاب المصنفات الجغرافية شروطا معيّنة للنّقل من كتب غيرهم ؟ وهل كانت لهم إضافات خاصة بهم ؟ وما هو منهجهم الذي اعتمدوه في إيراد أخبار جديدة عن مناطق جنوب الصحراء ؟

حتى نُجيب عن هذا التساؤل المطروح يلزمنا دراسة كلّ مصنّف على حدة ، ومحاولة تتبّع مصدره في الأخبار التي أوردها في كتابه ، فقد يُغرينا هذا العدد الكبير من المصنّفات الجغرافية العربية التي تطرّقت إلى الحديث عن بلاد السودان ، إلى الاعتقاد بأن هذه المصادر قد أحاطت بالدراسة الشاملة لمختلف المواضيع والمسائل التي تخص هذا الإقليم الجغرافي، وتلك الأجناس التي تستوطنه ، والملاحظة التي نخرج بها هي حقيقةُ أن المعرفة عن بلاد السودان في هذه المصنفات الجغرافية صُنعت من طريقين مختلفين :

الطريق الأول : كان الاعتماد فيه بدرجة كبيرة على " **النقل** " وذلك بالعودة إلى المصادر السابقة والأخذ منها ، فبعد أن كانت المعارف الجغرافية اليونانية والسريانية مصدرا للمعرفة [1] ، ظهرت مصادر عربية جديدة شكلت قاعدة للبحث لدى المتأخرين ، لكن بالعودة إلى المادة التاريخية المتوفرة لدينا عن بلاد السودان قبل منتصف القرن الخامس هجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي ، فإننا نلحظ ظاهرة ، استفحلت لدى الجغرافيين المسلمين في القرون

---

[1] نيقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص 17.

الوسطى ، هي ظاهرة النقل من المصنفات السابقة ، أو كما يفضل البعض الآخر تسميتها بـــ " **الانتحال**"[1] إلى درجة أصبح فيها من الصعب أن ننسب هذا الكتاب إلى هذا المُؤلِّف أو ذاك ، نتيجة السلخ المباشر من كتب السابقين ، وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الحقيقة وعلّق عليها بقوله " ... واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة ..." [2] ، فلولا هذه الظاهرة لكان هذا العدد الكبير من المصنفات كفيلا بتحقيق نتائج باهرة عن معارف جنوب الصحراء .

لقد ذهب الجغرافيون مذاهب شتى من ظاهرة النقل هذه ، فنجد البعض منهم تحرّى أخباره من المصنفات التي سبقته ووقف منها موقف الناقد المتحرّي ، و لم يأخذ أخباره إلا عمّن كان يتوسّم في مؤلفاته الصدق في إيراد الخبر ، ثم أعمل فكره في هذه الأخبار ، فقبل ما كان موافقا للعقل ، ورفض ما كان مناقضا له ، فمن بين جميع المصنفات الجغرافية التي تندرج ضمن الفترة المدروسة ، نجد "المقدسي" و"ابن حوقل" هما أكثر من عرّضا مصادرهما التي رجعا إليها للنقد ، في حين نجد أن البعض الآخر أشحن كتابه بالخرافات والأخبار الواهية وقصص العجائب والغرائب دون تحقيق أو تحرّ [3]، وكان همّه الوحيد هي المعلومة دون الحديث عن الطريقة التي أوصلته إليها .

هذا الإفراغ في المصنفات نجد منه ثلاثة أنواع ، فالنوع الأول نجد فيه مؤلفين يشيرون بأمانة إلى مصادر الخبر الذي أوردوه كأن يقول المؤلف قال فلان ...، أو أن يقول مثلا "ووجدت في كتاب فلان كذا وكذا " ... ،كما نجد بالمقابل من ذلك من ينقل نقلا مباشرا ، ولا يشير إلى مصادره ، بل ويذهب إلى أبعد من ذلك فيتبنّى القول ، وينسبه لنفسه ، جاعلا له الأسبقية في الوصول إلى المعلومة كأن يقول " وجدتُ ، ورأيتُ بأن ..."، ومؤلف آخر لا ينسب القول لنفسه ، ولا يشير إلى مصادره ، ونجد أحيانا من يورد الخبر عن بلاد السودان لكنه يقف منه موقف المتشكك الحذر، ويجعله من الأخبار المتداولة بين عامة الناس كأن يقول " زعموا ، يُقال ..." .

الطريق الثاني : وهو أهم من الطريق الأول بسبب أنه يمدّنا بالجديد ، ويضم إلى جانب المعلومات التي نقلها المؤلِّف عن غيره ، إضافاته الشخصية وهي تلك المعارف التي لم تكن معروفه قبله بحيث لم تذكر في الكتب التي سبقته

---

[1] أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 20 .

[2] ابن خلدون ، التاريخ ، ج1، ص 07.

[3] لم يقتصر الأمر فقط على الأخذ من المصادر العربية السابقة أو تلك المترجمة بل تعداه للأخذ عن الكتب السماوية المنزلة كالتوراة التي استفاد منها العرب في تبيين أصل السودانيين وسبب اللّعنة التي لحقت بكنعان أحد أبناء نوح وغيرت لون أبناءه إلى الأسود . انظر : ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، تح ، ثروت عكاشة ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ص 24- 25.

، وكان لهذا المؤلف أسبقية الحصول عليها ، وهي ثلاث درجات ، تختلف فيها قوة المعلومة باختلاف المنهج المعتمد في تحصيلها ، فتكون المعلومات المحصلة نتيجة معاينة ومشاهدة مباشرة أعلى هذه الدرجات من حيث صدقها وتصويرها للحقائق التاريخية ، وفي هذا الإطار يمكننا أن ندرج كتابات ابن حوقل الذي يشير صراحة إلى أنه كتب عن ما رآه وشاهده بعينه وإن كان في الحقيقة لم ير من بلاد السودان إلا مدينة أودغشت [1]، وهو بنفسه يعترف بهذا ، وكذلك المهلبي الذي نجده يتميّز بمعلومات انفرد بها عن غيره من الجغرافيين ، لكننا لا نستطيع الجزم بأنه زار المناطق التي كتب عنها أم لا ، بحكم أن كتابه مفقود و لم تصلنا منه إلا شذرات مبثوثة في ثنايا كتب متفرقة [2] ،وهو في هذه الإشارات التي اقتبسها عنه غيره ، لا نجد فيها ما يمكن أن نستند عليه ونقول بأنه وصل إلى بلاد السودان ، وتأتي بدرجة ثانية المعلومات التي اعتمد فيها أصحاب المصنفات على أشخاص وصلوا إلى هذه المناطق ، ونقلوا معلوماتهم عنها بصفة مباشرة إلى أصحاب هذه المصنفات ، ويختلف هؤلاء من حيث صدقهم في الأخبار ، فشهادة رجل بسيط – كتاجر مثلا – لا تعدل شهادة فقيه أو عالم دين ، وأما الدرجة الثالثة وهي أقل الدرجات الثلاثة مصداقية ، فهي إدراج معارف منتشرة في الوسط الذي كتبت فيه المصنفات عن مناطق جنوب الصحراء وذكرها للمعلومات المتداولة بين عامة الناس[3].

وبالاعتماد على ما ورد في بداية هذا المبحث من تنظير يخصّ مصادر المعلومة سنحاول أن نطبّقه على المصنفات المتوفرة لدينا في :

الفزاري (ت بعد 180هـ/ 796م): لا تُسعفنا المادة الخبرية المتوفرة عن هذا الكاتب في إصدار أي حكم يخصّ مصادره في المعرفة والطريقة التي وصلت إليه أخبارٌ عن بلاد السودان إذ لا ندري فيما إذا كانت معارفه هذه كانت عن زيارة لهذه المناطق ، أم أنها مجرد نقل لمعارف ومعلومات سابقيه من خلال اطلاعه على الآداب اليونانية والهندية المترجمة إلى اللغة العربية ، وهو الذي كلّفه المنصور بذلك ، ولا ندري فيما إذا كان قد استقى معارفه هذه من خلال علاقاته

[1] ورد في موضعين من كتابه تصريحه بأنه "رأى بأودغست صكا قيمته اثنين وأربعون ألف دينار " ما يفيد بأنه كتب بعض أخباره عن هذه المنطقة بفعل مشاهدة مباشرة . انظر : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص65، وكذا ص 96.

[2] أكبر من حفظ مادة هذا الكتاب هما "**ياقوت الحموي**" الذي ينقل عنه في أكثر من ستين مرة ، إلى جانب "**أبو الفداء**" الذي ينقل عنه كثيرا هو الآخر . انظر :كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ،ج1 ، ص 230.

[3] كتلك المعلومات المتعلقة بسواد لون بشرة سكان هذا الإقليم الجغرافي .

بالسلطة العباسية الحاكمة في المشرق ما سمح له باستغلال بعض الوثائق المهمة وعلى الرغم من الإشارات التي نجدها في بعض المراجع المتأخرة عن وصوله إلى دولة غانة [1] إلا أنّنا من الصعب أن نقبل ذلك لعدّة أسباب منها مثلا عدم ذكر وصوله في بقية المصادر التي حفظت لنا بعض أعماله ،كما أن حجم المعلومات التي أوردها عن بلاد السودان لا تتعدّى الإشارة إلى حصره لامتداد ملكتين في جنوب الصحراء [2] ،كما أن النشاط التجاري في هذه الفترة لم يكن بالقوة بمكان حتى يستقطب تجار المشرق ، خاصة وأن بلاد المغرب كانت في فترة صراعات للانفصال عن السلطة العباسية وهو ما يقلّل من اعتبار أن الفزاري وصل إلى بلاد غانة .

الخوارزمي (ت بعد **232**هـ/**846**هـ): عُني بدراسة مؤلف الفزاري " **السند هند** " وعمل منها نسخة مصححة[3] ، ويشير كراتشكوفسكي [4] إلى أنه وضع كتابه " **صورة الأرض**" على هيئة " **زيج** " بمعنى جداول فلكية ، والكتاب ليس بترجمة ولكنه ترتيب لمادة بطليموس على هيئة جداول مع إضافات واسعة من ميدان الجغرافيا العربية ، وطائفة من التعديلات الأخرى ، فقد كان بإمكان الخوارزمي استغلال أرشيف بيت الحكمة الذي وضعه المأمون [5] ، لكن مرة أخرى لا نستطيع أن نعرف مدى أهمية المعارف المتعلقة بجنوب الصحراء المتوفرة في هذا البيت ، وربما هذه المصادر هي التي وفرّت للخوارزمي بعض المعلومات عن مناطق جنوب الصحراء ، خاصة إذا علمنا أنه لم يكن من الرحالة الذين دخلوا البلدان ، وحتى إمكانية اعتماده على أشخاص وصلوا إلى هذه المناطق يبقى بالاحتمال الضعيف بحكم أن منهجه الرياضي في التأليف يتطلّب منه القيام بحسابات فلكية دقيقة تبعد كل البعد عن الوصف الذي يمكن أن يقدمه له عالم أو فقيه أو تاجر .

---

[1] صرّح بهذا جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ،الكويت ، دار الفكر العربي ،1996، ص 25.

[2] هما : مملكة "غانة "و" ورام" . المسعودي ، مروج الذهب ، ج2 ص 234.

[3] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج1،ص 99.

[4] نفسه ، ج1، ص 100.

[5] أشار ابن النديم في الفهرست إلى أن الخوارزمي"...أصله من خوارزم وكان منقطعا إلى خزانة الحكمة للمأمون وهو من أصحاب علوم الهيئة..." ابن النديم ، الفهرست، ص 333.

ابن خرداذبه (ت 280هـ/893م): أثنى على كتبه المسعودي (ت332هـ/ 942م[1]) وبالعودة إلى الإشارة التي خلّفها هذا المؤلف في مقدمة كتابه "المسالك والممالك" [2] نجده يصرح بحقيقة مؤلفه الذي يمكننا اعتباره مجرّد ترجمة لكتاب بطليموس إذ يقول "...ووجدت بطليموس قد أبان الحدود وأوضح الحجة في صفتها بلغة أعجمية فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة... "[3] ولكن بالمقابل من ذلك فإننا نجد إشارات بخصوص المادة الخبرية عن بلاد السودان تفيد بأنها من بين النتائج التي توصل إليها ابن خرداذبه بنفسه إذ يشير إلى ذلك بقوله "... ووجدتُ أرض الحبشة والسودان مسيرة سبع سنين ..." [4] وربما جاءت استنتاجاته هذه من استفادته من صلته القوية بولاة الأمر آنذاك فحصل على الوثائق الرسمية التي استخدمها في مؤلفاته دون عناء يذكر ،كما أنه كان قد نال احترام وتقدير وحظوة الخليفة العباسي المعتمد فولاه خدمة البريد بفارس [5] .

اليعقوبي (ت 292 هـ/ 905م)[6]: نعرفه من كتابيه الموسومين بـ "البلدان " و " التاريخ " وبين الكتابين نجد فروقا في حجم المعلومات الواردة عن مناطق جنوب الصحراء ، فقد رسم اليعقوبي لنفسه منهجا محدّدا في الكتابة ، وفي طريقة اعتماده للخبر التي بناها على ملاحظاته الخاصة [7] وساعده على هذا أسفاره العديدة التي شغلته طيلة حياته فهو يشير إلى ذلك بقوله "...لأني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغربي ..." [8] ، لكنه لم يخترق الصحراء

---

[1] يقول المسعودي " ...فإنه كان إماماً في التأليف متبرعاً في مَلَاحة التصنيف، أتبَعَه من يُعْتَمد، وأخذ منه، ووطىء على عقبه، وقَفا أثره ...ومن كتبه النفيسة كتابه في المسالك والممالك وغير ذلك مما إذا طلبته وجدته، وإذا تفقدته حمدته..." . المسعودي ، مروج الذهب ،ج1، ص 14.

[2] سبقه إلى هذا العنوان مجموعة من المصنفين انظر: الفهرست : أحمد بن الحارث المدائني (258هـ/872م) ، ص 117،أبو عبد الله الجيهاني ص 153، أبو الفرج احمد بن الطيب السرخسي ص 166، جعفر بن احمد المروزي (274هـ/887م) ، الفهرست ، ص167.

[3] ابن خرداذبه ، المسالك والممالك، ص 03.

[4] نفسه ، ص 93.

[5] عبد الله الدفاع ، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية ، مكتبة التوبة ، د.ت ، ص75.

[6] سنه وفاة اليعقوبي كما ذكرها خليل المنصور محقّق كتاب تاريخ اليعقوبي. في حين وردت عند كارل بروكلمان (284هـ/897م) أنظر : كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ت ، عبد الحليم النجار ، ط5، القاهرة ، دار المعارف ،د.ت ، ج 4 ص 237 .

[7] آدم ميتز ، الحضارة الإسلامية ، ج2 ، ص 09.

[8] اليعقوبي ، ، تح جوين بول ، ليدن – هولندا ، مطبعة بريل ، 1860م.البلدان ، ص 02 .

الصحراء إلى بلاد السودان ، وبالمقابل من ذلك فإنه وصل دون غيره من المؤلفين السابقين إلى بلاد المغرب ، ووقف فيها على بعض الحقائق عن مناطق جنوب الصحراء بحكم أن بلاد المغرب كانت تُعتبر خزّانا معرفيا عن هذه المناطق ، ففي زمن اليعقوبي كانت الحركة التجارية والعلاقات مع بلاد السودان تشهد نقلة نوعية, مما وفر له إمكانية تتبع صدق الأخبار التي وصلته عن جنوب الصحراء من خلال سؤاله للتجار الذين سنحت لهم فرصة دخول بلاد السودان [1] ، وقد أشار إلى ذلك بقوله "...كنت متى لقيت رجلا من تلك البلاد سألته عن وطنه ومصره ، وإذا ذكر لي محل داره وموضع قراره سألته عن بلد ذلك ...ثم أثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم حتى سألت خلقا كثيرا وعالما من الناس في الموسم وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب وكتبت أخبارهم ..." [2] ، ومما يؤكد قوله هذا هي التعابير التي تجعله ينسب المعلومات عن مناطق جنوب الصحراء لغيره باصطلاح " بلغني " ويؤكد كراتشكوفسكي [3] كراتشكوفسكي[3] بأن اليعقوبي وفّى بمنهجه ، والتزم بدقة الخطة التي اتبعها ، ولكن ما يعاب على اليعقوبي ، هو عدم التصريح بهوية الأشخاص الذين أخذ عنهم معلوماته فهل هم يحسبون على الفقهاء؟ أم على التجار؟ وما إذا كان هذا الشخص قد رأى ما حدّث به اليعقوبي بنفسه ؟ أم أنه مجرد ناقل للمعلومة بدرجة ثانية ؟

ابن الفقيه (**ت 290 هـ/903م**): على الرغم من تشكيك المقدسي في هذا المؤلف [4] ، وكذا ابن النديم الذي اعتبر كتابه "البلدان" مجرد نقل من كتب غيره وخاصة كتاب الجيهاني [5] ، إلا أنه يعتبر الأكثر تقيّدا بعزو المعلومة إلى المصدر الذي أُخذت منه ، وربما يعود السبب في ذلك إلى كونه متضلعا بعلم الحديث الذي يعتمد بشكل أساسي على المتن والإسناد في نقل الحديث ، مما جعله يطبّق هذا الأمر في كتابه "البلدان" خاصة في المعلومات التي تعلّقت ببلاد السودان ، والنقل عنده نوعان :

---

[1] عاصر فترة تجارة الدولة الرستمية مع بلاد السودان .

[2] اليعقوبي ، البلدان ، ص ص 02-03.

[3] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج1، ص 159.

[4] يقول المقدسي" ... وأما ابن الفقيه الهمذاني فإنه سلك طريقة أخرى و لم يذكر إلا المدائن العظمى و لم يرتب الكور والأجناد وأدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم مرة يزهد في الدنيا وتارة يرغب فيها ودفعة يبكي وحينا يضحك ويلهى ..." المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص 04.

[5] ابن النديم ، الفهرست ، ص 171.

النوع الأول : ينسب الكلام مباشرة إلى قائله حتى وإن بعد الزمن بينهما مسقطا من ذلك سلسلة الرجال الذين نقلوا الخبر أو ما يسمى بالسند في الرواية فهو يشير مثلا إلى حديث لعبد الله عمر بن العاص بن وائل عن صورة الدنيا التي مُثّلت على هيئة طائر وكانت بلاد المغرب والسودان تشكلان ذيل هذا الطائر [1] ويورد نفس المعلومة في جهة ثانية من الكتاب لكنه في هذه المرة لا يشير إلى مصدره الأول ، إنما ينسبها للحكماء دون الإشارة إلى أسمائهم أو صفاتهم [2] ، ثم مرّة أخرى يستند إلى أوصاف السودانين إلى لشخص اسمه " زادان فروخ " الذي أوقفه الحجاج بن يوسف بين يديه وسأله عن العرب والعجم [3] ، وأما عن امتداد بلاد السودان فإنه يأخذ معلوماته عن " أبو خلف " [4] ثم يشير إلى وجود نيل في بلاد أنبية [5] من كلام "للمشتري بن الأسود" [6] الذي يزعم أن معلوماته هذه كانت نتيجة معاينة ومشاهدة مباشرة .

النوع الثاني : في هذا النوع من عملية النقل عن غيره لا يسمّي ابن الفقيه مصادره بأسمائها ولكنه ينسب المعلومات التي ذكرها لغيره وذلك إمّا لكونه غير واثق من هذه المعلومة ، أم أنه نقل بعض المعارف المنتشرة في عصره و لم يختصّ بها أحد عن غيره فيوردها بتعبير "قالوا" أو " قُسّمت" بناء للمجهول ، وأحيانا يخصّص من هذا العموم بنسب المعلومة للحكماء ما قد يضفي عليها بعضا من المصداقية .

المسعودي (ت 346 هـ/957م)[7] : يعتبر"... أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة في القرن العاشر... " على حد قول واحد من أفضل المتخصصين في هذا الفرع من الأدب في عصرنا [1] له مجموعة متنوعة من المصنفات أغلبها ضائع

---

[1] ابن الفقيه ، المسالك والممالك ، ص ص 03-04.

[2] نفسه ، ص 119.

[3] نفسه ، ص 114.

[4] نفسه ، ص 04.

[5] بلاد أنبية : منطقة في الصحراء تبعد عن سجلماسة بمسيرة خمسين رحلة إلى الجنوب وأهلها من صنهاجة، ليس لهم قرار شأنهم ،كلهم يتلثمون بعمائمهم، سنة فيهم، ولا يلبسون قمصاً، إنما يتشحون بثيابهم، ومعاشهم من الإبل، ليس لهم زرع، ولا طعام . اليعقوبي ، البلدان ، ص 151 .

[6] ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ص 64.

[7] محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تح : إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، د.ت ، ج3 ، ص 12.

منها كتاب "**أخبار الزمان** "[2] يضم ثلاثين مجلدا لم يبق منه سوى جزؤه الأول [3]، ثم ألف بعده كتابا آخر هو "**مروج الذهب ومعادن الجوهر** "، وقد ذكر أنه اختصر فيه ما ذكره في كتابين سابقين هما " **أخبار الزمان** "و " **الكتاب الأوسط** "[4]، كما وصلنا من كتبه أيضا جزء من كتاب " **التنبيه والإشراف**"[5] ،وقد أشار ابن خلدون إلى أنه على الرغم من أن كتب المسعودي فيها من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الإثبات ، ومشهور بين الحفظة الثّقات ، إلا أن من جاء بعدهم اختصهم بقبول أخبارهم واقتفى سننهم [6]، وعلى العموم فهذه الكتب تحتوي إشارات تخص بلاد السودان.

لم يوضّح لنا المسعودي منهجه في اعتماد الخبر عن بلاد السودان ، أو حتّى عن غيرها من البلدان ، لكن الإشارات التي تضمّنها كتابه تمكّننا من الوصول إلى بعض النتائج المهمّة التي مكّنت المسعودي من أن يورد فصلا مستقلا في كتابه عن بلاد السودان بعنوان " **فصل في ذكر السودان وأنسابهم واختلاف أجناسهم وأنواعهم وتباينهم في ديانتهم وأخبار ملوكهم** [7] لكنه فصل ركزّ فيه جلّ اهتمامه على وصف الأجزاء الشرقية من بلاد السودان بسبب أن المعلومات توفرت له بغزارة عن هذا الإقليم ، لأنه وصل في إحدى رحلاته مع التجار إلى هذا المكان ، فكان كلامه عن السودان الشرقي مبنيّا على معاينة ومشاهدة مباشرة ، لكنّه لم يستطع التوغل أكثر من ذلك في السودان ، وبالتالي فكلامه عن السودانيْن الأوسط والغربي ، كان نتيجة المجهود الذي بذله من أجل الوصول إلى صدق الخبر ، فاعتمد على المادة المتوفّرة في الكتب السابقة ، وكان قد عُرف عنه سعة اطلاعه ونقده للمصادر السابقة ، وقد تبنّى بعض الأقوال التي اعتقد فيها الصدق عند مؤلفيها ، فيكرّر مثلا أقوال "ابن خرداذبه" بخصوص امتداد أرض الحبشة وسائر بلاد

---

[1] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج 1، ص 177، وكذا مينورسكي الذي يجعله في الطليعة ،والممثل النموذجي لبني جنسه من حيث حُبّه الأسفار وحيوية ملاحظاته .أنظر: م.ف. مينورسكي ، الجغرافيون والرحالة المسلمون ، ت . عبد الرحمن بن حميدة ، الكويت ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، 1985، ص 13.

[2] عنوان الكتاب الكامل هو :كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغمر بالماء والعمران .

[3] عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ، دمشق ، دار الفكر ، 1995، ص 310.

[4] المسعودي ، مروج الذهب ،ج 1 ، ص 10.

[5] المسعودي ، كتاب التنبيه والإشراف ، مطلعة بريل ، ليدن– هولندا ، 1893.

[6] ابن خلدون ، التاريخ ، ج1 ، ص 07.

[7] المسعودي ، مروج الذهب ، ج2 ،ص ص 04 - 31.

السودان[1] ، وعن خصال الجنس الأسود فهو يستمد أقواله عن طبيب يوناني يدعى " جالينوس "[2] و"يعقوب ابن إسحاق الكندي "[3]، مما يشير كذلك إلى إطلاعه على المصنفات الغير عربية ،كما أن المسعودي حفظ لنا إشارات عن مناطق جنوب الصحراء نقلا عن كتب أخرى ضائعة في عصرنا هذا كانت متوفّرة في عصره ، وأما المعلومات التي لم يستطع تتبعها أو التأكد من صحتها فنجد المسعودي يقف منها موقف الحذر ، ويسبّقها بمصطلح "زعم" كما فعل ذلك في المعلومات التي أخذها عن الفزاري[4] بخصوص امتداد ممالك جنوب الصحراء ،كما يورد أيضا معلومات أخرى كثيرة لا يشير فيها إلى مصادره .

الأصطخري (ت **338**هـ/**950**م) : اعتمد في تصنيف مؤلفيه " **كتاب الأقاليم** " و" **المسالك والممالك** " على رحلاته لطلب العلم والمعرفة في الآفاق الإسلامية ، وعلى ما نقله من كتاب " صور الأقاليم " لأبي زيد البلخي [5]، وأقرب نقطة وصلها من بلاد السودان هي مصر ، ومصادره عن هذه المنطقة شفهية لا ينسب الأقوال لأصحابها ، ويكتفي بتعابير "وبلغني " [6] و " يُقال"[7] وهو في ذلك يبعد القول عنه ، ويبرأ نفسه من هذه المعلومات .

ابن حوقل (بعد **367** هـ / بعد **977** م)[8]: حُفظت لنا مادته التي جمعها تحت اسمين مختلفين فوردت مرة باسم " " **كتاب المسالك والممالك**[9] " ومرة أخرى باسم " **كتاب صورة الأرض**" [10] ، ومع ابن حوقل نشعر بالرغبة العميقة في التعرّف على جنوب الصحراء ، ففي سنة (**340**هـ/ **951**م) زار ابن حوقل مدينة سجلماسة ، ومنها دخل الصحراء وتوغل فيها إلى أن مدينة أودغشت القريبة أو المجاورة للسودان ، ومن ثمة اكتسبت أقواله ومعلوماته عن

---

[1] المسعودي ، مروج الذهب ، ج1، ص 164.

[2] نفسه ، ج 1، ص ص 81- 82.

[3] ابن خلدون ، التاريخ ، ج1 ، ص 109.

[4] المسعودي ، المصدر السابق، ج2 ،ص 235.

[5] زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، بيروت ، دار الرائد العربي ،1981م ، ص 36.

[6] ورد هذا التعبير عند الأصطخري في ذكره لمعلومات تتعلق ببلاد السودان ، مسالك الممالك، ص07، وكذا ص 11 .

[7] ورد هذا التعبير عند الأصطخري ، نفسه ، ص 40.

[8] الزركلي ، الأعلام ، ط5، دار العلم للملايين ، 2002، ج6 ص 111.

[9] وردت تسمية كتاب ابن حوقل باسم " المسالك والممالك " في طبعة بريل بمدينة ليدن- هولندا ،1872.

[10] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ج1 ، ص 201.

الصحراء أصالة ومصداقية بالغتي الأهمية ، لم تجد المصادر اللاحقة بدا من تأكيدها ومسايرتها ، إذ ليس من الأحسن أن نعتمد وثيقة يقول فيها صاحبها ' شاهدت وعاينت ' .[1]

وبالإضافة إلى الرحلة والتنقل بين البلدان التي استغرقت من ابن حوقل ثلاثين سنة ، زار خلالها العالم الإسلامي شرقا وغربا [2] ،كانت له هذه الرحلات معينا جيّدا على التّحقّق من صدق معلوماته ، كما وضع من جهة ثانية منهجا صارما في اعتماد الخبر ،وجعل شروطا دقيقة في ذلك ، وكان التّحقّق من صدق الخبر أساسا لإدراجه في مصنّفه ، وقد بيّن ذلك في كتابه إذ يقول " ...وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقا وأخاله بما أسأله عنه خبيرا عالما فأجد عند إعادة الخبر الذي أعتقد فيه صدقه ، وقد حفظت نسقه وتأملت طرقه ووصفه أكثر ذلك باطلا ، وأرى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلا ثم أعاوده الخبر الذي ألتمسه منه والذكر ليسمع الذي استوصفته وأطالع معه ما صدر مع غيره في ذلك بعد روية ، وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية ..."[3]

فإلى جانب الرحلة والوصول إلى أودغشت على مشارف بلاد السودان ، فقد اعتمد ابن حوقل أيضا على ما طالعه في المصنفات السابقة ، فقد أشار إلى شغفه الكبير بقراءة المصنفات خاصة تلك التي عُنيت بتوضيح المسالك والممالك [4] إذ كانت عنده مجموعة كتب لا تفارقه في أسفاره خاصة كتاب" المسالك والممالك" لابن خرداذبه ، ،كما ،كما كان التقاؤه بالأصطخري فرصة له ليراجع ويصحّح بعض أخطاءه ويتدارك بعض نقائصه [5]، إلى جانب هذا كله ، ، فإنه لم يقف عند حدّ النقل من المصادر الموثوقة فحسب ، بل إنه عمل على تفنيد بعض الأباطيل التي تناقلتها الكتب كالامتداد الواسع لبلاد السودان على سبيل المثال [6].

ومع ابن حوقل أخذت بلاد السودان تخرج من منطقة الظل والهامش بالمعنى الاصطلاحي والجغرافي [7].

---

[1] أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 23.

[2] عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، ص 210.

[3] ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 283.

[4] نفسه ، ص 10.

[5] نفسه ، ص 284.

[6] يقول ابن حوقل "...وأين امتداد بلد السودان سبعة أعوام في السماء أم تحت الأرض .....وجميع أرضهم لا تزيد على خمسين ومائتي مرحلة ..." نفسه ، ص 340.

[7] الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 23.

المقدسي (ت **387**هـ/ **997**م): هو "...أكثر الجغرافيين المسلمين بريقا وأهمهم في الوقت نفسه ..." على حد تعبير كل من مينورسكي[1] وكارل بروكلمان[2] ، ويُعتبر منهجه الأكثر دقة وصرامة من مناهج جميع المصنفات التي سبقته ، فهو يشرح ذلك بالتفصيل الدقيق في مقدمة كتابه " **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** " ، يشير فيه إلى الطريقة التي سلكها في جمع مادة كتابه إذ يقول " ...وما تمّ لي جمعه إلاّ بعد جولاتي في البلدان ، ودخولي أقاليم الإسلام ، ولقائي العلماء والملوك ، ومجالستي للقضاة ، ودرسي على الفقهاء ، واختلافي إلى الأدباء والقرّاء ، وكتبة الحديث ، ومخالطة الزهاد والمتصوّفين ، وحضور مجلس القصاص والمذكرين ، ... ودوراني على التخوم حتى حرّرتها ، وتنقلّي إلى الأجناد حتى عرفتها ..." [3]

ثمّ يشير في موضع آخر من الكتاب إلى مصادره ، وطريقته المعتمدة في قبول أخبار دون أخرى ، فقد بنى كتابه على ما شاهده وعقله بنفسه ، بالإضافة إلى ما تحصّل عليه من معلومات نتيجة استقصائه الخبر من المسافرين فيقول " ...وقد ذكرنا ما رأيناه ، وحكينا ما سمعناه ، فما صح عندنا بالمعاينة وأخبار التواتر أرسلنا به القول ، وما شككنا فيه أو كان من طريق الآحاد ، أسندناه إلى الذي منه سمعناه... " [4] ويُضيف في موضع آخر أنه ينسب القول الذي لم يقبله عقله إلى قائله ، أو أضاف إليه تعبير " زعموا " , [5] ثمّ إنه بعد كل هذا ، نجده يحاول تجنّب تكرار ما ذُكر سالفا في المصادر التي سبقته ، ويسعى من خلال ذلك إلى تقديم جديد للمعرفة بصفة عامة[6].

هذا التّميز الذي اتّصف به المقدسي عن غيره من الجغرافيين ، يدعونا إلى الاعتقاد بأنه تميّز قد ينعكس على إمدادنا بمعلومات جديدة لمناطق جنوب الصحراء على سبيل المثال ، لكن بالعودة إلى مصنفه " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " فإننا نجد بأن المعلومات عن هذه المنطقة تكاد تنعدم ، بل وتقترب من الندرة ، والشيء القليل الذي ذكره هو مجرّد معلومات نقلها من مصادر سابقة وثِقَ المقدسي في صدق أصحابها وفيما أوردوه من أخبار .

---

[1] مينورسكي ، الجغرافيون والرحالة المسلمون ، ص 14.

[2] كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج4 ، ص 253.

[3] المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص 02.

[4] نفسه ، ص 08.

[5] نفسه ، ص 03

[6] نفسه ، ص 06.

هذا الأمر يجعلنا نتساءل عن نوعية التعامل الذي خصّ به المقدسي المعلومات التي حصّلها عن بلاد السودان ، وهو الذي جاءت كتاباته في فترة توفّرت فيها معلومات أفضل من تلك التي توفرت لسابقيه ، باعتبار أنه متأخّر زمنيّا ، ما يسمح له بالاطلاع على ما دُوّن في باقي المصنفات قبل وضعه لكتابه ، فهل تفسير هذا الشح في المعلومات يعود إلى تقيّده بمنهجه المقتصر على ذكر البلاد الإسلامية فقط ، وبالتالي فبلدان السودان خارجة عن دائرة اهتماماته ؟ أم أنّ الأخبار التي وصلته عن هذه المنطقة جاءته بطريقة يُشكّك فيها المقدسي و لم يقبلها ما جعله يقصيها من كتابه ؟ و لم يقبل منها إلا الترر اليسير ، وإذا كانت قلة المعلومات التي وصلتنا عن جنوب الصحراء سببها هذا التحري العميق الذي طبّقه المقدسي على مصادر خبره ، فإننا ننضمّ بدورنا إلى قائمة المؤلفين الذين يجعلون المقدسي على رأس الجغرافيين العرب والمسلمين .

المهلبي (ت **380**هـ/ **990**م) : كتابه ضائع من أصله ، لكن بالعودة إلى العمل الذي قام به "**تيسير خلف**"[1] في جمعه لمادة هذا الكتاب من المصادر التي نقلت عنه ، فإنه يمكننا تتبع أهمية هذا الكتاب الموسوم بعنوان " **المسالك والممالك** " كما نجده شائعا باسم آخر هو " **الكتاب العزيزي** " ،يقول هذا الكاتب في شأن مصادر المهلبي في الأخبار " ...ومن الواضح أن المهلبي أراد لكتابه أن يكون جديدا في كل شيء ، فلم ينقل عن غيره من المصنِّفين العرب الذين سبقوه في هذا العلم ، و لم يشر إلى أي مصدر ، كما أن الدراسة المقارنة للنصوص تجعلنا نجزم بأن معلوماته أصيلة حققها بنفسه ، ومصدرها تجربة شخصية وبحث ميداني... " [2] ، لكن بالمقابل من ذلك ، لا نجد عند المهلبي أيّ تصريح من شأنه أن يُفيدنا بأنه وصل إلى مناطق جنوب الصحراء ، لكنّ مادته التي أوردها – ولو لم تكن نتيجة معاينة ومشاهدة مباشرة – فإنها تعبّر بحال من الأحوال عن حقيقة أنها أصيلة وفريدة عن سابقاتها ، فقد تحدّث عن إقليم السودان بطريقة علمية مفصّلة لم يسبقه إليها أحد ، فقد تناول النواحي الطبوغرافية والاجتماعية والاقتصادية ممّا جعل هذا الكتاب من المصنفات النادرة والمفيدة في هذا المجال ، بقي هذا الكتاب المصدر الوحيد لمن أراد أن يكتب عن إفريقية وخاصة القطر السوداني [3].

---

[1] جمع تيسير خلف مادة هذا الكتاب من بقية المصادر التي احتفظت ببعض الفقرات من كتاب المهلبي الضائع .

[2] المهلبي ، المسالك والممالك ، ص 19.

[3] عبد الله الدفاع ، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية ، ص122.

المبحث الرابع : نوع المعرفة المحصّلة عن بلاد السودان في المصادر الجغرافية حتى منتصف القرن (5هـ/11م) [1].

لقد رأينا من خلال المباحث السابقة الظروف العامة التي كانت سائدة قبل منتصف القرن الخامس هجري، الموافق لمنتصف القرن الحادي عشر ميلادي ،والعوامل التي توفّرت للعرب ضمن هذا المجال الزمني والتي من خلالها تمكنّوا من معرفة بعض الحقائق المتعلقة بإفريقيا ما وراء الصحراء ، كما رأينا أيضا كيف تحكّمت المناهج التي تمّ اعتمادها في طريقة التأليف في إبراز نوع محدّد من المعلومات ، أو اختصار للمادة الخبرية ، أو اقتصار على جانب معرفي دون آخر ، وأشرنا كذلك إلى بعض أصحاب المصنّفات الذين أفردوا بعض الفقرات في كتبهم للحديث عن بلاد السودان ، ومناهجهم وطريقهم في قبول الأخبار عن هذا الإقليم ، أو رفضه ، أو التحفظ عليه ، هذه الأمور كلها أدت إلى تحقيق مجموعة من المعلومات عن إفريقيا جنوب الصحراء تراوحت في أهميتها ومدى تصويرها للحقيقة التاريخية ، وصحّة المعلومات التي أوردتْها عن هذا الإقليم الجغرافي كمكان ، وما يتعلق به من مظاهر السطح الطبيعية ، والأجناس البشرية التي تستوطنه ، وشكّلت لنا بهذا مادة مصدرية مهمّة حاولت أن تفصّل في بعض القضايا التي تخصّ بلاد السودان والعناصر السكانية التي تستوطنه .

سنحاول ضمن هذا الإطار المخصّص للبحث تتبّع صفة المعرفة التي توصل إليها الجغرافيون العرب انطلاقا من أعمالهم المدونة المحفوظة لنا في مصنفات مستقلة قائمة بذاتها ، أو حتى التي بقيت منها أجزاء محفوظة في مصنفات أخرى ، آخذين بعين الاعتبار العامل الزمني كمرجع أساسي حتى نتمكّن من تحديد مراحل التطور من جهة ، ومراحل التراجع من جهة أخرى ، لكن قبل هذا ، سنحاول التحدّث قليلا عن بعض النقاط المهمّة التي تخصّ طبيعة هذه المعلومات وبعض الخصائص المشتركة التي اجتمعت فيها الكتابات الجغرافية حتى قبل منتصف القرن الخامس هجري الموافق للقرن الحادي عشر ميلادي.

[1] عن عدد المصادر الجغرافية وتوزيعها على القرن الثلاثة المخصّصة للدراسة أنظر الملحق رقم :08 .

تُعدّ مهمة وصف إقليم معيّن وإيضاح ما يتعلّق به من مظاهر السطح الطبيعية والتضاريسية والبشرية إحدى النّقاط الرئيسة التي بُني عليها العلم الجغرافي عند العرب [1]، فقد ظهر ذلك جليّا في المصنفات الجغرافية التي وصلتنا ، حيث كان العامل المحدّد في عملية الوصف هذه ، هو مدى توفر المعلومات عن هذه المنطقة أو تلك ، فقد حظيت المناطق القريبة من أماكن التدوين الجغرافي بنصيب وافر من الكتابات الجغرافية من دون بقية المناطق أو الأقاليم ، وخير مثال على ذلك جزيرة العرب اختصت بقدر كبير من الكتابات الجغرافية اللّغوية فركزت على ذِكر كل ما يتعلّق بمظاهرها التضاريسية من جبال ، وأنهار ، ووديان ، وأمطار ...الخ [2] ، في حين لم يكن نصيب المناطق البعيدة عن جزيرة العرب في هذه الكتابات إلا قليلا ، بل وتوجد هناك مناطق أخرى أهملت تماما ، و لم تحظ بأية إشارة تُذكر ، وهي في ذلك بين غائبة ومغيّبة ، يشير أبو الفداء[3] إلى هذه النقطة وهي التّركيز على منطقة دون أخرى ، وضرب المثال ببلاد السودان التي ذكر بأنه على الرغم من اتّساع مساحتها وكثرة سكّانها ، إلاّ أن ما هو مخصّص لها في التدوين قليل

---

[1] الجغرافيا : كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض ويقال : جغراويا بالواو على الأصل وهو : علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض وعروض البلدان الواقعة فيها وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها إلى غير ذلك من أحوال الربع كذا في (مفتاح السعادة) قال الشيخ داود في تذكرته : جغرافيا : علم بأحوال الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار وما يختلف حال السكان باختلافه . انظر : حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مج 1 ،ص 590.

[2] حضت الجزيرة العربية بمجموعة من الكتابات الجغرافية منها ما تناولها بشكل عام والبعض اختص بإبراز جانب معين منها أنظر على سبيل المثال :

- الهمذاني، صفة جزيرة العرب ، محمد بن علي الأكوع الحوالي ، صنعاء ، مكتبة الإرشاد ،1990.
- وكذا مصنفات هشام الكلبي في البلدان " كتاب البلدان الكبير "، "كتاب البلدان الصغير"، " كتاب تسمية من بالحجاز من أحياء العرب"، "كتاب الأنهار" ،" كتاب أسواق العرب "،" كتاب الأقاليم"، "كتاب الحيرة وتسميه البيع والديارات ونسب العباديين" . أنظر: ابن النديم ، الفهرست ،ص 109.
- وكتابات الأصمعي مثل : "كتاب جزيرة العرب", "كتاب مياه العرب". نفسه ، ص 61.
- ومن المصنفات المتأخرة : البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تح ، مصطفى السقا ، بيروت ، عالم الكتب ، 1983 .
- الزمخشري ، الجبال و الأمكنة و المياه ، تح ، جين بول ، ليدن ، مطبعة بريل ،1855.

[3] يقول أبو الفداء " ...فإن إقليم الصين مع عظمته وكثرة مدنه لم يقع إلينا من أخباره إلا الشاذ النادر ... وكذلك بلاد السودان في جهة الجنوب فإنها أيضا بلاد كثيرة لجنوس مختلفة من الحبشة والزنج والنوبة والتكرور والزيلع وغيرهم فإنه لم يقع إلينا من أخبار بلادهم إلا القليل النادر ..." أبو الفداء ، تقويم البلدان . تح ، رينو والبارون دوسلان ، باريس ، دار الطباعة السلطانية ،1840، ص 02.

مقارنة مع غيرها من المناطق حتى تلك التي تصغُرها في المساحة وتقلّ عنها في الأهمية ، وأوعز ذلك إلى قلّة المعلومات التي توفّرت عنها ، وتبقى المعلومات المتوفرة عن بلاد السودان هي تلك التي وردت في إطار عرضي في المصنفات الجغرافية العربية ابتداء من القرن الثاني هجري الموافق للقرن الثامن ميلادي وتتّبعها يعكس لنا التطور المعرفي العربي عن هذه المنطقة .

وعلى الرغم مما يُعيبه البعض على الكتابات الجغرافية مثلا أن التقدم في المعلومات فيها ليس مطّرِدا مع توالي السنين[1] وتخلف من مصدر إلى آخر ، بمعنى أن حجم المعرفة الواردة عن جنوب الصحراء يتقدم أحيانا ويتراجع أحيانا أخرى ، وهذا أمر صحيح إذا تعاملنا مع كل مصنف جغرافي على حدة ، فأحيانا نجد في مصادر متأخرة زمانيا معلومات قليلة جدّا بالرغم من توفّر مصادر سابقة عنها توفر لها أرضية ممهّدة للكتابة أو حتى تكرار معلومات سابقة ، ولكن إذا تعاملنا مع عدد المصنفات إجمالا، فإن هذا الأمر لن يبق له أساس من الصحة ، إذ أننا نجد تباينا ملحوظا في أهمية وصحّة المعلومات المقدمة لنا حسب القرون ، فالمعلومات المذكورة في مصادر القرن الرابع الهجري (10م) تختلف عن معلومات مصادر القرن الثالث هجري (9م) والتي تختلف بدورها عن معلومات مصادر القرن الثاني هجري(8م) ، ولكن ما يُعاب على هذه المصادر هو النقل المباشر عن المصنّفات السابقة ، دون إعمال العقل في هذه المعلومات، فتأخذ معلومات من الماضي وتُسقطها على حاضر المصنِّف ، وهي في حقيقة الأمر لم تعد لها صحة في زمن كتابة هذا المصنف .

كما تجدر الإشارة إلى نقطة أساسية تكرّرت في أغلب هذه المصادر الجغرافية قبل منتصف القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر ، وهي ظاهرة "التعميم" فعلى الرغم من المساحة الشّاسعة لهذا الإقليم الجغرافي ، إلى جانب التّنوع الكبير في الأجناس التي تستوطنه ، فقد بقي حجم المعلومات التي وصلت عنه قليلة جدّا، و لم يتمكن هؤلاء الجغرافيون من الولوج إلى أعماق هذا المناطق ، وتفكيك وفهم هذا النسيج الطبيعي والاجتماعي، فكان يقع الحديث عن بلاد السودان في نصوص قليلة جدا ، تصور إمّا مجالا جغرافيا واسعا ، أو وصفا لسكان البلاد ككل، ممّا أدّى إلى ظاهرة تعميم المعلومة على كامل المنطقة ،كما نجد أحيانا أخرى معلومات قليلة تنسحب على مكان جغرافي واسع وعلى إطار زماني ممتد ، وهذه الظاهرة ستتلاشى تدريجيا مع الزمن ، لتخرج من هذا الطابع العام لتتخصص بعض

[1] عبده زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، ص 24.

الشيء ، لنجد بعدها معلومات كثيرة تصوّر لنا منطقة جغرافية محدّدة ، بل وتتطرق لوصف بعض الجزئيات المتعلّقة بالمنطقة ضمن إطار زماني محدود .

المعرفة المحصلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان حتى القرن (2هـ/8م)[1]:

كان من نتائج توسع النشاط التجاري الذي ربط بلاد المغرب مع مناطق جنوب الصحراء خاصة في عهد الدولة الرستمية التي أولت اهتماما متميّزا للنشاط التجاري الذي لم يكن قاصرا على التّجار البسطاء فحسب ، وإنما تعدّت إلى مشاركة السلطة السياسية في هذه العملية [2] ، ممّا ولد اهتماما جماعيا بالتجارة ، ما أدى إلى استحداث طرق واستعمالها إلى بلاد السودان ، فهذا الأمر كان له انعكاس واضح على تطوّر معرفة العرب عن هذه المناطق الصحراوية خصوصا تلك المناطق التي كانت جزءا في عملية التبادل التجاري ،كالمسالك ، والمراكز التي كانت تتمّ فيها عمليات التبادل التجاري .

إن هذا التطور الواضح في مسيرة العلاقات بين المنطقتين ، سيكون له انعكاس واضح على الكتابات العربية ، سواء تلك المتعلقة بالمجال الجغرافي أو حتى ببقية المجالات ، إذ استقر مفهوم المكان ، وكذا الجنس الأسود الذي يقطنه فبدأت هذه المناطق تدخل في أدبيات التأليف عند العرب ، وستتطور تدريجيا انطلاقا من أول إشارة عرضية غير مستهدفة ، وصولا إلى إفراد المنطقة بنصيب تأريخي ووصفي مهم .

يتّفق الكثير من الباحثين [3] على اعتبار أن أول إشارة وصلتنا عن بلاد السودان تقدّم وصفا موجزا لهذه المنطقة تعود إلى نهاية القرن الثاني هجري الموافق للقرن الثامن ميلادي ، هي تلك الإشـــارة التي حفظها لنا كل من

---

[1] نجد في هذه القرن مصدر جغرافي واحد تحدّث عن بلاد السودان .

[2] عن تجارة وعلاقات الدولة الرستمية مع بلاد السودان أنظر : – جودت عبد الكريم ، العلاقات ، ص ص248– 293.

– إبراهيم بحاز : الدولة الرستمية (160هـــ–296هـــ)(777م – 909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية ، الجزائر ، دار ألفا ، ط3، 2010 ص ص 252– 286.

– Tadeusz Lewicki,<< L'ètat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental a la fin du 8e et au 9e siècle>>, *Cahiers d'ètudes Africaines*, Vol , 2 , Cahier 8 (1962) , p. 513- 535 .

[3] أنظر : – فيج .جي .دي ، تاريخ غرب إفريقيا ،ت.يوسف نصر ، القاهرة ، دار المعارف ، 1982،ص 16. أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 19.

المســـعودي [1] في كتابه " مروج الذهب ومعادن الجوهر "والبكري [2] في كتابه "المسالك والممالك "، والتي تعود للفلكي الفزاري نقلها المسعودي عنه من كتابه الضائع "القصيدة " وتضمّنت الإشارة ما يلي : " عمل غانة بلاد الذهب ألف فرسخ في ثمانين فرسخا ، وعمل ورام مائتا فرسخ في ثمانين فرسخا ".

تُعتبر هذه الإشارة هي جلّ ما تمّ تسجيله من كتابات الفزاري عن جنوب الصحراء ، ولا نعلم فيما إذا كان هذا هو كل ما ذكره الفزاري عن بلاد السودان أم لا ، والمهمّ أن الفزاري أورد ضمن هذه الإشارة المختصرة اسمين لمملكتين سودانيتين ، وحدّد مساحة كلّ منهما ، وموقعها بالنسبة للأخرى ، فمملكة وارم تقع شرق غانة ، أمكننا استنتاج هذا من منهج الفزاري في ذكره للممالك الذي يبتدئ من الجهة الغربية للمعمورة وصولا إلى أجزاء الأرض الشرقية ، فهو إلى جانب تحديده لمساحة هذين الكيانين السياسيين بالفراسخ – وهي مساحة واسعة جدا مقارنة مع حجم المملكتين الحقيقي [3] – فهو يُشير أيضا إلى أن غانة تُعرف ببلاد الذهب ، وهذا له دلالة واضحة على الارتباط الوثيق بين المنطقة والتجارة المغربية خاصة تجارة الذهب .

لا تعبّر هذه المعلومات عن جميع المعرفة العربية عن هذا المكان الجغرافي ، فبالعودة إلى المصنفات غير الجغرافية المخلّفة لنا في هذه الفترة ، أو حتى تلك التي سبقتها ، فإننا نجد إشارات أخرى مهمّة تتحدّث عن الأجناس السودانية التي تستوطن هذه المنطقة الجغرافية ، ونقصد بهذا كتابات المؤرخ العربي " وهب بن منبه " [4] المولود في اليمن في منتصف القرن الأول هجري، الموافق للـــقرن السابع ميلادي ، والمتـــوفى في بداية القرن الثـــاني هجـــري الموافق للثلث الأول من القرن الثامن الميلادي فهو أول كـــاتب عربي تعرّض لـــذكر الســـكان الـــسود ضمن شـــعوب

- Nehemia Levtzion , << Ibn-hawgal , The Cheque , and Awdaghost >> , *The Journal African History* , Vol , 9 , No , 2 (1968) ,p 15.

[1] المسعودي ، مروج الذهب ،ج2 ، ص 234.

[2] البكري ، المسالك الممالك ، ج 2 ، ص 62.

[3] يري لوفيتسكي T. Lewicki أن الفزاري بالغ في تقديراته ، وبدل أن يعبّر عن المساحة بالميل ذكرها الفراسخ إذ أن الفزاري خلط بين وحدتي القياس وجعلهما متساويتين ، وعليه قدم قياسات جديدة لمملكة غانة التي قدرها ب (20000كلم في 160 كلم) ومملكة وارم (400كلم في 160 كلم) . أنظر :

- T. Lewick , op.cit , p. 517 .

[4] حُفظت إشارات وهب ابن منبه عند ابن قتيبة ، المعارف ، ص26.وابن الأثير ، الكامل ، ج1 ، ص 61.

العالم[1] ، وحاول أن يبحث في التاريخ ويبرّر لنا لون السواد الذي لحق بسكان هذا الإقليم ، فالأمر عنده لا يتعلّق بالعامل الجغرافي أو المناخي أو بنظرية الهواء المؤثر على لون البشرة ، بقدر ما هو عائد إلى دعوة لنوح على أحد أبنائه ،كانت سببا في تغير لونه ، وألوان بنيه من بعده إلى الأسود .

لم يقف وصف ابن منبه عند هذا الحد ، فقد ذكر أن ابن نوح المقصود بهذه اللعنة هو " حام " الذي سار بعدها إلى جهة القارة الإفريقية وعبر النيل ، وكان له ثلاثة أولاد وهم " كوش بن حام ، وكنعان بن حام ، وفوط ابن حام " ومن نسل كل من كوش وكنعان ، كانت أجناس السودان النوبة والزنج والقران والزغاوة والحبشة والقبط وبربر من أولادهما.

جميع هذه الأجناس التي ذكرها ابن منبه لا تمتّ بالسودان الغربي بصلة ، وباستثناء الزغاوة الذين نجد لهم تواجدا في السودان الأوسط ، فإن بقية الأجناس الأخرى كلّها تنتشر في السودان الشرقي ، بمعنى آخر بقيت الأجناس التي تستوطن السودان الأوسط والغربي مجهولة حتى هذا القرن .

هذه النظرية التي قدمها "وهب بن منبه" ، والتي تعود إلى معرفة هذا المؤلف وإطلاعه كما يزعم على عدد كبير من الكتب القديمة ، والسماوية وبالخصوص التوراة ، بحكم أن وهب هذا كان يهوديا ثم أسلم ، ستجد آراءه وتفسيراته هذه قبولا كبيرا عند باقي المصنفين العرب ، وستشكّل قاعدة ثابتة في تفسير أصل السودانين، واستمرت تمثّل القول الفصل حتى نهاية الفترة الوسيطة .

لم تخرج معلومات العرب المدونة حتى نهاية القرن الثاني الهجري (8م) عن بلاد السودان خارج هذا الإطار .

المعرفة المحصّلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في القرن (3هـ/9م)[2].

تزايد في هذا القرن عدد المصادر الجغرافية التي ذكرت أمورا تتعلق بجنوب الصحراء ، فهي إلى جانب اعتمادها على النقل فإنها أضافت معارف جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ففي هذه الفترة تزايد النشاط التجاري لبلاد المغرب

[1] يوري . ك ، فال ، << المصادر العربية للتاريخ الإفريقي التقييم والآفاق>> ، تجارة القوافل ودورها الحضاري ، ص 192.

[2] عدد المصادر الجغرافية في هذا القرن هو ستة مصادر .

مع بلاد السودان ، خاصة بعد قيام إمارات جديدة في الشمال ،كما وفّر الاستقرار السياسي في المشرق الإسلامي بقيام الخلافة العباسية ومحاولة توحيد الشعوب الإسلامية والاهتمام بالعلم وحركة الترجمة أرضية مساعدة على التأليف ،كما حاولت الكتابات الجغرافية المخلّفة عن هذه الفترة تجسيد الحلم العباسي في العالمية ، فكانت بلاد السودان جزءا من هذا المشروع ، إلى جانب هذا الأمر فقد ظهرت مؤلفات مشرقية دوّنت في أماكن قريبة من بلاد السودان سواء كانت مصر أم بلاد المغرب ، مما ساعد على تحصيل معارف أكبر عن هذه المناطق ، ولأن بلاد المغرب كانت تُعتبر المنفذ الوحيد إلى هذه المناطق[1] البعيدة ، وبالتالي فلا غرو أن تكون أعمال ومؤلفات هذه البلاد أحسن من غيرها؛ في تقديم معارف إضافية عن بلاد ما وراء الصحراء ، لكن تبقى جلّ المصادر الجغرافية حتى هذه الفترة مشرقية الأصل [2] ، وهكذا ففي بداية هذا القرن تظهر لنا كتابات "محمد بن موسى الخوارزمي" فلكي العصر العباسي الذي تعرّض للإحداثيات الجغرافية للعديد من مدن العالم بالدرجات والدقائق ، وأما ما يتعلّق ببلاد السودان التي جعلها في الإقليم الأول ، فقد عيّن لنا إحداثيات ثلاث مناطق من السودان الغربي والأوسط وهذه المدن هي : ، زغاوة وطولها 60,15° وعرضها 11,0° ،وحدّد موقع كوكو بخطي طول 48,0° وخط عرض 10,15° ،وأمّا مملكة غانة فقد حدّدها بخط عرض 10,45° وبخط طول 44,30° [3] ونسب إلى مدينة غانة مجموعة من المظاهر التضاريسية فذكر أن بها جبلا اسمه "معرس" وبه عين تخرج من هذا الجبل تصب في البحر[4] دون أن يتعمّق أكثر من ذلك .

وبعد الخوارزمي يُطالعنا "ابن خرداذبه" في كتابه " المسالك والممالك " ، وفيه نجد أولى المحاولات لتحديد امتداد بلاد السودان ومساحتها ، فذكر ابن خرداذبه أنّ أرض الحبشة والسودان مسيرة سبع سنين ، وأن أرض مصر جزء واحد من ستين جزءا من أرض السودان ، وأرض السودان جزء واحد من ستين جزءا من الأرض كلها ..."[5]

---

[1] الأصطخري ، مسالك الممالك ، ص 40.

[2] راجع الملحق رقم : 06 الذي يمثّل الأماكن التي دوّنت فيها المصادر الجغرافية في الفترة الزّمنية الممتدّة من القرن (2هـ/8م) حتّى منتصف القرن (5هـ/11م .

[3] Cuoq , op.cit , p 44 .

[4] صفحات تحديد هذه المدن وبعض المواقع التضاريسية انظر : الخوارزمي ، صورة الأرض : زغاوة ص 43، كوكو ص 44 ، غانة جبل معرس ص 40، عين غانه ص 111.

[5] ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص 93.

في هذا التحديد لامتداد بلاد منطقة جنوب الصحراء ، يفرّق ابن خرداذبه بين أجزاء المنطقة الشّرقية والغربيّة بمعنى أنه يفرّق بين الحبشة ، وبلاد السودان ، فمصطلح " بلاد السودان " عند ابن خرداذبه ، له دلالة جغرافية مكانية أكثر مما يدلّ على عامل اثني بشري ،كون أنه أقصى الأحباش وهم سود الوجوه من تسمية بلاد السودان ، وقد بالغ ابن خرداذبه في تحديد مساحتها واتساعها ، و لم يكلّف نفسه في تعيين حدود هذا الإقليم الجغرافي من الجهات الأربع ، والحدّ الوحيد الذي اعتمده كبداية للسودان وهو تحديد سياسي له علاقة ببلاد المغرب ، فذكر أنه يبدأ من انتهاء دولة الأدارسة[1] في الجنوب الذي ذكر بأنها بداية للسودان ، لكن هذه التسمية تحمل عنده شحنة إثنية أكثر مما هي تعبّر عن مكان جغرافي ، أمّا فيما يتعلق بالسودانين فلا نجد عنده أية إشارة إلى جنس من أجناس السودان سوى تلك التي تصف هؤلاء بالغُراة على العموم[2] دون أن يكون هناك تحديد أو استثناء لطائفة أو جنس معيّن .

وبعد ابن خرداذبه نجد كتابات المؤرخ والجغرافي "اليعقوبي" صاحب كتابين مهمّين الأول جغرافي بعنوان " البلدان " ، والثاني تاريخي بعنوان " التاريخ " ، وبين الكتابين نجد فروقاً واضحة وتنوعاً في المعلومات التي خص بها مناطق جنوب الصحراء، لكن المعلومات التي أوردها في كتابه التاريخ كانت أغزر وأفر من تلك التي جاءت في كتابه البلدان على الرغم من الفارق الزمني في تأليف الكتابين ، فقد تأخّر تأليف كتاب البلدان عن كتاب التاريخ ، مما كان يفترض أن تحوي معلومات أفضل لكننا لا نجد ذلك ، وربما هذا يرجع إلى أن اليعقوبي تجنّب أن يكرر معلومات كتابه التاريخ في مصنفه الجغرافي البلدان .

لا يغامر اليعقوبي كثيرا في وصف هذه البلاد وما يتعلق بامتدادها أو بمظاهر السطح الطبيعية المميزة لها ، فهو مرة يجعل هذه البلاد قبلة سجلماسة [3] ثم يذكر موضعا منها يقال له " غسط " وذكر أن ملكه يغزو بلاد السودان [4] كأنه في ذلك يستثني هذه المنطقة من تسمية بلاد السودان ، التي يدرج ضمنها كل ما هو مجهول من هذه المناطق .

تعتبر النقطة المميزة التي تفوق فيها اليعقوبي عن غيره هو اهتمامه بالجغرافيا البشرية أو ما يتعلق بالسكان لكن مرة أخرى نصطدم بإشكالية مصطلح من هم السودان في تعبير اليعقوبي ؟ فنجد أنه يستعمل هذا المصطلح للدلالة على

---

[1] ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص 89 .

[2] نفسه ، ص 89 .

[3] يقول اليعقوبي " ومن سجلماسة لمن سلك متوجها إلى القبلة يريد أرض السودان من سائر بطون السودان ..." البلدان، ص151.

[4] نفسه ،ص 151.

كل سكان الصحراء وجنوبها أصحاب البشرة السوداء لكن جل المعلومات المتعلقة بالأجناس السودانية التي أوردها اليعقوبي في كتابه البلدان لا تعدوا تتجاوز مدينة "غسط" الذي قدم لنا وصفا لها، في حين ذكر بأن بقية الأجناس السودانية المذكورة تنتشر على الأطراف الشمالية للصحراء الشرقية في مناطق زويلة وكوار ، وذكر بأن المريّين والزّغاويين كانوا مصدرا مهما للعبيد كما نجد أيضا إشارات عن للجغرافيا الدينية عندما ذكر بأن بكوار قوم من المسلمين [1] وذكر بأن ملك "غسط " لا دين له ولا شريعة [2] .

أما في كتابه التاريخ فقد خصص لهذه المنطقة أحد عناوين كتابه باسم " ممالك الحبشة والسودان " [3] ، وهو يفرّق بين السودان والأحباش ، فالسودان عنده هم الذين اتجهوا إلى الغرب بعد عبورهم نهر النيل وهو لا يتوقف عند ذكره لهذه الأجناس عند النقطة التي توقف فيها وهب بن منبّه الذي اكتفى بذكر الأجناس الشرقية [4] ،بل إنه ذكر الطائفة الثانية الذي اتجهوا إلى الغرب ، وهم مجموعة تكوّن أجناس السودان المختلفة وهم : الز غاوه، والحسن، والقاقو، والمرويون، والهندة، والكوكو، وغانه[5]. ويعتقد اليعقوبي على غرار وهب بن منبه بأن هذه الشعوب تنحدر كلها من سلالة نوح وابنه حام [6].

لقد ركز اليعقوبي في كتابه التاريخ على ذكر الجوانب السياسية لهذه المنطقة ، وعلى الرغم من ذلك فقد ترك لنا لوحة مهمّة تسع لباقي نواحي الحياة الاقتصادية والدينية ، فقد أشار إلى هذه الأجناس التي انتقلت إلى بلاد السودان شكلت خمس ممالك مستقلة ،يندرج تحت إمرة كل ملك مجموعة من الملوك أقل منه درجة ، وهذه الممالك هي :

---

[1] اليعقوبي ، البلدان ،ص 135 .

[2] نفسه ،ص 151.

[3] اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص 164.

[4] هم عند اليعقوبي : ، وهم النوبة، والبجة، والحبشة، والزنج .

[5] نفسه ، ص 165.

[6] يوري . ك ، فال ، << المصادر العربية للتاريخ الإفريقي التقييم والآفاق >> ، تجارة القوافل ودورها الحضاري ، ص196 ، ويجعل اليعقوبي الحبشة والسودان من أبناء "كوش بن حام "في حين نجد في كتابات معاصرة له " الطبري " إشارات إلى أنهم أبناء كنعان بن حام " انظر : الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، بيروت ، دار الكتب العلمية ،1987، ج1، ص 125 .

مملكة الزغاوة : وهم النازلون في موضع يسمى كانم وهي أول إشارة مصدرية لهذه المنطقة ، فأهلها ليسوا بأصحاب مدن ، ويسمّى ملكهم "كاكرة"، ومن الزغاوة صنف يقال لهم: "الحوضن"، ولهم ملك هو من الزغاوه[1].

مملكة ملل : فمن الصعب أن نحدّد ما كان يعني اليعقوبي بهذه العبارة أو الكلمة ؟ فكلمة "ملل" من الواضح أنها كانت اسما بديلا لمملكة "الماندي" التي تقع في منطقة النيجر العليا ، وكانت تعرف في العادة باسم "مالي" التي حلت فيما بعد كقوة سياسية رئيسية في السودان الغربي محل "غانا" [2]، وقد ترك لنا اليعقوبي تسمية ملكها الوحيد من دون أسماء باقي ملوك السودان[3].

مملكة الحبشة: ولهم مدينة يقال لها:" ثبير"، ويسمى ملك هذه المدينة "مرح" ، ويتصل بهم القاقو، إلا إنهم معولون، وملكهم ملك "ثبير".

مملكة الكوكو: وهي أعظم ممالك السودان، وأجلها قدراً، وأعظمها أمراً، و كل الممالك تعطي لملكها الطاعة، والكوكو اسم المدينة، ودون هذا عدة ممالك يعطونه الطاعة، ويقرون له بالرئاسة على أنهم ملوك بلدانهم، فمنهم مملكة "المرو"، وهي مملكة واسعة، وللملك مدينة يقال لها: "الحيا"، ومملكة "مردية"، ومملكة "الهربر"، ومملكة "صنهاجة"، ومملكة" تذكرير"، ومملكة "الزيانير"، ومملكة "أرور"، ومملكة "بقاروت"، فهذه كلها تنسب إلى مملكة الكوكو.

مملكة غانة: وملكها أيضا عظيم الشأن، وفي بلاده معادن الذهب، وتحت يده عدة ملوك، فمنهم مملكة: "عام"، ومملكة "سامة"، وفي هذه البلاد كلها الذهب[4].

تعد هذه الإشارات التي أوردها اليعقوبي أغنى إشارات عن بلاد السودان تفوق جل الإشارات التي وردت في بقية مصادر القرنين الثاني والثالث هجري الموافق للقرنين الثامن والتاسع ميلادي.

---

[1] اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص 166 .

[2] فيج .جي .دي ، تاريخ غرب إفريقيا ، ص 19.

[3] اليعقوبي، المصدر السابق ، ص 166.

[4] نفسه ، ص ص 166- 167.

وبعد اليعقوبي –الذي ركز كثيرا على النواحي السياسية – نجد كتابات ابن الفقيه الذي لا يعير هذا الجانب أي اهتمام ، فهو يعيدنا إلى المعلومات السابقة عن امتداد بلاد السودان ، فإذا كان ابن خرداذبه جعل مساحة كل من الحبشة والسودان سبع سنين ، فإن ابن الفقيه جعل مساحة بلاد السودان وحدها مسيرة سبع سنين [1]، وذكر في موضع آخر من الكتاب أنها تمثّل نصف مساحة الأرض بامتداد يقارب اثنا عشر ألف فرسخ [2].

لقد حاول ابن الفقيه أن ينقل لنا التصوّر السائد للعالم المعروف في عصره، فقد مثّلته الحكماء على شكل طائر ووزّعت على أطراف هذا الطائر الأماكن المعروفة من العالم آنذاك فمثّلت الصين رأس هذا الطائر ، والجناحان الأيسر والأيمن هما على التوالي الخزر والهند ، وصدر الطائر مكة والحجاز والشام والعراق ومصر ، والذنب من ذات الطير المغرب ، ولما بقيت بلاد السودان مجهولة حتى هذه الفترة فإنها لم تأخذ لها مكانا في جسم هذا الطائر الذي نقله ابن الفقيه من كلام عبد الله بن عمرو بن العاص ، [3] ، وفي التمثيل الثاني لشكل العالم الذي بقي دائما على شكل طائر لكنه في هذه المرة يتّجه برأسه إلى ناحية الشمال ، كانت بلاد السودان التي تقع جنوب الأرض تمثل ذنب هذا الطائر [4] ، ويعكس هذا التمثيل النظرة الدونية للعرب إلى هذا المكان وإلى الأجناس التي تستوطنه ،خاصة وأن كتاب ابن الفقيه يحمل الكثير من الإشارات التي تعبّر عن هذه الحقيقة ، وقد تفطن ابن الفقيه إلى أن في هذا التمثيل إجحاف واستنقاص من قيمة السودانين، وحاول أن يجعل منه فخرا لهم ، فذكر بأن ذنب الطائر هو أكبر شيء في جسم الطائر ،ما يعني أن عدد السودان أكبر من عدد البيضان ، فكفى بهذا وحده فخرا [5].

---

[1] ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص 59.

[2] نفسه، ص 04.

[3] .نفسه ،ص ص 03- 04.

[4] في هذا التمثيل كان رأس الطير الشام والروم والجناحين المشرق والمغرب والذنب السودان، نفسه ،ص119.

[5] ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص 119. وظهرت نظرة الازدراء إلى السودان في الإسلام؛ بسبب الأعاجم المسلمين الذين كانوا يزدرون العبيد ، وينظرون إليهم على أنهم دونهم في المنزلة، فانتقلت هذه النظرة منهم إلى العرب. ويظهر من رسالة الجاحظ: "فخر السودان على البيضان"، أن نزاعًا كان قد دبَّ بين السودان والعرب في الإسلام؛ بسبب نظرة الازدراء التي أخذ الفاتحون ينظرون بها إليهم, فصاروا يترفعون عنهم ولا يخالطونهم، وهذا مما أغاظهم، وحملهم على نبش الماضي، والإتيان بالأخبار وبالأشعار عن دور الحبش في جزيرة العرب قبل الإسلام، وكيف أنهم كانوا قد ملكوا "بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة"، وهزموا ذا نواس،وقتلوا أفيال حمير، فملكوا العرب و لم يملكهم العرب, إلى غير ذلك من دعاوٍ تجدها في قصيدة الشاعر الزنجي "الحيقطان", التي يفتخر فيها بالحبش على

ومن بين الأمور التي وردت في كتاب ابن الفقيه توضح هذه النظرة العربية للسودانيين ، ما ذكره من أوصاف السودانين من تفلفل في الشعر ، واختلاف في الأعضاء ،ونقصان العقل ،وفساد الشهوة ، وكل ذلك مردّه إلى بقائهم مدة طويلة في أرحام أمهاتهم [1] ، و لم يسلموا هم فقط من هذه الأوصاف، فقد نُسب حمقهم حتى لبعض الأجناس التي تحاذي بلدانهم كأهل الحجاز مثلا [2] .

أما فيما يخصّ وصف دواخل بلاد السودان ، فقد انفرد ابن الفقيه دون غيره إلى إشارته إلى وجود نيل في بلاد أنبية ، وكلامه هذا نقل لكلام "المشتري بن الأسود " الذي صرح بأنه رأى النيل في إحدى غزواته العشرين لهذه المنطقة [3]،ويرجح أن يكون هذا "نهر السينغال" ، فيكون بذلك ابن الفقيه أول من أشار إلى هذا النهر ، كما حاول ابن الفقيه أن يحدّد لنا مواقع إحدى مدن بلاد السودان عندما ذكر بأن المسافة الفاصلة بين مدينة "طرقلة " [4] آخر مدن السوس الأقصى ، ومدينة غانة بثلاثة أشهر في مفاوز وقفار [5] ، وذكر بأن الذهب ينبت في بلاد غانة نباتا في الرمل كما ينبت الجزر ،ويقطف عند بزوغ الشمس [6] ، وهو في ذلك يحاول أن يقدّم تفسيرا لوفرة الذهب في بلاد غانة التي يُفرق بينها وبين مدينة غانة .

العرب ,أنظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط4، دار الساقي ، 2001، ج 7 ، ص 312 وقد ألف العرب كتبا في هذا الموضوع منها : "كتاب السودان والبيضان" للجاحظ أنظر : ابن النديم، الفهرست ، ص 211 و"كتاب السودان وفضلهم على البيضان" لابن المرزبان أبو عبد الله محمد بن خلف بن المرزبان.انظر: ابن النديم ، الفهرست ، ص 167 " .

[1] ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ،ص 162.

[2] قال الحجّاج بن يوسف لزادان فروخ : "أخبرني عن العرب والأمصار فقال له : سل عما بدا لك ...قال فأهل الحجاز قال نزلوا بحضرة السودان فأخذوا من حمقة عقولهم " ابن الفقيه ص 114، وعكس هذا التوجّه نجد في كتاب الطبري إشارات ترفع من شأن خصال هؤلاء عندما أشار إلى حديث مرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله أن السخاء عشرة أجزاء فتسعة في السودان وجزء في سائر الناس " الطبري ،ج2 ،ص 487 .

[3] ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ص 64.

[4] يجعل يوسف كيوك هذه المدينة عاصمة للسوس الأقصى ويعتقد أنها تارودانت أنظر :

- Cuoq , op.cit , p 54 .

[5] ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ص 87.

[6] نفسه ، ص 87 .

تمثّل هذه المعلومات جلّ معارف ابن الفقيه عن هذه البلاد والأجناس التي تستوطنه، والنتيج ة النهائية التي نخرج بها ، هي غياب ذكر الأجناس السودانية عند ابن الفقيه واكتفاءه بتقديم أوصاف عامة للزنجي الأسود ،كما أن الإشارة إلى بلاد السودان عنده كمكان جغرافي ، اقتصر فقط على بعض المناطق الغربية من شمال الصحراء الكبرى، أما بلاد السودان الحقيقية فلم يذكر منها سوى بلاد غانة ومدينتها .

وبعد كتابات ابن الفقيه نجد إشارات لكل من "ابن رسته" في كتابه "الأعلاق النفيسة" الذي كتبه بعد عشر سنوات من ابن الفقيه [1] وجملة ما تضمّنه هذا الكتاب عن بلاد السودان مجرّد إشارات بسيطة مكرّرة لا تُضيف جديدا للمعرفة سوى محاولة تفسير بعض الأمور المتعلّقة بسبب انتشار اللون الأسود في هذه المناطق من القارة الذي أرجعه "ابن رسته " إلى عوامل المناخ والحرارة الشديدة والجفاف [2] ،أما "البتاني" في كتابه "الزيج" فقد اكتفى بتحديد موقع غانة فكليا بخط عرض 17,0° وبخط طول 10,0°[3] مخالفا في ذلك ما ذكره فلكي آخر مثله هو الخوارزمي الذي حدّد موقع غانة بخط عرض 10,45° وبخط طول 44,30°[4].

وقبل نهاية هذا القرن يبرز لنا كاتب آخر هو الهمذاني في كتابه " صفة جزيرة العرب " فبعد أن قسّم الأرض المعمورة إلى أربع أقسام ذكر بلاد السودان في الربع الرابع الجنوبي مع كل من الزنج والحبش والبجة والنوبة وفزّان وأرض القيروان والسوس ذكر أيضا إحدى خصائص المجتمع السوداني فوصفهم بالعراة معمّما الحكم على كل السودانين ، إلى جانب أنه ترك لنا وصفا لسكان هذه المناطق لكن أوصافه تفتقر إلى التخصيص إذا ذكر جميع الأجناس السودانية ابتداء من الأحباش في الجهة الشرقية وصولا إلى وصف بربر صنهاجة ، وأما إشاراته إلى غانة في بلاد السودان فإنها لا تتجاوز حد ذكره لها كمصطلح لا أكثر [5] .

---

[1] عبده زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، ص 27.

[2] يقول ابن رسته " ولأن الشمس في هبوطها وصعودها إذا كانت في تلك البروج وتوسط السماء تكون على سمت رؤوسهم فتسخن أهويتهم وتحرقهم وتكثر الحرارة واليبس فيهم ، فلهذه العلة صارت ألوانهم سودا ،وشعورهم قططة ، وأبدانهم يابسة نحيفة، وطباعهم حارة ،وكذلك دوابهم وأشجارهم ،ومن أخلاق هذه الناحية الجفاء والذكاء " ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ، دي خوييه ، ليدن ، مطبعة بريل ، 1892، ص 102.

[3] Cuoq, op.cit , p. 57.

[4] Ibid, p . 44 .

[5] الهمذاني ، صفة جزيرة العرب ،ص ص 76- 77.

المعرفة المحصلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في القرن (4 هـ/10 م) [1].

يمثّل هذا القرن القمة التي وصلت إليها الحضارة الإسلامية [2]، ومعها وصل العلم الجغرافي إلى ذروته [3]، وأخذ مناهجه النهائية , واكتسب هذا العلم مصداقية خصوصا بعد المناهج المعتمدة التي جعلت من التجربة والمشاهدة الشخصية إحدى الشروط الأساسية لعملية التدوين الجغرافي [4] ، فهل لهذه القمة التي وصل إليها العلم الجغرافي انعكاس على إعطاء صورة جديدة عن مناطق جنوب الصحراء أو ما يسمى ببلاد السودان؟

تصادفنا في هذا القرن مجموعة متنوّعة من المصادر الجغرافية أخذت معارفها عن هذه المناطق من التجارب السابقة مع إضافات جديدة اختلفت من كاتب إلى آخر ، وحاول كل واحد من هؤلاء المؤلفين التركيز على جهة معرفية أكثر من باقي الجهات ، فنجد في بداية هذا القرن ما كتبه الفلكي "سهراب" وهي إشارات بسيطة تمثل استمرارية للجغرافيا الفلكية التي تُعنى بضبط وتحديد المواقع الفلكية وسهراب حدّد بعض المواضع من مناطق جنوب الصحراء ، لكن يصعب التحقّق من التسميات التي أوردها ، فباستثناء تحديده لغانة بخط طول 12,5° ، وبدائرة عرض 32° [5]، وهو تحديد يخالف بقية التحديدين المذكورين سلفا لكل من الخوارزمي والبتاني، ممّا يجعلنا نطرح إشكالية سبب هذه الفروقات بين الجغرافيين في التحديد فهل هو راجع إلى تطور أنظمة التحديد واستعمال طرائق مبتكرة بمرور الزمن ؟ أم أن الأمر يتعلّق بتحسن المعرفة العربية عن هذه المناطق ما جعل التحديد يتغير باتجاه الأفضل ؟ أم أن الأمر

---

[1] عدد المصادر الجغرافية المدوّنة في هذا القرن سبعة مصادر .

[2] ظهرت مجموعة دراسات تستهدف دراسة العالم الإسلامي في هذا القرن منها على سبيل المثال :

- "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري" لآدم ميتز ، "الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى" لموريس لومبارد ، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين "لجودت عبد الكريم ، "الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري" لمحمود إسماعيل .

[3] محمد السيد غلاب ، << الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي >> ، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول ، ص 137.

[4] في هذا العصر تظهر الجغرافيا بوصفها أحد العلوم الفلسفية على يد مجموعة من العلماء والمفكرين أطلقوا على أنفسهم تسمية " إخوان الصفا وخلان الوفا " وقد وضع هؤلاء موسوعة فلسفية تتكون من مجموعة رسائل وخصصت منها الرسالة الخامسة للجغرافيا انظر: " رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، مج 1 ، ص ص 126- 144 .

[5] Cuoq , op.cit p. 59 .

يتعلّق بهذه المملكة " مملكة غانه" التي كانت تتوسع أحيانا وتنكمش أحيانا أخرى [1]،وهو الأمر الذي عمل الجغرافيون الفلكيون على توضيحه وكان النقطة المتسبّبة في هذه الفروقات في تحديد موقع هذا المكان .

وبعد سهراب الفلكي تبرز لنا في منتصف هذا القرن كتابات الجغرافي الموسوعي " المسعودي " الذي يُعتبر أول المصنفين الذين أفردوا لبلاد السودان فصلا مستقلا بعنوان " **فصل في ذكر السودان وأنسابهم واختلاف أجناسهم وأنواعهم وتباينهم في ديانتهم وأخبار ملوكهم** " وكان جل تركيز المسعودي في هذا الفصل محاولة إبراز المناطق الشرقية لهذه البلاد التي توفرت للعرب عنها معلومات كثيرة ،وعلى الرغم من هذا ، فإننا نجد عنده إشارات قيّمة عن بقية المناطق من بلاد السودان ، لكن قبل ذلك فإني أريد توضيح أمر معين وهو أن المسعودي أطلق مصطلح " السودان " على كل من كانت له بشرة سوداء [2] أما مصطلح " بلاد السودان" فقد أطلقه على كامل المنطقة الممتدة من جنوب مصر والمغرب والمحصورة بين بحر القلزم والبحر المحيط – هذا في حالة التعميم– أما إذا أراد المسعودي تخصيص منطقة معيّنة ضمن هذا الإطار المحدّد فإنه يسمّيه بتسميته الخاصة به فيقول مثلا : بلاد الزنج [3]والحبشة ...وكذا الأمر نفسه فيما يخصّ الأجناس السودانية ، فالسودانيون عنده مصطلح عام يدلّ على جميع من له بشرة سوداء ، ويوافق هذا المصطلح " الأحباش " الذي استعمله مرّة ليدلّل به على أجناس السودان الغربي والأوسط [4] وفي حالة التّخصيص يسمي كل جنس بتسميته .

لا يفيدنا المسعودي كثيرا بخصوص الجانب الطبيعي لبلاد السودان ، فمعلوماته مكرّرة من أقوال سابقيه كمسيرة بلاد الحبشة والسودان التي تبلغ عنده سبع سنين [5]... وذكـــرها في كتـــابه أخبـــار الزمان بأنها اثنا عشر

---

[1] بخصوص هذه الإشكالية راجع : أحمد الشكري ، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة ؟) ، الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة ، 1997.

[2] انظر المسعودي ، مروج الذهب، في الصفحات ج 2،ص 167 وكذا ج 2،ص 04. ويقول ".وقد أتينا على ذكر جميع أجناس السودان" ج2، ص 20.

[3] المسعودي ، مروج الذهب ،ج1 ، ص 98.

[4] نفسه ج1 ،ص 164.

[5] نفسه ،ج1 ،ص 164.

سنة[1] وهي تقريبا الإشارة الوحيدة التي تخص الجانب الطبيعي ، والنقطة التي تفوّق فيها المسعودي فهي تلك المعلومات التي لها علاقة بالجانب البشري لهذا الإقليم الجغرافي ، فقد جعل سبب تعمير هذه البلاد ناتجة عن تفرّق ولد نوح في الأرض ومسير ولد "كوش بن كنعان " [2] نحو المغرب ، فبعد أن قطع نيل مصر اتجهت طائفة من ولده للمغرب وكوّنوا السودان وهم أنواع كثيرة من : الزغاوة والكانم ومركة وكوكو وغانة والدمادم [3]، ويضيف من الأجناس الأخرى القراقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطي ودويلة والقرمة ،وكل طائفة من هؤلاء على حد تعبيره له ملك ودار مملكته[4] .

فسّر المسعودي علّة وجود السودان في هذه المناطق دون غيرها بالحرارة الشديدة في هذا المكان [5] دون غيره من أماكن المعمورة ، وجعل الحرارة هي المحدّد لأوصاف نقلها عن طبيب يوناني يدعى "جالينوس" في خصائص وخصال يتميز بها الجنس الأسود عن غيره، فقد ذكر أن فيه " تفلفل الشعر ،وخفة الحاجبين ،وتحديد الأسنان ،ونتن الجلد ،وسواد الحدق ،وتشقق اليدين والرجلين ،وفطس الأنوف ،وكثرة الطرب [6] ،وفي جهة أخرى من الكتاب استمرارية في في تعميم العري [7]على سكان هذه البلاد دون الاستثناء .

يبدوا اهتمام المسعودي بالجغرافيا البشرية واضحا في بقية كتبه الأخرى التي وصلتنا في مقتطفات ، فنجده فيما تبقى من كتابه "أخبار الزمان " يضيف عن المعلومات السابقة بعض الأمور المتعلقة بالتنظيمات السياسية للسودانيين فوافق ما جاء في كتاب التاريخ لليعقوبي من أن "مملكة كوكو" هي أعظم ممالك السودان وأجلها قدرا وتخضع لها

---

[1] المسعودي ، أخبار الزمان، ص 92. وردت في المصادر السابقة بأنها مسيرة اثنا عشر ألف فرسخ عند ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص 04. وبقي اعتمادها متداولا في كتابات القرن الرابع هجري انظر: ابن طاهر المقدسي ، البدء والتاريخ ، مكتبة الثقافة الدينية ، د.ت .ج2، ص 43 .

[2] كتابات القرن الرابع هجري توافق مت ذهب إليه المسعودي في جعل السودان أبناء "كنعان"،أنظر: ابن طاهر المقدسي،ج3 ،ص 27.

[3] المسعودي ، مروج الذهب ، ج2 ، ص 04.

[4] نفسه ،ج 2 ،ص 20.

[5] نفسه ،ج2 ، ص 221.

[6] نفسه ، ج1، ص ص 82 - 83.

[7] نفسه ،ج1،ص 164 " وتتصل أقاصي السودان العراة بآخر بلاد ولد إدريس ...". وهذا الأمر نجد له تأكيدا عند معاصريه إذ يورد ابن طاهر المقدسي قوله " ... ربع من لا يلبس الثياب من السودان أكثر من جميع الناس ..." البدء والتاريخ ،ج4 ، ص 97.

مجموعة من الممالك يؤدّون حقّ الطاعة لملكها والمسعودي واليعقوبي لم يذكرا لنا تسمية هذا الملك ، ولا يتفقان حتى في تسمية المملكة نفسها فهي عند المسعودي كركر [1] ، وعند اليعقوبي فهي كوكو [2] ،كما أشار أيضا إلى وجود مملكتين أخريين هما كل من "مملكة غانة" المشهورة عند الجغرافيين السابقين و"مملكة ال دهدم" التي يقطنها ملك كبير تحت يده عدة ملوك ،كما ذكر أن مملكة الزغاوة واسعة كبيرة[3] .

يزداد حجم المعلومات المذكورة عن الممالك السودانية تفصيلا عند ذكر علاقاتها التجارية مع الأجناس الأخرى في بلاد المغرب ، فقد ذكر المسعودي بأن غانة تتصل ببلاد الذهب [4] والمسعودي يتجاوز في هذه الإشارة النظرية السابقة السابقة التي تقول بأن غانة نفسها هي بلاد الذهب ، ففي تعبيره بأن غانة تتصل ببلاد الذهب إشارة إلى أن ذهب غانة إنما مصدره الممالك التي تخضع لها ، وقد وجد التّجار المغاربة فرصة للانتفاع بهذه التجارة التي وصفها المسعودي بالتجارة الصامتة[5] ،كما وردت مع المسعودي أولى الإشارات التي تخص العلاقات بين المجتمعات السودانية ،فأشار إلى قبيلة "الدهدم" –القريبة من كوكو –يحارب أهلها بعضهم بعضا وهم يأكلون الناس [6] كما قدّم بعض المعلومات المتعلّقة بعقيدة بعض الأجناس السودانية دون أن يحدّد من هم من أمم السودان السالفة الذكر في أن لهم في بلدة قلعة عظيمة فيها صورة امرأة يتأهبون لها ويحجّون إليها[7].

وبعد المسعودي يبرز لنا ما كتبه "**الأصطخري**" في كتابه " المسالك والممالك " وكتابات هذا الجغرافي تعبّر عن تحسن واضح في معرفة هذه الأقاليم ، لكنها تبقى معرفة عامة تخص المنطقة ككل دون أن يكون هنالك تعامل أو معارف عن دواخل هذه البلاد ، فقد بدأ مفهوم بلاد السودان يتّضح مع الأصطخري فهو يفرّق بين مصطلحين لكل منهما دلالته المستقلة فتعبير "**بلاد السودان**" يشتمل على كل المنطقة التي تقع جنوب مصر وبلاد المغرب والتي تمتد من بحر القلزم شرقا ،إلى البحر المحيط غربا ، وأما تعبير " **بلد السودان**" فهو كما حدّده الأصطخري هي المنطقة التي جعلها

---

[1] المسعودي ، أخبار الزمان ، ص 88.

[2] اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ،ج1 ، ص 166.

[3] المسعودي ، المصدر السابق ، ص 89 .

[4] نفسه، ص 88.

[5] المسعودي ، مروج الذهب ، ص ص 88 – 89.

[6] نفسه، ص 89.

[7] نفسه، ص 89.

في أقصى بلاد المغرب على البحر المحيط ،وليس بينها وبين بقية الممالك اتصال ، غير أن له حدّا ينتهي إلى البحر المحيط وحدّا له إلى برية بينه وبين أرض المغرب ، وحدّا إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات ، وحدّا له إلى برية في الجنوب لا يثبت فيها عمارة لشدّة حرارتها ، ومساحة هذه المنطقة –كما حددها الأصطخري – سبعمائة فرسخ في نحوها [1] ، وهي بلاد منعزلة ، ليس بينها وبين بقية الممالك اتصال إلا من جهة المغرب وبوّابة الدخول إليها هي زويلة التي تُعتبر حدّا جنوبيا لبلاد المغرب ومتاخمة لأرض السودان [2].

وبعد تحديد الأصطخري لبلد السودان حاول أن يُقدّم لنا بعض خصائص هذه المنطقة ، فأشار إلى أنها بلاد عريضة ورغم ذلك فهي "قفرة قشفة "، وفي جبال لهم عامة ما يكون في بلاد الإسلام من الفواكه ، إلا أنهم لا يطعمونه ،كما أن لهم أطعمة يتغذّون بها من فواكه ونبات ممّا لا يعرف في بلدان الإسلام [3] ، لكن الأصطخري لم يكلف نفسه على الأقل عناء البحث عن نوعية هذه الأطعمة والفواكه ، و لم يقدّم على الأقل أي تسمية لها .

بعد هذا الوصف للجانب الطبيعي لهذه المنطقة حاول الأصطخري أن يُقدّم لنا ما انتهى إليه من معارف بخصوص الأجناس البشرية التي تستوطن هذا المكان ، فأول ما استوقفه هي ألوان سكان هذا الإقليم ، فقارن بينها وبين سكان بلاد المغرب ، وسكان الأقاليم الشّمالية ، فخلص إلى نتيجة مفادها أن هذه الأجناس السودانية تزداد سوادا كلما اتجهنا أكثر إلى الجنوب ، والعكس من ذلك صحيح [4] ، وهو الأمر الذي ردّه الأصطخري إلى عامل الحرارة الناجم عن قرب الشمس من هذا الإقليم حتى تنعدم الحياة في الجنوب [5] ، وبخصوص الأجناس السودانية المستوطنة لهذا الإقليم ، ، فلم يعط لنا الأصطخري أية تسمية لهم ،واكتفى بالقول بأنهم ليسوا بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة ، غير أنهم جنس على حدة ، أشد سوادا من الجميع وأصفى [6] ، واعتبرهم من المصادر المهمّة للعبيد [1] الذين يُخرجون من هذه البلاد إلى بلاد المغرب عبر طرق ومفاوز صحراوية منقطعة ، لا تسلك إلا من مواضع معروفة [2] .

---

[1] المسعودي ، مروج الذهب ، ص ص 10- 11.

[2] الأصطخري ، مسالك الممالك ، ص 40.

[3] نفسه ، ص 40.

[4] نفسه ، ص 05.

[5] نفسه ، ص 08.

[6] نفسه ، ص 40.

وبعد الأصطخري تطالعنا كتابات "**المقدسي**" ومعه تتراجع المعرفة عن بلاد السودان مقارنة مع الجغرافيين الذين سبقوه ، فقد اكتفى بذكر أن هذه البلاد تُتاخم أرض مصر وبلاد المغرب من جهة الجنوب [3] ، وتسمى عنده ببلدان السودان ، والجهة الغربية من هذا المكان تُسمى "بلد السودان" وامتدادها اثنا عشر ألف فرسخ ، وهي بلدان مقفرة واسعة شاقة [4] وفي جبالهم عامة ما يكون في جبال المسلمين من الفواكه غير أن أكثرهم لا يذوقونه، ولهم فواكه أخرى وأغذية وأطعمه وحشائش لا توجد عندنا[5] ، دون أن يقدم لنا اسم أي من هذه الفواكه أو الأطعمة بل أنه حتى لم يخص بهذا الحكم منطقة معينة من هذا الإقليم الواسع –كما عبر عنه – بل إن حكمه هذا كان عاما على جميع بلاد السودان ، أما ما يخص الجانب البشري عند المقدسي فهو غائب عدا أنه ذكر بعض الأمور المتعلقة بالمعاملات التجارية ، فذكر جودة الذهب ووفرته في المنطقة بين "تازررت" و"بلد السودان" و لم يحدّد مكانا بعينه في هذا المكان المسمى ببلد السودان واكتفى بالقول بأن الوصول إليه شاق لوقوعه في مفاوز رملية وحشة [6] ،وذكر بأن السودانيين لا تعامل بينهم إلا بالذهب والفضة ، وأما القرماطيون وهم الجنس السوداني الوحيد المذكور عند المقدسي فتعاملهم بالملح [7].

وبعد كتابات المقدسي يبرز لنا كاتب آخر كان معاصرا له ويمثل استمرارية لهذه المدرسة الجغرافية في التأليف التي وضع أسسها البلخي واتضحت مع الأصطخري والمقدسي وتختتم على يد الجغرافي " **ابن حوقل**" النصيبي، فعلى الرغم من أنه عاصر الكاتبين الأخيرين " الأصطخري والمقدسي" وكان قد اجتمع بالأصطخري ، إلا أنه تفوّق عليهما بخصوص المعلومات التي حصّلها عن مناطق جنوب الصحراء ،فبمقارنة عمل ابن حوقل مع الأصطخري نجد تشابها واضحا في المعلومات الواردة المتعلقة باستعمال الألفاظ والمصطلحات ، والسبب في ذلك يرجع إلى اعتماد ابن حوقل لكتاب الأصطخري في كثير من المواضع ، لكن الجديد الذي حمله إلينا ابن حوقل هو التخصيص بدل التعميم الذي كان عند الأصطخري ، فاقتراب ابن حوقل من بلاد السودان ووصوله إلى أودغشت ، أوفقه على بعض التفاصيل التي

---

[1] الأصطخري ، مسالك الممالك ، ص 46.

[2] نفسه ، ص45.

[3] المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص 62.

[4] نفسه ، ص241.

[5] نفسه ، ص 242.

[6] نفسه ، ص 231.

[7] نفسه ، ص ص 242- 243.

لم يكن بمقدور غيره أن يقف عندها ، فبعد العمومية في الكلام عن بلاد السودان ،أصبح الأمر مختلفا مع ابن حوقل الذي استطاع كسر هذه القاعدة ، ليمهد لتأسيس قاعدة جديدة ستظهر مع كتاب المرحلة الثانية في الكتابات عن بلاد السودان تقضي بالتعامل المجزأ والمخصص المركز الذي يجعل منطلقه في الكتابة البداية بالمخصص وصولا إلى المعمّم [1].

إن وصول ابن حوقل إلى أودغشت [2] حقّق له الأسبقية والريادة في الانفراد بمعلومات جديدة عن هذا المنطقة بدرجة أولى ، وببقية المناطق المجاورة لها بدرجة ثانية ، فبعد أن حدّد حدود بلد السودان نقلا تفصيليا عن الأصطخري وحدّد طول أرضهم بألف فرسخ في نحوها [3]، عاد في نهاية الكتاب لينفي بعض الأقوال التي تقول بأن مسيرة بلد السودان سبعة أعوام ليجعها لا تزيد على خمسين ومائي مرحلة طولا ، وأكثر عروض ممالكهم شهر أو نحوه [4]، وهي حدّ غربي لمملكة الإسلام من جهة المغرب ، وأول بلاد السودان "أودغشت" وصولا إلى "أوليل" [5] ، وذكر بأن جميع أرض السودان تغطيها الرمال [6].

لم يفصّل ابن حوقل كثيرا في الجوانب الطبيعية لهذه البلاد ، وكل تركيزه كان محاولة لإبراز الجوانب البشرية المتعلقة بالتجارة بدرجة أولى ،وبوصف الأنظمة السياسية السودانية وعلاقاتها فيما بينها بدرجة ثانية ، وهو الأمر الذي

---

[1] عن أهمية كتابات ابن حوقل ومعارفه بالصحراء وبلاد السودان انظر :

- Nehemia Levtzion , << Ibn-hawgal , The Cheque , And Awdaghost >> , *The Journal African History* , Vol , 9 , No , 2 (1968) , pp. 223- 233.

[2] يشكّك Nehemia Levtzion في وصول ابن حوقل إلى أودغشت ويعلل ذلك بأن وصفه لهذه المنطقة مختصر جدا على رحالة وصل إلى هذه البلاد وأما بخصوص ما قاله ابن حوقل في شأن رأيته صكا في أودغشت وهذه العبارة تفيد فعلا بأنه وصل إليها فإن Levtzion يقول بأن ابن حوقل ذكر بأنه رأى بأودغشت و لم يقل في أودغشت ، بمعنى أن ابن حوقل رآى هذا الصك بسجلماسة وكان قد كُتب في أودغشت انظر :

- Ibid , p .227.

[3] ابن حوقل ،صورة الأرض ، ص 25.

[4] نفسه ، ص 340.

[5] نفسه ، ص 20.

[6] نفسه ، ص 42.

جعل أحد المختصين في علم الجغرافيا يتّهمه بالولاء والجوسسة للفاطميين [1] ،وسنحاول تفصيل ما أورده ابن حوقل انطلاقا من تقسيم معلوماته إلى :

أ – **معارف تتعلق بالجوانب التجارية** : يعود أحد أسباب اهتمام ابن حوقل بالتجارة ووصفه للجوانب المتعلقة بها، إلى اشتغاله بالتجارة التي اتّخذ منها طريقة لتوفير مستلزمات رحلاته الكثيرة ، فكان وصوله إلى أودغشت فرصة ليصف لنا كيف تتم هذه العمليات التجارية التي أدهشته أرباح تجّارها ، فذكر أنه رأى بأودغشت صكا كُتب وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار [2] ،ما يدّل على قيمة الفوائد العظيمة المحصلة من هذه التجارة ،كما ترك لنا إشارات تفيدنا بمعرفة الطرق الموصلة إلى بلاد السودان ومناطق الولوج إليه، فذكر تعطّل الطريق الشرقي التي كانت تربط بين مصر وغانة ، وانتقل التّجار عنها إلى طريق سجلماسة – أودغشت [3]،كما ذكر أيضا بأن سلطان برقة له لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان [4] ما يفيد إلى وجود طريق أخرى تربط برقة ببلاد السودان ،وذكر بأهمية الملح في التجارة بين بلاد المغرب والسودان ،وأشار إلى التفاوت في سعره بين دواخل بلاد السودان وأقاصيه[5] .

ب – **معارف تتعلق بالجوانب السياسية** : وذلك بالاهتمام بما يتعلّق بذكر الممالك وملوكها، والعلاقات التي ترتبط بها مع بعضها البعض، فقد ذكر لنا ابن حوقل بأن "حكام تادمكة" هم من بني تانماك [6]وفي الجنوب من هذه المدينة نجد مجموعة متنوّعة من الممالك ، لكن ابن حوقل لم يذكر لنا أسماء حكامها أو أصولهم أو انتماءاتهم واكتفى بنسب الملك للمدينة ، فذكر "ملك أودغشت" الذي تربطه روابط قوية بملك غانة الذي يعتبر أغنى ملوك الأرض بما لديه من أموال مدخرة من التبر ،كما ذكر أيضا بأن "ملك كوغة" أيضا كان ملكا قويّا وهو

---

[1] فقد ذكر كراتكوفسكي بأن دوزي Dozy يعتبر أن ابن حوقل كان جاسوسا للفاطميين في حين ليفي برفينسال levi-provencal يرى بإمكانية اعتباره من عملاء العباسيين أو الفاطميين أنظر : كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ،ج 1، ص 204.

[2] ابن حوقل ، صورة الأرض، ص 65- 96.

[3] نفسه ، ص 65 .

[4] نفسه ، ص 70.

[5] نفسه ، ص 98.

[6] نفسه ، ص 101.

يهادي ملك غانة ،وكل هؤلاء هم حاجة ماسة إلى "ملوك أودغشت" [1]بسب الملح الذي يصلهم من خلال هذه المدينة ،كما تطرّق ابن حوقل أيضا في وصفه للنظام السياسي إلى نظام توارث الملك عند السودانيين عامة فذكر بأن من سُنّة السودان إذا هلك الملك فإن ابن أخته هو من يخلفه في الملك من دون بقية أهله و أولاده [2].

وبعد ابن حوقل يطالعنا " **المهلبي**" بمعلومات فريدة في كتابه "العزيزي" الذي جمعه تيسير خلف ،وقد قام هذا الكاتب بترتيب مادة كتاب المهلبي على طريقة كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء [3] المتأخّر عنه زمانيا ،بحيث نجد هذا الكاتب يدرج مدينة أودغشت ضمن بلاد المغرب، ولا نعلم حقيقة ما إذا كان هذا هو تقسيم المهلبي نفسه أم لا ؟ ولكن الشيء الذي نتّفق عليه هو أن المهلبي أدرج أودغشت ضمن حدود دولة الإسلام ،وهو الأمر الذي يصرح به المهلبي فقد تراجعت معه حدود بلاد السودان نحو الجنوب وامتدت بلاد المسلمين لتضم من جهاتها الجنوبية مناطق أودغشت .

تطور معرفة المهلبي ببلاد السودان ينعكس بشكل واضح في طريقة تعامله مع هذه المنطقة ،كمعطى طبيعي من جهة وكمعطى بشري من جهة أخرى ، ويُعتبر الأول من بين الجغرافيين السابقين الذي تناول وصف كل مدينة على حدة ،وشمل وصفه إلى جانب المدينة وجغرافيتها أوصافا لسكانها وما يتعلّق بجوانبهم الحياتية المختلفة كأنه رحّالة يُدّون لنا ما كان يراه في هذه المناطق فقد ترك لنا وصفا لثلاث مدن سودانية هي أودغشت ، زغاوة ، وكوكو .

أودغشت : تطوّرت معرفة المهلبي بهذا المدينة إلى درجة أنه حاول أن يقدم لنا تحديدا لأبعاد هذه المدينة ، فذكر بأنه يحدّها من الشرق بلاد السودان ،وفي الغرب منها البحر المحيط ،وجنوبها بلاد السودان ،فنجد من هذا التحديد أن المهلبي لجأ للتعميم تفاديا للغلط فبلاد السودان تبقى تعبّر عن المناطق الغير معروفة من مناطق جنوب الصحراء ،في حين يُسمي ما يعرفه من أماكن بمسمياتها الخاصة بها ، وذكر بأن أودغشت يفصلها عن سجلماسة نيف وأربعون مرحلة في رمال ومفاوز ، ثم بدأ بوصف هذه المدينة فذكر بأنها مدينة حارة جدا بين جبلين في قلب البر

[1] ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 98.

[2] نفسه ، ص 61.

[3] المهلبي ، المسالك والممالك ، ص 18.

أمطارها في الصيف ،وبهذه المدينة من النباتات الحنطة والدخن والذرة ة اللوبيا والكرسنة ، وببلادهم شجر الحجار من الصنط والمقل ،والنخل ببلادهم كثير وليس لهم من الفواكه غير التين [1].

وأما وصفه للنواحي المتعلّقة بالبشر فقد ذكر بأن أهلها مسلمون يقرؤون القرآن ويتفقّهون ولهم مساجد وجماعات أسلموا على يد "المهدي عبيد الله " وكانوا كفارا يعظمون الشمس ويأكلون الميتة والدم [2] ،كما أشار إلى أهمية هذه المدينة التي لا ينقطع إليها من كل البلاد ، ما جعل أسواقها جليلة واسعة والمتولي عليهم قبيلة صنهاجة[3].

زغاوة : تزداد المعرفة العربية وضوحا عن شعب الزغاوة مع المهلبي الذي ذكر بأنها مدينتان ،وذكر التسمية المحلية لكل مدينة وهما "مانان" و"ترازكي" ما يدّل على إطلاعه على بعض الحقائق التي تخص المنطقة خاصة ما تعلق بالجانب البشري لهذه المدينة ، فهم أمم كثيرة وطول بلادهم خمس عشر مرحلة في مثلها ، ببيوتهم من جصوص وكذلك قصر ملكهم الذي يعبدونه من دون الله تعالى ، ويعتقدون أنهم هم الذين يُحيون ويُميتون ويُمرضون ويُصحون.

لقد امتدت معرفة المهلبي بهذه الشعوب حتى عرف أحد أسرار الدولة المتعلق بملكهم الذي يدّعي أنه لا يأكل ولا يشرب ، غير أن المهلبي ذكر بأن لطعامه جماعة يدخلونه عليه سرا ،لا يُعلم من أين يجيئون به فإن اتّفق لأحد من الرّعية أن يلق الإبل التي عليها زاده قتل من مباشرة في موضعه ، وشراب الملك يعمل من الذرة مقوى بالعسل .

ووصف المهلبي كذلك زي ولباس الملك وبقية الرعية ،فبعد أن كنا نجد في المصادر السابقة تصريحا بأن هؤلاء السودان عراة لا يأتزرون ، فإننا نجد مع المهلبي بعض التخصيص من هذا العام ، وهو يقصر العري على أكثر الرعية الذين يأتزرون بالجلود في حين أن لباس الملك سراويل من صوف رقيق الارتشاح عليها الثياب الرفيعة من الصوف الأسماط والخز السوسي والديباج الرفيع ، وحيوانات هذه المملكة المواشي من البقر والغنم والجمال والخيل ، أما الزروع فأكثرها الذرة واللّوبيا ثم القمح كما تحدّث عن ديانة الزغاوة الذين يعبدون ملوكهم [4].

---

[1] المهلبي ، المسالك والممالك ، ص 20 .

[2] نفسه ، ص46.

[3] نفسه ، ص 45.

[4] نفسه ، ص 54 .

كوكو : يتشابه وصف هذه المدينة إلى حدّ كبير بوصف مدينة الزغاوة ، فبالإضافة إلى كوكو العاصمة التي يسكنها الملك الذي يظاهر رعيته بالإسلام هو ورجاله وثقاته، فهناك مدينة أخرى على الضفة الشرقية لنهر النيل وتتبع لكوكو تسمى "سرناه" بها أسواق ومتاجر، وجميع سكان كوكو مسلمون ، وزي ملكهم ورؤساء أصحابه القمصان والعمائم ،غير أنهم يركبون الخيل أعراء ،إلى جانب هذا فإننا نجد أول إشارة تخص العمارة الإسلامية بهذه البلاد وهي تصريح المهلبي بوجود مسجد في كوكو ومصلّى للجماعة بين المدينين المذكورتين وجميع سكان البلاد مسلمون وهذه البلاد أعمر من مملكة الزغاوة ،غير أن الزغاوة أوسع مساحة ، أما أموال ملك كوكو فأكثرها الملح [1] .

وفي نهاية هذه المرحلة نجد محاولات " **البيروني**" في إعادة بعث المنهج الفلكي في الكتاب ة ،فنجده يحدّد مواقع بعض المدن من بلاد السودان التي جعلها مصدرا مهمّا للعبيد ،ويسمي مناطق غرب القارة بسودان المغرب ، وحدّد عليها موقع كوكو بخط طول 30° وبخط عرض 5° ،كانم بخط طول 35° وبخط عرض 3° ، أما فيما يخصّ غانة فإن البيروني تراجع عما كان في الكتابات السابقة من أن غانة بلاد الذهب إلى القول بأن الذهب في غانة يتواجد في مناجم خاصة لاستخراج الذهب ، وحدّد موقعها بخط طول 25° وبخط عرض 13° ، وكذلك حدّد إحداثيات مدينة أودغشت فذكر أنها تقع في صحراء المغرب بخط طول 15° أما خط عرضها فهو 26° [2]، ومع البيروني ننهي المجموعة الأولى من الكتاب الجغرافيين الذين ذكروا أمورا تتعلّق ببلاد السودان ، فقد أخذت هذه المناطق تتّضح أكثر فأكثر بداية من الإشارة الأولى للفزاري ، وانتهاء مع المهلبي والبيروني ليؤسس هؤلاء لقاعدة معرفية جديدة تفتح آفاقا جديدة للكتابة الجغرافية عن هذه البلاد الحديثة الاتصال بالمسلمين .

وتجدر الإشارة في نهاية هذا الفصل إلى أن الكتابة الجغرافية في هذه الفترة كانت قد استحوذت على الجزء الأكبر للمعرفة عن بلاد السودان مقارنة مع باقي أنواع المصادر، لكنها لم تكن بالطبع تُعبّر عن جميع أنواع المعرفة ، إذ يبدو لنا هذا الأمر واضحا إذا ما قارنا ما ورد في هذه المصادر الجغرافية مع بقية المصادر التاريخية أو الفقهية والتراجمية ، وهذه المعرفة المحصلة لنا إلى غاية هذه الفترة كانت ستكون أفضل بكثير لو استغل أصحاب هذه المصنفات مصادر الأخبار التي توفرت لهم عن هذه البلاد ، إذ أن البحث بين لنا بأن هؤلاء الجغرافيون لم يبذلوا جهدا كبيرا من أجل إدراج هذه المناطق في مصنفاتهم .

---

[1] المهلبي ، المسالك والممالك ، ص 55.

[2] Cuoq , op.cit p 80 .

الفصل الثاني :

تطور المعرفة العربية عن بلاد السودان من منتصف ق (5هـ/11م) حتى ق (8هـ/14م).

المبحث الأول : العوامل المساعدة على تطور المعرفة عن بلاد السودان .

المبحث الثاني : مساهمة أصناف المصادر الجغرافية في الفترة الزمنية من (5هـ/ 11م، 8هـ/14م) في التعريف ببلاد السودان .

المبحث الثالث : مصادر أخبار جغرافيي المرحلة الثانية عن بلاد السودان .

المبحث الرابع : التجديد ونقاط ارتكاز المعرفة العربية عن بلاد السودان في المصادر الجغرافية العربية من منتصف القرن (5هـ/11م) حتى ق (8هـ/14م).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : العوامل المساعدة على تطور المعرفة عن بلاد السودان .

بعد أن كنّا قد تحدّثنا في الفصل الأول عن المعرفة العربية عن بلاد السودان حتى منتصف القرن الخامس هجري الموافق لمنتصف القرن الحادي عشر ميلادي وعن طريقة صناعتها ، سنواصل الحديث في هذا الفصل عن تطوّر المعرفة في المرحلة الثانية المخصّصة للدراسة ، والتي تمتدّ من منتصف القرن الخامس هجري إلى نهاية القرن الثامن هجري ، ما يوافق الفترة الممتدة من منتصف القرن الحادي عشر ميلادي حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي .

لم يكن اختيارنا لهذه الفترة الزمنية الممثّلة في منتصف القرن الخامس هجري كحد فاصل بين فصلي الدراسة اعتباطيا ، بل إن ذلك راجع إلى مجموعة متنوّعة من العوامل السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية ، والتي بدأت تفرض نفسها تدريجيا بعد هذه الفترة في كل من بلاد المغرب والصحراء ، فجميع هذه العوامل لها علاقة أساسية بقيام الحلف الصنهاجي الثالث ، والذي تشكل بفضله ما يُعرف بالدولة المرابطية ، والتي تُعتبر كأحد أبرز العوامل التي ساهمت في تطور المعرفة العربية عن بلاد السودان وأهمّها على الإطلاق ، وترجع هذه الأهمية إلى خاصية هذه الدولة التي قامت على يد قبائل صنهاجة الصحراء ، تلك القبائل التي كان لها احتكاك مباشر مع القبائل السودانية من جهة الجنوب ، وببلاد المغرب من جهة الشمال ما جعلها تعلب دور الوساطة والتقريب بين المنطقتين [1] .

احتكاك هذه القبائل الصنهاجية مع القبائل السودانية سيتزايد بشكل ملفت للانتباه نتيجة الضغط الممارس عليها من جهة الشمال ، فقد ذكر ابن خلدون إلى أن عددا من القبائل البربرية أُبعدت إلى هذه المجالات منذ دهور [2] ،واتخذت من الصحراء موطنا لها ، وخلال القرن الخامس هجري الموافق للقرن الحادي عشر ميلادي كان هذا الضغط على الصحراء في أوجه ، وكان مما زاد منه ،أعداد التجار التي كانت تصل إلى هذه البلاد من مختلف البلاد الإسلامية ،

[1] عن هذا الدور الذي لعبته هذه القبائل الصحراوية في التقريب بين والجنوب انظر : النابي ولد الحسين ، صحراء الملثمين ، دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط . من منتصف القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 5هـ/11م ، بيروت ، دار المدار الإسلامي ، 2007 .

[2] ابن خلدون ، التاريخ ،ج6 ،ص 241 .

فكانت أعداد السكان في هذه المناطق كبيرا جدا ، وليس أدلّ على هذا ما ذكره ابن حوقل [1] من أن قبيل الملك لوحدها ثلاثمائة ألف بيت ، وذكر البكري وابن أبي زرع وكذا الحميري أن الملك كان يعتد في مائة ألف نجيب [2].

وبحكم الجوار بين هذه القبائل الصنهاجية والسوداني ة والقرب بينهما [3] ،فإن هذا الضغط الممارس على هذه القبائل الصنهاجية سيزيد بدوره من الضغط الممارس على القبائل السودانية في الجنوب ،كون أن هذه الأعداد المتزايدة من السكان بحاجة ماسة إلى مصادر جديدة للمياه وللمراعي لماشيتها المكونة أساسا من الإبل [4] ،إذ إن تذبذب الأمطار وعدم سقوطها أحيانا في بعض الجهات خلال بضع سنوات القحط يؤدي إلى سيادة الجفاف ،وبالتالي إلى عدم الاستقرار ،ومثل هذه الوضعية لا تشجّع على التقرّي والتّمدن [5] إذ إن حركة هذه القبائل تكون دائمة بحثا عن مناطق جديدة ، ولنا أن نتخيّل في حالة ما إذا كانت هذه المصادر مهدّدة بسبب هذه الأعداد المتزايدة ،إذ أن إغارة القبائل بعضها على بعض أو على الأقوام القريبة منها أو المجاورة لها في بلاد السودان ،يصبح سلوكا مفروضا عليها [6] إذ أنه يُخلق من رحم هذا الصراع بوادر جديدة ستزيد من فرص معرفة كل طرف بالآخر .

تزامن هذا الضغط المنذر بالانفجار مع استقدام أحد زعماء هذه القبائل الصنهاجية للفقيه "عبد الله بن ياسين الجزولي" الذي كان له مشروع اصطلاحي جذري لبلاد المغرب ، وجد في إمكانية تحقيقه إلزامية الاستجابة لدعوة "يحي

---

[1] ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 97.

[2] البكري ، المسالك والممالك ، ج2 ،ص 345. ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، 197، ص 121.الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح ، إحسان عباس ، ط2، بيروت ، مكتبة لبنان ، 1984، ص 65.

[3] وهم إلى بلاد السودان أقرب البكري ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 351.

[4] ذكر ابن حوقل من أخت ملك أودغشت "تنبروتان" كان لها مائة من الرعاة تحت يد كل واحد منهم مائة من الإبل ، ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 98.وذكر في موضع ثان بأن وعندهم من الجمال الكثيرة في براريّهم وسكّان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب" نفسه ، ص 95. وذكر البكري بأن" المرابطين غزو سجلماسة في جيش عدّته ثلاثون ألف جمل "، البكري ، المصدر السابق ،ج2 ،ص 354. وذكر الإدريسي عن أهل أغمات قوله "... وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم مائة جمل والسبعون والثمانون جملا كلها موقرة... " الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص 232 .

[5] الناني ولد الحسين ، صحراء الملثمين ، ص 37.

[6] أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 83.

بن إبراهيم الجدالي" والدخول للصحراء التي استعصت على الكثيرين من قبله [1] لكن الدافع الديني عند ابن ياسين غلب تخوف هذا واستطاع فعلا أن يدخل الصحراء ، ويُهذّب إسلام هذه القبائل ويُفجّر الضغط الممارس عليها في طابع ديني إصلاحي وجّهه إلى الشمال استطاع به أن يوصل أتباعه من بعده إلى بلاد الأندلس ، فإذا كان عبد الله قد نجح في تأسيس هذه الدولة القويّة ، فما هي انعكاسات هذه القوة في الدفع بالمعرفة عن بلاد السودان ؟ وكيف تمّ ذلك ؟

إن هذا الانتشار اللاّفت الناتج عن خروج القبائل الصنهاجية من مناطق عيشها في الجنوب أمكننا تشبيهه بالانفجار البركاني الذي يخرج معه المخزون من الماغما البركانية التي كانت في الأعماق بعيدة عن الأعين ثم بعدها تُصبح مكشوفة للعيان ، فالأمر نفسه حدث مع هذا الخروج المرابطي من الصحراء ، إذ أخرج معه المخزون المعرفي عند بلاد السودان لبلاد المغرب والأندلس ، فالمعرفة عن هذه الأقاليم ستتطوّر نتيجة مشاركة أعداد كبيرة من السودانيين في الجهاد مع المرابطين [2] ، والأمر الثاني هو بقاء مجالات الملثمين في الجنوب فارغة سكانيا مقارنة بالحالة التي كانت عليها في السابق ، وهو الأمر الذي دفع بالسودانيين للخروج والتّقدم إلى هذه المجالات ما أدى إلى تشكيل مراكز تجارية جديدة [3] .

لقد أحدثت الخروج المرابطي إلى الشمال انقلابا كلّيا في تاريخ المنطقة بصفة عامة ، وعن صناعة المعرفة عن هذه المناطق بصفة خاصة ، فقد بدأت مجموعة من العوامل الجديدة تفرض نفسها على الحياة السياسية والدينية والاقتصادية لبلاد المغرب ، بدأت تأخذ المبادرة في صناعة المعرفة عن الآخر سواء تعلق الأمر ببلاد المغرب أم ببلاد السودان ، فقد تراجعت القوى السياسية التي كانت تتقاسم الحكم في بلاد المغرب فاسحة المجال لقوة القبائل الصنهاجية

---

[1] يُشير بعض المؤرخين أن تلامذة الشيخ "أبو عمران الفاسي" امتنعوا عن مرافقة الأمير الجدالي "يحي بن إبراهيم" إلى الصحراء ، فقد أشار إلى هذه النقطة ابن أبي زرع بقوله " ... فندب الشيخ أبو عمران تلامذته إلى ذلك فامتنعوا وأشفقوا من دخول الصحراء ..." ابن أبي زرع ،الأنيس المطرب ، ص 123. وعند الناصري " ...فاستصعبوا دخول أرض الصحراء وأشفقوا منها " ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ، 1997م ، ج2 ،ص 06. أما لسان الدين بن الخطيب فقد أشار إلى هذه النقطة بقوله "... فلم يوافقه أحد لبعد المشقة والانقطاع في الصحراء ..."، ابن الخطيب، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تونس ، مطبعة التقدم الإسلامية ، د.ت ، ص 09.

[2] ذكر الناصري بأنه شارك في معركة الزلاقة في الأندلس زهاء أربعة آلاف من السودان من حشم الأمير يوسف بن تاشفين " الناصري ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 47.

[3] مثل مدينة "تغازة" التي تحوّلت إلى مركز تجاري يُتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر ، ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ج2، ص 192.

الصحراوية التي وحّدت كامل المنطقة الغربية من إفريقيا ،وأدمجت مناطق بلاد السودان في الدولة الإسلامية بعد المجهودات التي بذلتها في نشر الدين الإسلامي في هذه المناطق .

وبعد أن كانت هذه المناطق في وقت سابق خارج مجال اهتمامات الجغرافيين العرب و لم تُخصّص لها سوى أسطر قليلة في عمليات التدوين الجغرافية والتاريخية ، فإن هذه المرحلة الجديدة المتزامنة مع تشكل الدولة المرابطية شهدت انقلابا واضحا فيما كان سائدا من قبل ، فقد خرجت بلاد السودان من التّهميش لتصبح موضوعا مستقلا قائما بذاته تولّى المغاربة كتابته بأنفسهم[1] ما جعل لهم سبقا عن الكتابات السابقة التي كانت تعبّر بحال من الأحوال عن نظرة المشارقة إلى بلاد السودان ، فإذا كان أصحاب المصنفات المشرقية الذين وصلوا إلى بلاد المغرب وكتبوا منها معارفهم عن بلاد السودان قد حققوا امتيازا عن زملائهم الذين كتبوا عن المناطق دون أن يدخلوا بلاد المغرب فلنا حينئذ أن نتصور أهمية كتابات المغاربة أنفسهم عن بلاد السودان[2] .

وفي محاولة تفسير كيف أمكن للمنطقة أن تصبح موضوعا قائما بذاته يقدّم أحمد الشكري [3] في كتابه " الإسلام والمجتمع السوداني " مجموعة من التساؤلات فيما إذا كان إدراج هذه المنطقة ضمن الكتابة ناتج عن تجاهل للقواعد المنهجية التي فرضها المشارقة على أنفسهم في الاقتصار على ذكر البلاد الإسلامية فقط ؟ أم أن الضرورة التي دعت إليها أصبحت منتفية نتيجة اعتناق السودانيين للإسلام ؟ أم أن الأمر يتجاوز ذلك ليعكس تطورا في الذهنية والثقافة العربية الإسلاميتين مما حدا بهما إلى الانفتاح على إفريقيا جنوب الصحراء بالقدر نفسه الذي استأثرت به دار الإسلام والمناطق الشمالية والشرقية المجاورة لها ؟

مهما كانت هذه التساؤلات الإستنتاجية التي قدمها هذا الكاتب عن أسباب خروج بلاد السودان من الهامشية تحتمل الصحة أو الخطأ ، فإن الشيء الذي يجب أن نسلّم به في هذه الفترة هو التّنوع الكبير في مصادر الخبر ، فقد أصبح بمقدور المصنِّفين استقصاء الخبر بأكثر من طريقة ، فقد توفّرت مجموعة من العوامل كل منها سيساهم بقدر معيّن في تقديم جديد للمعرفة عن بلاد السودان حاولنا إبرازها من خلال تصنيفها تحت عنوانين كبيرين أحدهما يتعلّق بالتجارة

---

[1] بخصوص تحديد الأماكن التي دُوِّنت فيها المعلومات عن بلاد السودان أنظر الملحق رقم : 09 .

[2] لتوضيح التغيّر في أماكن تدوين المصادر الجغرافية بين فترتي الدراسة قارن بين الملحقين : رقم06، و 09.

[3] أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 23.

والعامل الثاني يتعلّق بإسلام شعوب هذه المناطق وما يمكن أن يحقّقه هذين العاملين من معارف عن هذه المناطق فبالإضافة إلى النشاط التجاري وانتشار الإسلام بين هذه الأقوام ، وجب علينا أن نشير إلى نقطة مهمة هي بعد أن كنا نجد في الفترة الأولى من الدراسة بأن المسلمين هم الذين كانوا يبادرون إلى تحقيق المعرفة عن بلاد السودان ، فإننا نجد في الفترة الثانية أن السودانين بدورهم ساهموا في التعريف بأنفسهم من خلال خروجهم إلى بلدان العالم الإسلامي وسنحاول في هذه الفترة الثانية المخصصة للدراسة والممتدة من النصف الثاني للقرن الخامس هجري وصولا وانتهاء إلى القرن الثامن هجري التعرّف على أهمية كل من التجارة والأسلمة في الدفع بالمعرفة العربية عن بلاد السودان للتطور ؟

1 ـ النشاط التجاري :

استمر النشاط التجاري قائما في هذه الفترة بين بلاد المغرب والسودان وكان أحد العوامل الأساسية التي دفعت بالمعارف العربية نحو الازدهار ، فحركة التّنقل بين المنطقتين ، ووصول التجار إلى بلاد السودان سيساهم في إزالة حالة اللّبس والضّبابية التي كانت من قبل ، ذلك أن التجار لم يكتفوا فقط بالتجارة مع الأطراف الشمالية لبلاد السودان ، بل كان لهم تعمّق في دواخل هذه المناطق بغية تحقيق ربح أكبر ، فقد أشار ابن حوقل إلى أن ثمن الملح في دواخل بلاد السودان كان أكبر من ثمنه في أقاصيه [1] ، فكان التجار العرب تتوغلون في هذه المناطق البعيدة ما أوصلهم إلى مناجم الذهب في "غياروا" و"يرسني "و"سامة" و"كوغة "و"ملل" ،ويؤكد الإدريسي حقيقة الوجود العربي في مناجم حقول الذهب في ونقارة جنوب غانة [2] ، ومع هذا التوغل كان تتوغل الإسلام [3] وتنكشف هذه المناطق المجهولة للعرب ما يزيد من معارف العرب بهذه الأقاليم التي كان لهم سبق للوصول إليها .

---

[1] ابن حوقل، صورة الأرض ، ص 98.

[2] يقول الإدريسي متحدثا عن مدينة وركلان " ... وهي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم ..." الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص 296 .

[3] تم إسلام ملك ملل علي يد أحد التجار المسلمين يدعى علي بن يخلف وتختلف المصادر في ذكر تاريخ إسلام هذا الملك فبينما ورد عند الدرجيني أن علي بن يخلف الذي ذهب مالي عام (1179م) وتم على يده إسلام ملك مالي فإن البكري الذي ألف كتابه عام (1067م) أي قبل أكثر من مائة عام من ذهاب علي بن يخلف إلى مالي يذكر أيضا هذه الحادثة وينسبها إلى الشخص نفسه ، عن محاولة تفسير سبب هذا الاختلاف.أنظر : أحمد إلياس حسين ، " دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن الثالث عشر الميلادي" ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية , بغداد ، المنظمة العربية للثقافة والعلوم ، 1985م ، ص ص 95- 97 .

كما أن ممارسة التجارة أو العمل التّجاري يتطلب معرفة ثلاثة أمور أساسية تعتبر مهمة في تحقيق المعرفة عن بلاد السودان والسودانيين ، فأول هذه الأمور هي معرفة الطرق المسالك التجارية الموصلة إلى الأسواق والمراكز التجارية في بلاد السودان ما يتطلب من التّجار المسافرين معرفة الأقوام على طول هذه الطريق ،ومعرفة أماكن تواجد المياه حتّى يُضمن وصول القافلة إلى هدفها بسلام من دون مضايقات أو اعتداءات من قبل قطاع الطرق ، فإذا تتبعنا المادة الوصفية الواردة في المصادر العربية فإننا نجد تركيزا واضحا على وصف هذه الأمور المتعلقة بالطرق والمراكز التجارية والأسواق التي يتم فيها عملية التبادل التجاري ، ولّما كانت العمليات التّجارية تتأثر بالوضع السياسي المتغير بين طرفي التعامل التجاري سواء كان هذا في بلاد المغرب أم في بلاد السودان ، فإن المسالك التجارية ستتغير بدورها إلى مناطق جديدة أكثر أمنا من السابقة ، وهذا التغير من شأنه أن يؤدي إلى استحداث مراكز تجارية جديدة ، وكل هذا سينعكس على نوعية المعرفة المقدمة لنا إذ أن أصحاب المصنفات سيواكبون هذه الحركة التجارية لينتقل اهتمامهم إلى التركيز على وصف هذه المسالك والمراكز التجارية الجديدة التي يقصدها التجار .

لقد تأثّرت التّجارة بالعوامل السياسية التي كانت تشهدها بلاد المغرب ، وكانت العلاقات التي كانت تربط القبائل الصحراوية المسيطرة على الطرق التجارية مع السلطة الحاكمة في بلاد المغرب الإسلامي هي المحددة لمدى تقدّم هذه التجارة أو تراجعها ، فبعد أن شهدت بلاد المغرب حالة الفوضى السياسية بعد الغزوة الهلالية [1] ما أدى إلى تعطيل الطريقين الأوسط والشرقي الموصلين إلى بلاد السودان فإن التجارة قد شهدت تركزا أكبر من جهة الغرب، وهو الأمر الذي توافق مع قيام الدولة المرابطية بعد قيام الحلف الصنهاجي الثالث على يد عبد الله بن ياسين ثم الخروج إلى بلاد المغرب فكان مما فعّل العملية التجارية من هذه الجهة هو سيطرة القبائل الصنهاجية على هذا الطريق من مبتدئه في بلاد المغرب إلى المنتهى في بلاد السودان [2] لكن اختلف هذا مع الموحدين الذين قامت دولتهم بفعل عصبية قبائل مصمودة الزناتية ، فبعد أن سيطروا على الحكم في بلاد المغرب تضاءلت أهمية الطريق الغربي بسبب أن صنهاجة البرنسية العدو

[1] عن إشكالية هذه الغزوة ومختلف الآراء العربية والإستشراقية حولها أنظر مقال : عمارة علاوة ، << الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط >> ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، 04 (2004) .

[2] عن الأهمية التّجارية لهذا الطريق أنظر: صباح إبراهيم الشيخلي ، << النشاطات التّجارية العربية عبر الطريق الصحراوي حتى نهاية القرن الخامس هجري >> ، تجارة القوافل ودورها الحضاري ، ص ص 29- 46.

اللّدود لقبيلة زناتة البترية [1] هي من يسطر على هذا الطريق فلم تكن صحراء صنهاجة مكانا آمنا للتجار المغاربة على الرغم من تحالف الموحدين مع مسوفة ، واشتراك أهل الصحراء وغانة في حروب الموحدين مع نصارى اسبانيا على حكم التطوع وذلك أن صنهاجة كانت ملجأ للثائرين من صنهاجة على الموحدين أيام عبد المؤمن وتحالفت صنهاجة الصحراء مع الميورقيين في ثورتهم في البلاد الشرقية ، فكثرت حوادث قطع الطريق على التجار بين سجلماسة وغانة فتحولت التجارة مع السودان عبر الصحراء من سواحل المحيط إلى وسط الصحراء في اتجاه وركلان والواحات إلى مصر وقد أسهم انتقال تعدين الذهب من جنوب غانة إلى منطقة مالي في هذا التحول إسهاما كبيرا ، وهو تحول أصبح تاما في القرن التالي[2] .

هذا التّنقل بين الطرق الثلاث الغربي والأوسط والشرقي ، سيساهم بدوره في دفع المعرفة عن هذه الطرق والمراكز التجارية التي تنتشر على طول هذه الطرق ، فبعد أن كان التركيز على منطقة السودان الغربي في المراحل الأولى ، فإن السودان الأوسط ، سيحتل الصدارة في حجم المعلومات الواردة عن هذه المناطق في كتابات نهاية هذه الفترة الثانية المعنية بالدراسة .

وأما الأمر الثاني المهم في النشاط التجاري فهو معرفة لغة الغير ،أو على الأقل إيجاد طريقة للتواصل معهم ، فقد تجاوزت التجارة في هذه الفترة طريقة التعامل الصامت التي أشار إليها المسعودي [3] إلى طريقة التعامل المباشر الذي كان في بداية الأمر يتم عن طريق المترجمين [4] الذين يكونون كوسطاء في هذه العمليات التجارية ،لكن في المراحل القادمة كنتيجة لانتشار الحركة التجارية وتوسعها، لم تكن عمليات الترجمة تؤدي الغرض المطلوب ، فظهرت نتيجة لهذا الأمر

---

[1] نسبة إلى الجد الأكبر " بر " الذي له ولدان هما "برنس بن بر " ومنه فرع البرانس "ومادغيس بن بر" الملقب بالأبتر ومنه القبائل البترية ، انظر ابن خلدون، العبر ،ج6 ، ص 117 . ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ،ص ص 461- 462.

[2] عز الدين أحمد موسى ، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، بيروت ، دار الشروق ، 1983، ص 273.

[3] المسعودي ، أخبار الزمان ، ص 88 .

[4] ذكر البكري بأن تراجمة ملك غانة من المسلمين، البكري ، المسالك والممالك ، ج 2 ،ص 363 ،وكذا حديث أحد نساء غانة إلى الرجل العربي الذي لم يفهم كلامها لولا شرحه من طرف أحد المترجمين ، نفسه ،ج2 ، ص 367.ونجد كذلك بأن منسا موسى بعث بهدية لأبي الحسن المريني وأرفقها بترجمان من قبائل الملثمين من صنهاجة ابن خلدون ، التاريخ ، ج7 ، ص 353 .

اللّغة السواحلية التي تُعتبر مزيجا بين لغة الهوسا [1]،واللغة العربية ، وكانت تُستعمل في الأوساط التجارية ، وبعد انتشار الإسلام بين أهل المنطقة ، تطلب الأمر من السودانيين أن يتعلّموا اللغة العربية التي أصبحت فيما بعد اللغة المستعملة في التواصل بين سكان بلاد المغرب وسكان إفريقيا جنوب الصحراء[2] ، فهذه المراحل الثلاث من التواصل اللغوي ستنعكس مباشرة على حجم المعلومات المحصل عنها بداية بالتجارة الصامتة التي تحد كثيرا من التواصل وبالتالي تحد من المعرفة ، ثم عمليات الترجمة التي تتطلب اعتمادا على المترجمين ،وصولا إلى الدرجة الثالثة وهي عمليات التواصل المباشر مع هذه الشعوب ، وهو الأمر الذي سيحقّق معرفة أكبر من المرحلتين السابقتين عن هذه الأجناس السودانية .

وأما الأمر الثالث فإن الاشتغال في التجارة يتطلّب من التاجر أن يبقى على اتصال دائم بالأسواق والسلع وأسعار المواد التجارية ...الخ ، هذا أدى بالبعض إلى تفضيل الاستقرار في هذه المناطق ، أو العمل كوسيط تجاري بين أهل الشمال والجنوب ، وهذا أدى إلى تشكيل وظهور جاليات عربية مستوطنة لهذه المناطق [3] ، ولنا أن نتخيّل مقدار ما يمكن أن تضيفه معرفة هذه الجاليات المستقرة في بلاد السودان إلى معرفة التجار القادمين من بلاد المغرب ، والعائدين بمعلومات إضافية عن هذ ه الأقاليم ، وسنحاول أن نسلط الضوء على بعض هذه الرحلات التجارية التي كانت تنطلق من الشمال وصولا لبلاد السودان .

[1] " تعتبر اللغة الهوسية الثالثة في إفريقيا بعد العربية والسواحلية من حيث انتشارها واستخدامها في كل إفريقيا وهي غنية بالمفردات العربية تتراوح نسبتها بين الأربعين والخمسين في المائة من مفرداتها لغة عربية وأرجح سبب هذه النسبة العالية لهجرات جهينة وتميم إلى إفريقيا قبل الميلاد " محمد الفلاتي ، الفلاتة في أفريقيا ومساهمتهم الإسلامية في والتنموية في السودان ، الكويت ، دار الكتاب الحديث ، 1994، ص 318.

[2] على الرغم من انتشار اللغة العربية غير أن البعض كان يستمر في استعمال التراجمة يشير العمري إلى أن السلطان منسا موسى كان لا يتحدث إلا بترجمان مع إجادة ومعرفته للتكلم باللسان العربيّ العمري ، شهاب الدين العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح أحمد عبد القادر الشاذلي، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، 2002 ، ج4 ، ص 122 .

[3] بخصوص هذه الجاليات أنظر : خالدي مسعود ، الجاليات العربية والبربرية في إفريقيا جنوب الصحراء (السودان الأوسط والغربي) بين القرنين الخامس والعاشر هجريين الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين ، إشراف ، مسعود مزهودي ، جامعة الأمير ،2008.

أ – الرحلات التجارية :

سجلّتْ لنا المصادر التاريخية والجغرافية مجموعة من الرحلات المتنوّعة والتي كانت تنطلق من المراكز التجارية في بلاد المغرب وصولا إلى مناطق معينة من بلاد السودان ،خلال هذه الفترة الزمنية المخصصة للدراسة الممتدّة من منتصف القرن الخامس هجري (11م) وصولا إلى نهاية القرن الثامن هجري (14م) ، فقد كانت هذه الرحلات توفّر للتّجار والذين يتواجدون في هذه القوافل فرصة التعرف المباشر على مناطق جنوب الصحراء ، ففي الفترات الأولى من هذا التاريخ كان التّجار العرب هم أصحاب المبادرة من أجل الوصول والتجارة مع سكان جنوب الصحراء [1] ،لكن فيما بعد أصبحنا نجد اشتراك السودانيين في التجارة ، فخرجوا من بلادهم إلى مناطق من بلاد المغرب ، فبينما كانت أعدادهم قليلة في العصر المرابطي ، فإنهم دخلوا في هذه التجارة في العصر الموحدي ، وما أن جاء ختام القرن السادس هجري (12م) حتى أصبحت لهم جالية كبيرة من التجار في سجلماسة [2]، كما أن مواكبة الحركة التّجارية للتغيّرات السياسية التي كانت تحصل على مستوى الطرق والمراكز التجارية ، ساعد على الكشف عن مناطق جديدة من بلاد السودان ، فلولا هذه التغيّرات السياسية المتواصلة ، ربّما لم يكن بالوسع التّعرف على المراكز التّجارية في السودان الأوسط ،بل وربما لم تكن مملكة مالي لتظهر على الإطلاق ، ثمّ إنّ العامل التجاري ساهم بدوره في إخراج عدد لا بأس به من العبيد السودانيين الذين كان تواجدهم في الشمال فرصة للتعريف ببلادهم ، فقد كانوا من أهم المصادر الإخبارية لمن كان يهمّه هذا الأمر ، فمنذ القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر ميلادي كانت أفواج العبيد السود تدخل البلاد الشرقية من "زويلة" ، والبلاد الغربية عن طريق "أودغشت " وازداد عددهم بعد الفتح المرابطي [3] ، وفي مصر تزايدت أعدادهم بشكل ملفت للانتباه ، ولعبوا دورا مهمّا في الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية ، فقد وصلوا إلى أعلى المناصب ، واعتلى أحدهم كرسيّ الحكم وهو "كافور الإخشيدي" وكان من رقيق الحبشة ، وقُدِّرت أعدادهم في

---

[1] النصوص المتعلقة بتجارة سكان بلاد المغرب مع إفريقيا جنوب الصحراء كثيرة جدا انظر : على سبيل المثال : البكري ، المسالك والممالك ،ج2 ،ص 344 , ص 351، الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص 18 ،ص 19،ص 20ص 22، ص23, ص28، ص108 .

[2] عز الدين أحمد موسى ، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، ص288.

[3] نفسه ، ص 117. وقد اشترى يوسف بن تاشفين سنة 1072/464 ألفين من العبيد السود ، لسان الدين بن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص 13 . واشترك معه في الزلاقة أربعة آلاف أسود ، الناصري ،الاستقصا ، ج2 ، ص 47 .

الجيش المصري زمن الفاطميين بخمسين ألفا [1] ، وهذه العناصر ستُساهم بنصيب وافر في تغيير الذهنية العربية عن هذه المناطق ، خصوصا تلك العناصر السودانية التي وصلت إلى مناصب مهمة في السلطة ، كاعتلاء العرش الذي يعتبر قمة الهرم السياسي [2] .

ب – السفريات السياسية :

وهي تلك الرحلات التي تُنفذها الجهات الرّسمية أو السلطات الحاكمة وتتمّ بين الملوك ، وفي الغالب تكون لأغراض محدّدة كالتّهنئة بتولّي العرش أو إرسال هدايا [3] بمناسبات معينة كالأعياد والأفراح [4] والانتصار على الأعداء [5] ، أو أن تتعلق بأغراض تجاريّة [6] ، وكلها محاولات تهدف إلى التّقريب بين هذه الأنظمة السياسية ما سيجد انعكاسا مباشرا في التّقريب بين شعوب المنطقتين في توسعة النشاطات التّجارية المولّدة بدورها للمعرفة .

---

[1] شوقي عبد القوى عثمان ، التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك ،(1250- 1517) ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2000م، ص 99.

[2] كانت أم المستنصر جارية سوداء تزوجها الظاهر واستولدها المستنصر وبعد أن آلت الخلافة لابنها قويت شوكتها وتحكّمت في الدولة وأخذت في شراء العبيد الأسود وجعلتهم طائفة لها واستكثرت منهم وبسطت لهم في الرزق ووسعت عليهم حتى أمطرتهم بالنعم وصار العبد بمصر يحكم حكم الولاة وصار منهم في القاهرة ومصر وظواهرها من القرى نحو خمسين ألف عبد . أنظر: تقي الدين المقريزي ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تح ، محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ، مطابع الأهرام التجارية ،1981، ج2 ، ص ص 266- 267 .

[3] وصلت من أحد الملوك المسلمين المجاورين من ملك الفرويين ورد هذا الملك بدوره على هذه الهدية ، البكري ، المسالك والممالك ، ج2 ،ص 362.

[4] وصلت هدية لأبي يوسف يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبد المؤمن بن علي من بلاد السودان فيها حيوان الفيل : المقري ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تح ، إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، 1968، ج 3 ص 103. وكذا هدية السودان من أهل مالي للسلطان أبي سالم ملك المغرب وفي جملتها الحيوان المعروف بالزرافة : نفسه ،ج 7 ،ص 151 ، الناصري ،الاستقصا ، ج 4 ص ص 34- 35.

[5] هدية منسا موسى لأبي الحسن المريني مهنئا له بالنصر والاستيلاء على المغرب الأوسط ثم الرد بهدية أخرى بعث بها أبو الحسن لمنسا سليمان ابن منسا موسى، ابن خلدون ، التاريخ ،ج 7 ، ص 353، الناصري ، المصدر السابق ،ج3 ، ص 158.

[6] وجّه الأمير أبو الربيع سليمان والي سجلماسة وأقاليمها مذكرة احتجاج شديدة اللهجة إلى ملك غانة يستنكر فيها العراقيل التي توضع في وجه صغار التجار المغاربة مهددا بمعاملة تجار تلك النواحي بالمثل إن استمر هذا الفعل. المقري ، المصدر السابق ،ج3 ،ص 105 .

ع – السفريات السياحية :

يُعتبر هذا النوع من الرحلات أفضل أنواع الرحلات على الإطلاق من حيث تقديمها معارف عن الأقوام الأخرى، فهدف الرحّالة الأساسي في مثل هذا النوع من الرحلات هو محاولة تحسين معرفته بالمناطق التي يصل إليها وبالأجناس البشرية التي تقطنها ،ولن تشغل الرحالة كَثْرة الذهاب إلى الأسواق لأغراض التجارة ،كما لن تعيقه المراسيم الدبلوماسية ، وهو ما يحقّق له فرصة كبيرة للانتقال في هذه المناطق والاحتكاك بسكانها دون حرج أو مضايقات ، ويُساهم هذا النّوع الرحلات بقدر كبير في التعريف بالأقوام الأخرى ، خاصة إذا كان مقترنا بتدوين تفاصيل هذه الرحلة ، وقد حظيت بلاد السودان بأول نوع من هذه الرحلات [1] مع ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر ميلادي ، وهو النموذج الوحيد من هذا النوع من الرحلات الذي حظيت به بلاد السودان ضمن هذا المجال الزمني المخصّص للدراسة [2] ما يجعل هذه الرحلة تُعتبر أهمّ مصدر نملكه على الإطلاق عن تاريخ ووصف هذه المناطق من القارة الإفريقية .

2 ـ نشر الإسلام.

لم يكن المرابطون أول من أدخل الإسلام إلى بلاد السودان الأوسط والغربي في القرن الحادي عشر الميلادي – كما هو متواتر – بل إن الإسلام وصل إلى هذه البقاع في القرن نفسه الذي ظهر فيه ، وهو القرن السابع الميلادي [3] ، وعلى عكس بلاد المغرب التي بدأ الإسلام ينتشر فيها بسرعة مع دخول القوات العربية الفاتحة ،كان دخول الإسلام إلى بلاد السودان وئيدا بالطرق السلمية، والذي يُفهم من المصادر العربية الأولى أن الإسلام دخل إلى السودان مع قوافل

---

[1] تختلف رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان عن باقي رحلاته فبينما كانت رحلاته الأولى ذات طابع معرفي سياحي فإن الرحلة الأخيرة إلى بلاد السودان كانت تكليفيّة من السلطان المغربي وهذا ما أشار ابن بطوطة في قوله " ...ولما عدت إلى تكدّا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمرا لي بالوصول إلى حضرته العلية فقبلته وامتثلته على الفور ..." ص ابن بطوطة ، تحفة النظار ،ج2، ص 210 .

[2] بعد انتهاء هذه الفترة نموذج آخر من هذا النوع والمتمثل في الرحلة التي قام بها "الحسن الوزان" المعروف بـــ"ليون الإفريقي" ، وصف إفريقيا ، ت , محمد حجي و محمد الأخضر ، ط2، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1983.

[3] إبراهيم على طرخان ، دولة مالي الإسلامية دراسات في التاريخ القومي الإفريقي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1973، ص 47.

التّجار التي كانت دائمة الحركة والتنقل بين المغرب وبلاد السودان [1] ، وتُشير قرائن الأحوال ، إلى أن تجّار بلاد المغرب وعددا من الفقهاء والدعاة المسلمين ، قد قاموا بدور بالغ الأهمية في عملية نقل الإسلام إلى بلاد السودان ، كما أن بربر الصحراء بعد إسلامهم وبحكم موقعهم ساهموا بفعالية في تنشيط هذه العملية [2] .

ليست مهمّتنا في هذا البحث تتبّع مسيرة انتشار الإسلام في بلاد السودان ، فهذه قضية أخرى حاول العديد من الكتاب إبرازها سواء كانوا عربا أو مستشرقين ، وقدّم كل من هؤلاء أحكاما وتفسيرات حول انتشار الإسلام ووصوله إلى هذه المناطق ، وجاءت النتائج المتوصّل إليها مختلفة في ضبط تاريخ محدّد لوصول الإسلام إلى هذه المناطق ، ويرجع سبب هذا الاختلاف إلى تحيّز البعض لأفكار دون أخرى ، وبحثا عن تقوية الحجج لكل طرف ظهرت محاولات تستهدف تأويل النصوص وتفسيرها وشرحها وفقا لهذه الأهواء ما أدى إلى غياب الموضوعية في الطرح [3] ، وعلى الرغم من هذه الاختلافات فالنتيجة الواضحة التي نُقرّ هي حقيقة أنّ وصول الإسلام إلى بلاد السودان كان مع بداية الحركة التجارية بين هذه المناطق ومناطق بلاد المغرب في القرن الأول هجري (7م) وهذا الوصول لا يعني بالضرورة اعتناق السودانيين للإسلام بل إن السودانيين تعرّفوا عليه كفكرة والتمسوا انعكاساته على معتنقيه ، لكن ازدهاره وتغلله في المجتمع السوداني كان بعد القرن الخامس هجري (11م) وبين هاتين المرحلتين التاريخين تكمل إشكالية هذا المطلب .

لقد رأينا في الفصل الأول مدى المعرفة التي تحقّقت للعرب عن بلاد السودان، وقدّمنا مجموعة من التفسيرات والتوضيحات كتلك المتعلّقة بتغييب بلاد السودان عن قصد ،كون أن هذه المناطق متطرّفة عن بلاد المسلمين ، و لم تصل

---

[1] نبيلة حسن محمد ، في تاريخ الحضارة الإسلامية ،دار المعرفة الجامعية ، ص265.

[2] الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 81.وعن دور هؤلاء في نشر الإسلام بين السودان أنظر : عصمت عبد اللطيف دندش ، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (**430هـ** ، **515 هـ / 1038م**، **1121م**) مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1988.

[3] أقصد بهذا دراسات الإستشراق الكلاسيكي الذي يؤخّر انتشار الإسلام في هذه المناطق إلى ما بعد القرن الرابع هجري كنتيجة لأعمال المرابطين ، وكرد فعل على ذلك ظهرت دراسات عربية تنفي هذه الاستنتاجات وتشير إلى أن الإسلام وصل إلى هذه المناطق في القرن الذي ظهر باعتبار وصول عقبة بن نافع إلى مناطق كوار وأعمال الولاة الأمويين والجيش الذي أنفذوه في صدر الإسلام إلى غانة ، وسبب هذا الاختلاف يعود إلى نوعية الإسلام المقصود هل هو الإسلام كفكرة وتسمية فقط؟ أم هو إسلام العقيدة والثقافة ؟

بعد إلى درجة من التحضر الذي وصلت إليه بقية الأقوام[1] ، وقد تحكم هذا العامل بشكل أساسي في نوعية المعارف التي وصلتنا عن هذه المناطق ، ما يجعلنا نطرح ضمن هذه الفترة الزمنية المخصصة للدراسة والتي تمتد من منتصف القرن الخامس هجري (11م) ، وصولا إلى القرن الثامن هجري (14م) ، وهي الفترة التي عبّرنا عنها في المقدمة بأنها فترة ازدهار للإسلام وانتشاره بين السودانيين ، فكيف ساهم انتشار الإسلام في تغيير الذهنية العربية ؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى تجاوز مناهج الفترة السابقة ؟ وما هي انعكاسات انتشار هذا الدين في الدفع بالمعرفة العربية نحو الازدهار ؟

تتلخّص أهمية اعتناق السودانيين للإسلام في الدفع بالمعرفة العربية في نقطة أساسية تتمثل في **زيادة احتكاك هذه الأجناس السودانية بغيرها من الأجناس الأخرى** ، وهو الشيء الذي من شأنه أن يخلق دافعا إضافيا للعناصر السودانية في محاولة للتّموقع ضمن بلدان المسلمين، فإلى جانب أن الإسلام دين سماوي من جهة ، فهو من جهة أخرى عبارة عن مجموعة من الأوامر والنواهي والواجبات والحقوق والتشريعات ، وكل هذه الأمور يحفظها مصدران تشريعيان أساسيان هما القرآن كلام الله ، والسنة النبوية المشرّفة بتفريعاتها الثلاث القولية والفعلية والتقريرية .

إن الدين الإسلامي الذي هو في جوهره عبارة عن مجموعة من التشريعات السماوية المنظِّمة لحياة البشر ، أحد أهدافها الأساسي محو وإذابة الفوارق اللّغوية والعرقيّة بين مختلف الأجناس البشرية ، فالإسلام لم يختص بطائفة دون أخرى ، ولا بجنس دون آخر ، بل إنه أرسل إلى الناس كافة ، ينبذ كل مظاهر الانعزال والانزواء عن المجتمعات الأخرى[2] –كما هو الأمر بالنسبة للمجتمع السوداني قبل تعرفه على الإسلام – ويحثّ على معتنقيه التعاون والتكافل الاجتماعي، فهذا الدين يدعوا ويُشجّع على اتحاد هذه الشعوب ويُبارك كل مبادرة تهدف إلى المشاركة والتموقع في هذه المنظومة الدينية العالمية ، وبالتالي ففي اعتناق السودانيين لهذا الدين أهمية كبيرة في الدفع بالمعرفة العربية عن هذه الأقاليم للتطوّر والازدهار نتيجة ما يفرضه هذا الوضع الجديد وفق ما يلي :

---

[1] ورد عند كل من الأصطخري وابن حوقل قولهما " ... و لم نذكر بلد السودان في المغرب والبجة والزنج ومن في أعراضهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ولا حظ لهم في شيء من ذلك فيستحقوا به إفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك ..." الأصطخري ، مسالك الممالك ، ص ص4– 5. وكذا : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 19.

[2] "...يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ..." سورة الحجرات ، الآية 13.

1 -تتطلّب فهم مسائل هذا الدين الجديد استقدام الدعاة من بلاد الإسلام ،وهذا سيزيد من أعدادهم بشكل بارز وملحوظ ويؤدي إلى انتشارهم في مختلف المناطق من هذه البلاد ، فحلقات التدريس التي يعقدها هؤلاء الدعاة ، لن تكون مخصّصة للجاليات العربية والبربرية المنتشرة في هذه المناطق فحسب ، بل إنها ستضم أيضا عددا لا بأس به من أبناء هذه المناطق [1]، ففهم هذا الدين يقترن بفهم مصادر تشريعه – القرآن والسنة- والعمل بهما يتطلّب معرفة باللّغة التي أنزل بها [2]، فليس من المقبول أن تبقى العناصر السودانية بعيدة عن استعمال اللّغة العربية ، وهي في هذا الوضع الديني الجديد ، ومع تعلم السودانيين للّغة العربية في هذه المرحلة ، لن يصبح هنالك احتياج للمترجمين لتحقيق التواصل بين الطرفين ، بل سيصبح التعامل من المرونة بما كان ،وهو الأمر الذي من شأنه أن يفعّل العلاقات إلى درجات كبيرة من العمق ، ما يؤدي بدوره إلى تعميق المعرفة بهؤلاء السودانيين باعتبارهم هم مصادر هذه المعرفة .

2 -بإطلاع السودانيين على نصوص القرآن والسنة سيجدون فيها من الآيات والأحاديث الكثيرة التي تفيد بأهمية الرحلة[3] في طلب العلم ، والتفقه في الدين ، حتى ولو كلّف هذا الأمر الانتقال إلى البلاد البعيدة [4] ،وعليه فإن من العناصر السودانية من عملت بهذه النصوص ، فانتقلت إلى بلاد المسلمين رغبة في طلب العلم ،ودافعها في ذلك إما رغبة في تجاوز العلم المتوّفر في بلادهم ، أو رغبة في أخذ هذا العلم من مصادره وأصوله في بلاد الإسلام التي كانت

---

[1] يقول ابن بطوطة عن أهل زاغة من عمل مالي "...وأهل زاغة قدماء في الإسلام لهم ديانة وطلب للعلم" ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ج2 ، ص 196 .

[2] من بين الأمور التي حرص عليها السودانيون وأهل مملكة مالي بالخصوص تحفيظ أبنائهم القرآن الكريم وأحيانا كان يلجأ إلى تقيدهم وجعل إطلاق سراحهم مرهونا بحفظ القرآن حتى ولو كان ذلك في الأعياد ابن بطوطة، المصدر السابق ، ج2،ص 204.

[3] بخصوص الرحلة في الإسلام أنظر : عبد الحكم عبد اللطيف ، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها ، مصر ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، 1996.

[4] من بين الآيات – "... قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ..." سورة الروم الآية 41.

– قال تعالى : " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ..." سورة الملك الآية 15.

– قال تعالى : " وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (20)" سورة نوح الآية19، 20.

ومن الأحاديث :

– قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم " وقال " ما من خارج يخرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضاء بما يصنع وقال أيضا :"من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة " أنظر ما جاء في طلب العلم الزرقاني ، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ج4 ،ص 552.

توفر فرصا أكبر في التفقه في الدين ، فبدأت تظهر جاليات سودانية وعلماء سودانيون في بلدان المسلمون كمصر [1] التي كان لهم فيها مدرسة خاصة لهم تسمى بمدرسة " ابن رشيق " [2] التي ستشكل إحدى مصادر نقل المعرفة أو على الأقل ستوفر فرصا للمؤرخين والجغرافيين لتحقيق بعض الأخبار المتعلقة ببلاد السودان .

3 تكتمل إقامة الدين الإسلامي بإقامة قاعدته الأخيرة والمتمثلة في الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة ، وهو الأمر الذي سعى الكثير من السودانيين – سواء تعلق الأمر بالملوك أو بالعامة من الناس– لإقامته وهذا سيزيد من احتكاك هؤلاء بالمسلمين بالسودانيين سواء كان هذا في مكة والمدينة ،أو على طول الطرق والمراكز الموصلة إلى هذه البلاد .

وعليه فإن الأجناس السودانية بعد أن كانت في المرحلة الأولى منفعلة بانتشار الإسلام ، أصبحت في هذه المرحة الثانية تتفاعل معه ، وذلك من خلال نشاط العلماء السودانيين في بلاد المسلمين وسنحاول في المطلبين القادمين أن نتتبّع بعض الرحلات التي سجّلتها لنا المصادر سواء تلك المتعلقة برحلات خرجت من بلاد السودان ، أو خرجت إليها ، إضافة إلى رحلات الحج ، وكيف كانت هذه الرحلات والسفريات فرصة للدفع بالمعرفة العربية عن هذه الأقاليم السودانية .

أ- رحلات الحــجّ.

لا نعلم التاريخ الذي بدأ فيه مثل هذا النوع من الرحلات بالتحديد، ولا نعلم تاريخ أول رحلة حج سودانية ، لكننا بالمقابل من ذلك نعلم بأن السودانيين بادروا بالحج مع حداثة إسلامهم [3] ، و لم يقتصر الحج على العلماء أو الفقهاء

---

[1] كانت لهم في مصر حارة تعرف بحارة السودان أنظر : المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج3 ، ص 313.

[2] هذه المدرسة للمالكية، وهي بخط حمّام الريش من مدينة مصر، كان الكاتم من طوائف التكرور لما وصلوا إلى مصر في سنة بضع وأربعين وستمائة، قاصدين الحج، دفعوا للقاضي علم الدين بن رشيق مالا بناها به، ودرّس بها فعرفت به، وصار لها في بلاد التكرور سمعة عظيمة، وكانوا يبعثون إليها في غالب السنين المال. المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ، دار الكتب العلمية , 1998 ، ج1، ص 358.

[3] الأمر نفسه نجده عند القبائل الصنهاجية المجاورة للسودانيين فقد خرج "يحي بن إبراهيم الجدالي" برسم الحج ، مع أن إسلامه كان سطحيا ، بحيث يتضح لنا من الحديث الذي دار بينه وبين الفقيه "أبو عمران الفاسي" عندما سأله عن قومه فقال " ...إنهم قوم غلب

فحسب ،بل امتدت لتشمل العامة من الناس ، حتى الملوك والأمراء ، وأصبح الحج عند هؤلاء إلى جانب أنه واجب ديني ، تقليدٌ وسنةٌ يتوارثونها في طابع يندر حتى في بلاد المغرب ، ويُعتبَر الجغرافي الزهري [1] – الذي كتب في القرن السادس هجري (12م) – أول من أشار إلى حج السودانيين ،ويفهم في الجملة التي أوردها أنه يتحدث عن حج السودانيين بصيغة الماضي ، ما يدل على أنهم حجوا على الأقل في القرن السابق ، فعبر عبر عن ذلك في كتابه الجغرافيا بقوله " ... وهم اليوم مسلمون وعندهم العلماء والفقهاء والقراء وسادوا في ذلك ، وأتى منهم إلى بلاد الأندلس رؤساء من أكابرهم ، وساروا إلى مكة وحجوا وانصرفوا إلى بلادهم ..."

يُعبِّر هذا النوع من الحج على حج العلماء والفقهاء والعامة الناس ، وهذا النوع من رحلات الحج لم يكن حظّه كبير من حيث ذكره أو تتبّعه في المصادر العربية ، فإذا وجدنا في بعض الأحيان أن رحلات حجّ الملوك في حد ذاتهم كان غائبا وأحيانا لا يتجاوز الوصف حدّ ذكر تسمية هذا الملك الذي حج فحسب ، فلنا حينها أن نفهم نصيب حج العامة من الناس في الكتابات العربية [2] ، أما ما يخص حجّ الملوك فالأمر مختلف إذ أن إسهام هذا النوع من الحج في تحقيق المعارف عن بلاد السودان مهم جدّا ، يكفينا التدليل على هذا الأمر ،بما أفردته المصادر العربية المختلفة من وصف لحج مانسا موسى وعبوره على القاهرة .

لقد أشارت بعض المصادر إلى أن أول من حج من ملوك السودان هو "برمندانة" وهو من ملوك مالي ، وفيما يعتبره كل من ابن خلدون والقلقشندي أول من حج من ملوك مالي [3]، فإن المقريزي [1]يعتبره أول من أسلم من ملوك

عليهم الجهل ، وليس لهم كثير علم ، فاختبره الفقيه وسأله عن واجبات دينه ، فلم يجده يعرف منها شيئا ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفا ، إلا أنه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة واليقين جاهل بما يصلح دينه ..." ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب ، ص122.

[1] الزهري ، كتاب الجغرافية ، تح ، محمد حاج صادق ، بور سعيد ، مكتبة الثقافة الدينية ، ص125.

[2] يحاول أحمد الشكري تفسير سبب هذا الأمر بعاملين أساسين أولهما متعلق بالحروب الصليبية التي شغلت أهل الشام ومصر و لم تترك لهم مجالا للانشغال بوصف حج ملك سوداني والأمر الثاني هو أن دخول هؤلاء الملوك كان يتم في سرية وربما كان يتم أحيانا من جهة عيذاب في السودان الشرقي . أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني ، ص241.

[3] يقول ابن خلدون " ... ودخلوا في دين الإسلام منذ حين من السنين وحج جماعة من ملوكهم وأول من حج منهم برمندار وسمعت في ضبطه من بعض فضلائهم برمند..." التاريخ ،ج5 ،ص 496. أما القلقشندي فقال : "كان ملوك مالي قد دخلوا في الإسلام منذ زمن قديم وأول من أسلم منهم ملك اسمه برمندانه وحج بعد إسلامه فاقتفى سننه في الحج من جاء بعده من الملوك " القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تح ، يوسف علي طويل ، دمشق ، دار الفكر ، 1987، ج5 ،ص 282 .

السودان ، وقدّم لنا بالإضافة إلى هذا قائمة لثلاث ملوك تكروريين حجّوا إلى مكة ، فذكر حج "منسا بن ماري جاطة "في أيام الظاهر بيبرس، ثم ذكر حج "ساكورة" و لم يقدّم لنا تفاصيل عن هاتين الحجتين ، لكن حجة منسا موسى استوقفته طويلا فأفاض في وصفها وتتبّع مراحلها وأخبارها .

تنعكس أهمية رحلات الحج في الأثر الذي قدّمته عن بلاد السودان، فالملك في خروجه للحجّ لن يكون وحيدا بل سيكون محاطا بعشيرته وأبناء قومه [2] ، فتواجد هؤلاء في بلاد المسلمين والإقامة بها سيتيح الفرصة للعرب للاحتكاك بهؤلاء السودانيين[3] ،كما أن خروج ركب الحج في أبهته وفي أعداد كبيرة ، سيقدّم انطباعا عن مدى قوة هذه البلاد ، وقوة ملكها ، والثراء الموجود في هذه المنطقة ، وهو الأمر الذي تحقّق فعلا في رحلة "منسا موسى" وهذا سيؤدي إلى تنشيط الحركة التجارية ،بل ويُغري البعض من المسلمين في محاولة للاستفادة من هذه الخيرات ما سيكون دافعا للتّجار للانتقال إلى بلاد السودان للتجارة أو حتى الإقامة الدّائمة بها ، كما كان في اصطحاب الملوك السودانيين بعد عودتهم إلى بلدانهم لبعض الأشخاص الذين أعجبوا بعلمهم أو بمهاراتهم [4] فرصة لتقويّة نقاط الاحتكاك والتواصل بين المسلمين والسودانيين ، وكان في مرور رحلات الحج هذه من بعض المواضع المعروفة في مصر فرصة لأصحاب المصادر للتّحقق من بعض الأخبار والأسماء التي وصلتهم عن بلدان السودان من خلال إطلاعهم على الكتب السابقة أو من أحاديثهم مع تجار وصلوا إلى هذه المناطق ، فكان الالتقاء ببعض هذه العناصر السودانية خصوصا تلك التي تقصد الحج فرصة للتحقّق

---

[1] المقريزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تح ، جمال الدين الشيال ، بور سعيد ، مكتبة الثقافة الدينية ، 2000م ، ص 143.

[2] ذكر ابن كثير أن عددهم وصل إلى 20 ألفا انظر :ابن كثير ، البداية والنهاية ،تح ، علي شيري ، دار إحياء التراث العربي ،1988 م ، ج14 ،ص 129. وقدّر المقريزي عدد الجواري في هذا الركب بأربعة عشر ألف جارية . المقريزي ، الذهب المسبوك ص 143. واكتفى الذهبي بالقول بأنه حجّ في ألوف من قومه ، انظر : الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، تح ، محمد السعيد زغلول ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1985، ج4 ، ص 67.

[3] يقول ابن خلدون " ... ولقيه السلطان بمجلسه وحدّثه ووصله وزوّده وقرّب إليه الخيل والهجن وبعث معه الأمراء يقومون بخدمته إلى أن قضى فرضه سنة أربع وعشرين ورجع ..." ابن خلدون ، التاريخ ، ج5 ، ص 495.

[4] اصطحب السلطان منسا موسى معه من حجه شاعر الأندلس أبو إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف بالطويجق وصحبه إلى بلاده ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6 ، ص 267.

من صحة هذه الأخبار أو عدمها ، وهذا ما نجده عند ابن خلدون الذي حقّق جملة من الأخبار من خلال حديثه مع "الشيخ عثمان" فقيه أهل غانة[1] ، الذي التقى به في مصر قاصدا للحج إلى بيت الله .

ب- رحلات العلماء والفقهاء من وإلى المنطقة.

تُعتَبَرُ هذه النقطة من بين النقاط المهّمة في تحقيق المعرفة خاصة وأن هذا النوع من عمليات التواصل يتم على المستوى الراقي بين هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يحسبون على طائفة العلماء والفقهاء .

في الفترة الأولى من عملية التواصل نشهد هجرة رأسية للعلماء من الشمال إلى الجنوب، وذلك بسبب حاجة هذه الأقوام إلى العلماء وحاجتهم لفهم هذا الدين وشرائعه وتعلّم القرآن وغيرها من المسائل المتعلّقة بإقامة هذا الدين فنجد أن من بين ملوك السودان من اصطحب معه – بعد أن فرغ من أداء مناسك الحج– بعض المهندسين أو الشعراء إلى بلاده وهذا بغرض البناء والتّشييد وبعث الثقافة العربية الإسلامية بين أهله ، لكن في المراحل الأخيرة بعد أن استقر الإسلام في نفوس السودانيين بدأت حركة الهجرة والرحلات تعدل الكفة للطرف الثاني فقد خرج السودانيون من بلادهم إلى بلدان المسلمين رغبة في التفقه في الدين فكانت منهم جاليات مهمة في مراكز العلم في الشمال في القيروان وتلمسان وفاس والأزهر وغيرها من المراكز الإسلامية الأخرى وحقق البعض منهم درجات مهمة أهلته ليتصدر حلقات العلم في بلاد المسلمين أنفسهم[2] فهذا الأمر من شأنه أن يدفع بهذه المجتمعات حديثة العهد بالإسلام إلى اندماج أكبر في بلاد المسلمين ويزيد من تحقيق فرص التواصل

من بين النماذج التي حفظتها لنا المصنفات العربية ما ذكره المقري في ترجمته لأبي إسحاق الساحلي المعروف بالطويجن من أهل غرناطة ارتحل عنها إلى المشرق فحج ثم سار إلى بلاد السودان فاستوطنها ونال جاها مكينا وتوفي

---

[1] ابن خلدون ، التاريخ ،ج6، ص 266، وتقصّى الفقيه العلّامة أبو الرّوح عيسى الزّواويّ بعض الأخبار عن هذه المناطق من منسا موسى نفسه. انظر : العمري ، مسالك الأبصار ، ج4 ، ص 126.

[2] على سبيل المثال : القاضي محمود كعت (1002هـ/1593م) العالِم السوداني المشهور الذي انتقل إلى مصر والحجاز وحصّل العلم هناك ، جلس للتدريس مدة سنتين في أحد مساجد المغرب الأقصى بخصوص ترجمة هذه الشخصية أنظر : عبد القادر زبادية ، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ،2010، ص ص 122- 125 .

بتمبكتو سنة 747هـ[1] وابن خلدون يذكر بأن هذه الشخصية صحبت منسا موسى في عودته إلى بلاده من الحج [2] كما نجد أيضا الشيخ أبو عثمان سعيد الدكالي الذي أقام بمالي خمسا وثلاثين سنة [3] والقاضي الثقة محمد بن وانسول من أهل سجلماسة وكان ممن استوطن كوكو ولي القضاء بها [4] وفي نهاية فترة الدراسة يبرز لنا هجرة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي [5] وأما الرحلات التي خرجت من بلاد السودان إلى الشمال فيقف أمامنا نموذج رحلة فريد متمثلة في الشاعر الكانمي [6] ،وكذا القاضي "أبو عمرو عثمان بن موسى الجاني" منسوب لبطن من بطون السودان ، تردّد إلى أرض مصر فقرأ بها [7] ، أما أهم هؤلاء العلماء فهو الشيخ "أحمد بابا التمبكتي" الذي أُجلي إلى بلاد المغرب بعد الغزو المغربي لبلاد السودان، ودرّس بها .

تشهد هذه الاتصالات على عمق الصلات المغربية السودانية وهي صلات من المستوى الراقي بين العلماء و الفقهاء وكل هذا الأمر سيزيد من تعميق العلاقات بين بلدان المسلمين وبلاد السودان كون أنه يعمل على محو الفوارق الدينية واللغوية والثقافية بين هذه الأجناس المختلفة .

---

[1] المقري ، نفح الطيب ، ص 194.وانظر : شهاب الدين العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تح ، محمد عبد المعيد ضان ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، 1982، ج1، ص 60.

[2] ابن خلدون ، التاريخ ،ج 6 ، ص 267 ، وكذا الناصري ، الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، ج 3 ،ص 152.

[3] العمري ، مسالك الأبصار ، ج4 ،ص 109.

[4] ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 6 ،ص 269.

[5] محمد بن عبد الكريم المغيلي توفي عام 909هـ/ 1504م من قبيلة مغيلة في نواحي تلمسان ، انتقل إلى توات ثم إلى بلاد السودان واجتمع بسلطان كنو وكتب له أمورا في السلطنة وعلمهم أحكام الشرع وقواعده ثم ارتحل إلى بلاد التكرور واجتمع بسلطانها أسقيا الحاج محمد له عدة مؤلفات ورسائل مثل : شرح مختصر خليل وأجوبة على أسئلة الأسقيا محمد عاد في أواخر عمره إلى توات فأدركته المنية بها ستة تسع وتسعمائة . بخصوص ترجمة هذه الشخصية أنظر : عبد القادر زبادية ، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء ، ص ص 130- 134 .

[6] عن ترجمة هذه الشخصية أنظر: الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج 6 ، ص 109 والناصري ، الاستقصا ، ج 5 ،ص103. وانظر : محمد بن شريفة ، إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان ، الرباط ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط ، 1991.

[7] أبو الحسن الأندلسي ، تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) ، ط5، لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ، 1983م ، ص 168.

المبحث الثاني : مساهمة أصناف المصادر الجغرافية في الفترة الزمنية من (5هـ/ 11م، 8هـ/14م) في التعريف ببلاد السودان.

اتّخذت الكتابات الجغرافية في هذه المرحلة الزمنيّة أشكالا متنوعة في طريقة التصنيف ، منها ما كان يمثّل استمرارية لمناهج الفترة السابقة من الدراسة ، ومنها ما تفرّدت به هذه المرحلة الثانية ، فبالإضافة إلى ما نجده من استمرارية للكتابة وفق النمطين السابقين والمتمثلين في المنهجين " **الفلكي**" و"**الوصفي**" فإن خصوصيات المرحلة الجديدة ، والمتمثّلة في الموروث المعرفي المخلَّف عن الفترة السابقة ، ودخول المغاربة مجال التصنيف في العلم الجغرافي ، إلى جانب بعض الظروف السياسية المتعلّقة بالأخطار المحدقة بالعالم الإسلامي خاصة ما تمثّل في الحروب الصليبيّة ، والغزو المغولي في جهته الشرقيّة ،كلها عوامل دفعت إلى ظهور واستحداث مناهج جديدة ،كان لها دور مهمّ في حفظ مادة وصفية وخبرية جديدة متعلّقة ببلاد السودان [1] ، أو على الأقل ساهمت في إعادة تشكيل المعارف السابقة وفق أنماط كتابيّة جديدة ، وهو ما يدعونا إلى طرح التساؤل التالي : ما هي هذه المناهج ؟ ولماذا هذا التّغيير ؟ وكيف انعكس التّصنيف وفق هذه المناهج على تحقيق المعرفة عن بلاد السودان ؟

يُمكننا أن نميّز في مجموع الكتابات الجغرافية في هذه المرحلة الزمنية أربعة أنماط مختلفة ، يتفرّد كل نمط منها بمجموعة من الخصائص في طريقة معالجته للمواضيع المتّعلقة بالوصف الجغرافي للعالم المأهول بصفة عامة , وبوصف بلاد السودان بصفة خاصة ، وسنحاول ضمن هذا المبحث توزيع مصنفات هذه الفترة على هذه المناهج الأربعة موضحين أثرها في الدفع بالمعارف العربية للازدهار عن هذه المناطق .

لقد توزّعت مصادر هذه الفترة على المناهج التالية :

[1] بخصوص الأنماط الجديدة المُعتمدة في الكتابات الجغرافية في هذه الفترة الثانية المخصصة للدراسة ، انظر الملحق رقم :10 .

أ –**المنهج الجغرافي الوصفي :**

استمرّ التأليف في المجال الجغرافي في هذه المرحلة وفق الأنماط التي تطرّقنا إليها في الفصل الأول والمتمثّلة في "المنهج الإقليمي الوصفي" و"المنهج الفلكي " ولكن الملاحظ على كتابات هذا المنهج في هذه المرحلة الجديدة أنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

أ - 1 – **منهج وصفي بلداني :**

ويبدو هذا المنهج واضحا في ما كتبه الجغرافي الأندلسي أبو عبيدة البكري ، ممثّلا في " **المسالك والممالك** " وهو عبارة عن موسوعة ضخمة ، لم يبق منها إلا الجزء المعنون بـــ " **المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** "[1] بالإضافة إلى صاحب كتاب " **الاستبصار في عجائب الأمصار** " .ويتميّز هذان المصنّفان عن غيرهما من الكتابات الجغرافية في هذه المرحلة باقتصارهما على الوصف الجغرافي ، وتغييبهما للمنهج الفلكي المتضمّن تحديد المكان وفق خطوط الطول ، ودوائر العرض الذي شاع في الكتابات السابقة .

إن المُطّلع على مصنَّف البكري ذي العنوان الكلاسيكي" المسالك والممالك " ، يتبادر إلى ذهنه منذ الوهلة الأولى أن هذا التأليف ما هو إلا استمرارية للمدرسة الكلاسيكية [2] التي تحمل مؤلفاتها نفس عنوان مؤلَّف البكري " كالبلخي والأصطخري وابن حوقل " ولكنّ نظرة فاحصة للكتاب تبيِّن لنا التّمايز الواضح بين هذين النمطين التأليفيين ، فبينما يمثّل هؤلاء المصنّفون المدرسة المشرقية التي أقصت بلاد السودان من منهجها الدراسي ، فإن ما كتبه البكري يعدّ مغايرا لذلك ، فقد أسّس لمدرسة مغربيّة في الكتابة الجغرافية ، أخذت فيه بلاد السودان اهتمام ا خاصا ، انعكس على ما تمّ إدراجه في هذه المصنّفات من معلومات تخص هذا المكان الجغرافي ، فكتاب البكري لا يشبه أيَّ كتاب آخر من نفس الفن رغم تداول هذا الاسم في الأدب العربي ، فليس هو مجرّد سرد للمسالك كما هو شأن كتاب "ابن خرداذبه" ، ولا هو مجموعة مُلَحٍ وغرائب وأساطير من دون تنظيم مثل كتاب البلدان لابن الفقيه ، ولا هو أيضا حوصلة لرحلات كاتبه مثلما هو الشأن بالنسبة إلى المقدسي والأصطخري ، ولا يصحّ أن يصنَّف كتاب ا لمسالك

[1] البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، القاهرة ، دار الكتاب الإسلامي ، نشر الماريشال كومت راندون .

[2] المدرسة الكلاسيكية : مصطلح استعمله كراتشكوفسكي ليدلّل به على مجموع كتابات : البلخي ،الأصطخري ، ابن حوقل ، المقدسي . كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج1 ، ص ص 197- 215.

والممالك للبكري في فنّ العجائب , ولا في نوع كتب الهيئة , وإنما يجمع كتاب البكري كل ذلك ، فتتوالى فيه المسالك ، ووصف البلدان ،والشعوب ، والمدن , وتمتزج بالمُلَحِ والأساطير والاستطرادات التاريخية ما يُبقي انتباه القارئ دائم اليقظة[1].

وأما المصنَّف الثاني فهو كتاب " **الاستبصار في عجائب الأمصار** " ، وعلى الرغم من إقرار محقّق هذا الكتاب من صعوبة إلحاق هذا المصنّف إلى أحد فروع العلم الجغرافي العربي من كتب الأطوال والعروض ، أوكتب تقويم البلدان ، أوكتب المسالك والممالك ، أو كتب العجائب [2] وهذا الأمر صحيح إذا تعاملنا مع الكتاب على شكله الكامل ، لكن إذا أقصرنا نظرتنا على الجزء المخصّص لبلاد السودان المقصودة بالدراسة ، فإنه حينها يمكن أن نُلحِق هذا المصنَّف بكتب المسالك والممالك من دون تردّد ، نظرا للتشابه الكبير بين مادة هذا الجزء من الكتاب ، وبين ما ورد في بقية كتب المسالك والممالك , ويعود سبب هذا إلى أن جزءا كبيرا من مادة كتاب "الاستبصار" جاءت عن نقولات من "كتاب المسالك والممالك " للبكري الذي يقتصر في عرضه على الجغرافيا الوصفية وحدها [3].

اختلف منهج هذه المرحلة عمّا كان عليه في الفترة السابقة ، وغابت فيه الخرائط التوضيحية ، ليست تلك المتعلقة ببلاد السودان فحسب ، بل إن غياب الخرائط كان من الأمور المميِّزة لكتابات هذا المنهج , ولكن على الرغم من ذلك ، فإن هذا لا يقلّل من أهمية هذه الكتابات ، إذ أنها تُعتبر الأهمّ إلى غاية هذه الفترة وتشكّل مع كتابات الإدريسي المتأخرة عنها ، قمّة المعارف العربية عن بلاد السودان ، بحيث أنها كتابات جديدة ،والمعلومات الواردة فيها ، لم تكن معروفة من قبل ، وما جاء من كتابات بعد هذه المرحلة غالبه عبارة فقط عن إعادة تجميع وترتيب للمادة المحصّلة من هذه الفترة .

أ - **2- منهج وصفي إقليمي** : وفيه نموذجان :

---

[1] البكري ، المسالك والممالك ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، 1992 م ،ج1 ص 13.

[2] مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، ، نشر وتعليق ، سعد زغلول عبد الحميد ، العراق ، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) ، 1986، ص ث .

[3] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ج1 ، ص 301.

أ -**1** : ويمثل هذه النموذج الأول كل من الزهري صاحب كتاب " **الجغرافية** " ، والإدريسي صاحب كتاب " **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** " وعند أصحاب هذه المدرسة يتقارب المنهجان الوصفي والفلكي مع أسبقية واضحة للمنهج الوصفي ، ومعنى هذا أن يُغلّب الوصف بالتعبير الأدبي على استعمال الرموز الرياضية التي تشتهر بها الجغرافيا الفلكية ، ويعتمد أصحاب هذا المدرسة في وصف العالم على تقسيمه إلى سبعة أقاليم ، تتباين نظرة كل منهما إليها ،فهي عند الزهري ستة أقاليم تحيط بإقليم سابع يقع في مركزها وينقسم كل إقليم منها إلى ثلاثة أقسام [1] وتحتل بلاد السودان في هذا التقسيم ، الإقليم السابع الذي جمع فيه الزهري أخبار كل من بلاد السودان وأرض الحبشة والزنج والنوبة [2] ، وأما الأقاليم عند الإدريسي ، فهي عبارة عن سبعة أقاليم على شكل خطوط متوازية ، تمتد من المغرب إلى المشرق ابتداء من شمال خط الاستواء ، والإدريسي يقسّم كل إقليم إلى عشرة أجزاء ، ويصف كل جزء منها على حدة [3]، ويُفرد له خريطة خاصة به ، وبلاد السودان المقصودة من دراستنا تتوزّع في الأجزاء الثلاثة الأولى في كل من الإقليمين الأول والثاني ، وكذلك نجد بعض الإشارات إلى هذه المنطقة في الإقليم الرابع خاصة في الجزء الأول منه الذي خُصّص للحديث عن صنهاجة الصحراء .

تتصدّر كتابات هذه المرحلة علم الكارتوغرافية العربية ، وتُمثّل المرحلة الثالثة لصنع الخرائط الجغرافية العربية ، وهي المرحلة التي يمثّلها الجغرافي العربي الشريف الإدريسي ، وتبدو في هذه الخريطة العناية بالجغرافية الرياضية ،كما أن الرسم فيها تتسع دائرته فلا يقتصر على إقليم من الأرض أو على مجموع الأقطار الإسلامية ، بل يمتدّ ليشمل كل العالم المعروف في زمانه [4] ، وبخصوص موقع بلاد السودان ، فقد حدّده الإدريسي جنوب بلاد المغرب وعيّن عليه منابع نهر

---

[1] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ج 1 ، ص 279. والتقسيم الإقليمي عند الزهري يعتمد على الاعتدال ، فالإقليم الأول أحسن من الثاني والثاني أحسن الثالث وهكذا .....الزهري ، الجغرافية ، ص ص10-11.

[2] بخصوص طريقة تمثيل الزهري للأقاليم أنظر الملحق رقم : 11 .

[3] بخصوص طريقة تمثيل الإدريسي للأقاليم أنظر الملحق رقم : 12 الشكل رقم 01 .

[4] محمد عبد الغني حسن ، الشريف الإدريسي أشهر جغرافيي العرب والإسلام ، القاهرة ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، 1971، ص ص 85- 86 .

النيل بجبال القمر حتى مصبه في البحر المتوسط بصورة مشابهة للوقت الحاضر ، وحدّد مواقع الواحات غرب النيل والصعيد والنوبة والحبشة وفزان وبلاد غانه بمواقعها الجغرافية الصحيحة [1] .

وتبقى من بين سلبيات هذا المنهج أنه أحيانا يجعل منطقة واحدة يتوزّع وصفها بين إقليمين مختلفين مما يجعل وصفها متقطعا وغير كامل ،كما هو الشأن مع مملكة غانة التي نجدها تتوزع في كل من الإقليمين الأول والثاني .

أ – **2** : ويمثّل هذا النموذج كل من ابن سعيد صاحب كتاب " **الجغرافيا** " ، وأبو الفداء صاحب كتاب " **تقويم البلدان** "،ويظهر التأثر بالمنهج الفلكي واضحا في كتابات أصحاب هذه المدرسة ، إذ تتركّز عملية الوصف الجغرافي بشكل أساسي على استعمال الرموز الرّياضية لتحديد إحداثيات المكان المقصود بالوصف، ثم يليها بعد ذلك الوصف اللّغوي ، فابن سعيد اعتمد في وصفه للعالم على تقسيمه بنفس طريقة تقسيم الإدريسي إلى سبعة أقاليم ، ثم تقسيم الإقليم الواحد إلى عشرة أجزاء ، وقد أضاف ابن سعيد زيادة على أقاليم الإدريسي السبعة ، إقليمين آخرين أولها سمّاه بـــ" المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب" والثاني سماه بـــ" المعمور في شمالي الأقاليم السبعة "[2] ، وهو ما يعكس تقدّم المعرفة العربية بالعالم المأهول ، وتتوزّع بلاد السودان في هذا التقسيم على الجزأين الأول والثاني من الإقليم المعمور خلف خط الاستواء ، وكذا في الأجزاء الثلاثة الأولى من الإقليمين الأول والثاني ، والخاصية المميّزة لكتابات هذه الفترة الجديدة ، هو ذلك التقارب الواضح بين المنهجين الفلكي والوصفي في الكتابة الجغرافية ، وهو الأمر الذي سعى إليه أصحاب هذه المصنفات أملا منهم في الوصول بالمعلومة إلى درجات أعلى من الدّقة ، فكان الاعتماد على المنهج الفلكي السابق باستعمال الحسابات الرياضية والمتمثّلة في التحديد الجغرافي وفق خطوط الطول ودوائر العرض كدرجة أولى ، يصحبها بعد ذلك وصف لهذا المكان وما يتعلّق به على قدر ما توفَّرَ للمصنِّف من معلومات عن هذه المنطقة .

وأما أبو الفداء وابن سعيد فالتشابه واضح بين مؤلَّفيْهِما ، خاصة إذا علمنا أن مصنَّف "الجغرافيا" لابن سعيد كان أهم مصدر اعتمده أبو الفداء في وضع مؤلَّفه " تقويم البلدان " ، غير أن الاختلاف بين المصنِّفين يكمُن في تقسيم المعمور من الأرض ، فأبو الفداء خالف ابن سعيد وأهمل فكرة تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم ، فالإقليم عنده هو الجزء

[1] أحمد الخفاف ، دراسات في التراث الجغرافي العربي الإسلامي ، ص ص 21 – 23 .

[2] لتوضيح طريقة ابن سعيد في تمثيل الأقاليم .أنظر الملحق رقم : 12 الشكل رقم 02 .

الذي تتشابه فيه بعض خصائص سطح الأرض [1] ،وعليه فقد قسّم الأرض إلى ثمانية وعشرين إقليما ، تحتّل فيه بلاد السودان الجزء الرابع ، وأرفق كل إقليم من هذه الأقاليم بجداول فلكية تبيّن اسم المكان الجغرافي المحدّد ، والإقليم الذي تقع فيه ، ثم تحديد هذا المكان وفق خطي الطول والعرض ، وهو يجمع في ذلك بين الوصف الأدبي الذي اعتمده ابن سعيد والرموز الرياضية للدلالة على ذلك .

ب – المعاجم الجغرافية :

يُعتبر هذا النوع من التصانيف من بين أحد الخصائص المميّزة لهذه الفترة الزمنيّة المقصودة بالدراسة ، وهي تمثّل تعبيرا صريحا عن فكر جغرافي عربي أصيل ، إذ أنه لم يُعرف وأن ظهر هذا النوع من التأليف عند الحضارات الأخرى ، فالعرب كان لهم فضل الريادة في استحداث هذه الطريقة الجديدة في التصنيف .

ويُمثّل "معجم ما استعجم" للبكري أول مُصنَّف جغرافي في الحضارة العربية الإسلامية ، ولكنه معجم لا يُفيدنا عن بلاد السودان في شيء على الرغم من حجم المعلومات التي امتلكها البكري عن هذا المكان الجغرافي , فقد خصّصه فقط لذكر ما يتعلّق بالجزيرة العربية خاصة تلك المواضع المذكورة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة .

لقد دعت مجموعة متنوّعة من العوامل إلى استحداث هذا النمط الجديد في الكتابة الجغرافية ، فالقرن السادس هجري الموافق للقرن الثاني عشر ميلادي الذي شهد أخطارا مُحدقة بالعالم الإسلامي نتيج ة للاجتياح المغولي ، أدى إلى رغبة جامحة وضع وضع مصنَّف عام يجمع شتات المادة الجغرافية المتفرّقة في بقيّة الكتب المؤلّفة ،كما أن انتشار الكتب والمدوّنات , واشتهار أسماء كثير من المواضع وتداخلها ,كان مدعاة لذلك ، وقد عبّر البكري عن هذه الحقيقة التي دفعته إلى وضع مصنفه قائلا " فإني لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس, أردت أن أفصح عنه , بأن أذكر كل موضع مُبيَّن البناء , معجم الحروف , حتى لا يدرك فيه لبس ولا تحريف ... ، وما أكثر المُؤْتلف والمختلف في أسماء هذه المواضع مثل : ناعجة وباعجة , وبنثل وثيتل , ونخلة ونخلة , وساية وشاية [2]...الخ , وأما ياقوت الحموي فيُرجع سبب تأليفه لمعجمه إلى أنه سئل بَمرْو الشاهجان[3] عن "حباشة " اسم موضع جاء في الحديث النبوي وهو سوق من أسواق

---

[1] أحمد الخفاف ، دراسات في التراث الجغرافي العربي الإسلامي ، ص 88.

[2] البكري ، معجم ما استعجم ، ص 01 .

[3] مرو الشاهجان : أشهر مدن خراسان وقصبتها ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، 1977، مج 05، ص 112.

العرب في الجاهلية فقال : أرى أنها "حُباشة " بضم الحاء قياسا على أصل هذه اللفظة في اللّغة ، لأن الحُباشة الجماعة من الناس من قبائل شتّى ، فانبرى له رجل من المحدّثين وقال : إنما هو "حَباشة "بفتح الحاء وصمّم على ذلك وكابر وجاهر بالعناد من غير حجة , فأراد ياقوت أن يقطع هذا بالعودة إلى النقل ، فلم يظفر بذلك إلا بعد انقضاء ذلك الشغب على الرغم من وفرة الكتب وقتها ، فكان هذا دافعا له لوضع معجم يضبط فيه أسماء المواضع والأماكن مضبوطة بالإتقان وتصحيح الألفاظ ويكون مرشدا لم اختلفت عليه الأسماء [1].

هذا النوع من المصنّفات على الرغم من أهميتها ، إلا أن ما يُعاب عليها هو كونها عبارة عن إعادة تجميع لجهد السابقين ، وهو ما نجده فعلا في الإحالات الكثيرة لأصحاب هذا النوع من المصنّفات إلى مصادرهم في المعلومة ، إذ أنها تعبّر بحال من الأحوال عن تراجع واضح للفكر الجغرافي تنعدم معه صفه الخلق والتّجديد المعرفي .

حُفظت لنا في فترة الدراسة ثلاثة معاجم جغرافية جُمعت فيها معلومات مُهمّة تتعلّق ببلاد السودان مستوحاة من المصادر السابقة ، فقد رتّب ياقوت الحموي مادته على حروف المعجم [2] ، وبالتالي فالمعلومات المتعلّقة ببلاد السودان جاءت موزّعة عنده على كل الكتاب ما يجعل مهمّة استقصائها صعبة ، وقد خُصّص لكل موضع جغرافي فقرة فيها اسم المكان وشكل كتابته ولفظه واشتقاق الكلمة وأشكال النسبة التي قد تُشتقّ منها، وبعدها ينتقل إلى تفصيل الحديث عن الموضع : كدرجة عرضه ، وطوله ، والمؤثّرات التّنجيمية التي تُهيمن على مقادير الناس فيه ، ويذكر عند الكلام عن منطقة واسعة خصائص طبيعتها ومواردها الطبيعية وعمرانها بالناس ، وموجَزا لأهمّ الأحداث التي شهدها هذا المكان [3] .

وأما المعجم الثاني فهو معجم أبو زكريا القزويني المعروف بـــ " **آثار البلاد وأخبار العباد** " ، فقد حفظ لنا هذا المؤلف بدوره مادّة مهّمة تخصّ أقاليم بلاد السودان ، ومن مزايا هذا المعجم هي تسهيله الوصول إلى المعلومة

---

[1] ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مج1، ص 10.

[2] الترتيب كان على الشكل التالي : ا،ب،ت،ث،ج،ح،خ،د،ذ،ر،ز،س،ش،ص،ض،ط،ظ، ع، غ،ف،ق،ك،ل،م،ن،و،هـــ،ي وهو ترتيب مشرقي يشترك فيه معجمي ياقوت الحموي ومعجم القزويني ، أما معجم الحميري المغربي فعلى الرغم من ترتيبه على النحو المشرقي فإنه داخل الحرف الواحد يتبع الترتيب المغربي للحروف على النحو التالي : أ،ب،ت،ث،ج،ح،خ،د،ذ،ر،ز،ط،ظ،ك،ل،م،ن،ص،ض، ع، غ، ف،ق،س،ش،هـــ ،و،ي.وربما يعود هذا كما أشار إلى ذلك إحسان عباس محقّق معجم الحميري إلى هذا النساخ المشارقة هم من أعاد ترتيب المعجم وفق الترتيب المشرقي ، الحميري ، الروض المعطار ، ص ن .

[3] عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، ص 450.

المتعلّقة بالمكان الجغرافي المراد البحث عنه ، فهو يقسّم العالم إلى سبعة أقاليم , ثم يذكر المواضع الجغرافية لكل إقليم مرتبة لوحدها وفق حروف المعجم ما يجعل مادة بلاد السودان يقتصر وجودها في الإقليم الأول .

وأما المعجم الثالث والأخير في هذه الفترة فهو معجم الحميري المُعنون بـــ " **الروض المعطار في خبر الأقطار** " ، وبحكم التأخّر الزّمني لصاحب هذا المعجم , فقد توفّر له من المعلومات التي أودعها في معجمه ما لم يتوفّر لغيره ، ومعجمه مرتّب على حروف المعجم ليسهّل مهمّة كشف اسم الموضع المراد الكشف عنه ، وقد وضع الحميري نصب عينيه شروطا لذكر المواقع الجغرافية ، وهي أن يكون هذا المكان مشهورا ، وأن يكون ممّا اتصلت به قصّة أو حكمة أو خبر طريف أو معنى مستملح مستغرب [1] ، فبالنظر إلى الحجم الكبير للمعلومات التي أوردها هذا المصنِّف عن بلاد السودان يجعلنا هذا الأمر نصل إلى نتيجة مفادها أن هذه المنطقة لم تبق بالغموض الذي كانت عليه في السابق ، بل وقد توفّرت فيها الشروط التي وضعها الحميري في الذكر من اتصال هذه المناطق بقصة أو حكمة أو خبر طريف أو معنى مستملح مستغرب.

ج- الموسوعات الكبرى :

قد كان هذا النوع من التأليف أهم الآثار الكتابية للقرن الثامن هجري (الرابع عشر الميلادي) [2] ، فعلى إثر الغزو المغولي وتحطيم بغداد وتخريب مكتباتها ، انتقل مركز الإشعاع الفكري الإسلامي نحو الغرب ، نحو دمشق وحلب ثم استقر أخيرا في القاهرة [3] ، وقد تميزت بها فترة حكم المماليك في مصر والشام ، وهي عبارة عن موسوعات ضخمة تتميّز بالإحاطة والشمول , وقد اهتم المؤلفون في هذه الفترة بإخراج كتب تشمل اللغة والأدب والجغرافية والتاريخ وأصول الشرع والإدارة وقواعد المخاطبات السلطانية وغير ذلك مما يحتاجه أرباب الدواوين وأصحاب الوظائف والعمال ، وقد وصلت إلينا ثلاثة كتب من هذا النوع هي "نهاية الأرب في فنون الأدب " للنويري , و"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " لابن فضل الله العمري ، "وصبح الأعشى في صناعة الإنشا " للقلقشندي [4] , فهذه الموسوعات بلا

---

[1] الحميري ، الروض المعطار ، ص م .

[2] شاكر خصباك ، الجغرافيا عند العرب ، ص 13.

[3] محمد السيد غلاب ، << الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي >> ، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول ، ص 146.

[4] نيقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص 94.

شك أوسع مجالا من الناحية المعرفية من المؤلفات السابقة لها ، كما أنها كانت تعالج مسائل أعم وأكثر شمولا في جميع فروع العلم التي يريد المؤلف أن يُعرِّف بها ، ولا تقف أهميتها عند حدّ الجغرافيا وحدها ، بل إنها بنفس القدر تولي اهتماما أيضا إلى التاريخ والحضارة [1] .

حظيت بلاد السودان ضمن هذه الموسوعات بنصيب مهّم لم تحظ به في أي منهج كتابي آخر ، بل وإن ومن بين هؤلاء المصنفين الثلاثة من كان أعظم ما كتبه عن بلاد السودان مثل ما فعله العمري ،فقد أفرد في الجزء الرابع من موسوعته لمنطقة جنوب الصحراء ثلاثة أبواب أحدها مخصّص لمملكة مالي فقط ، ما يدل على وضع جديد يعكس تطور المعرفة عن هذه المنطقة ، والقلقشندي قسّم ممالك هذه المنطقة إلى ستة ممالك [2] ، في حين توزعت المعلومات عن بلاد السودان عند النويري على طول الموسوعة .

لقد توفرت لهؤلاء المصنفين مجموعة من العوامل التي مكّنتهم من احتلال الصدارة من بين باقي المصنفات التي كُتبت عن بلاد السودان ، فأول الأمور تتعلّق بالتّأخر الزّمني لهؤلاء المصنّفين ، إلى جانب عملهم في الدواوين ، ما مكّنهم من الإطلاع على أعمال السابقين , فكانت مؤلفاتهم عبارة عن تجميع للمعلومات السابقة ، بالإضافة إلى بعض الابتكار والتجديد في المعلومات والذي تحقّق نتيجة الإطلاع على رسائل الدواوين والمكاتبات بين الملوك ، هذا إلى جانب أهمية المكان فقد كانت مصر معبرا لقوافل الحج السودانية ما جعلها محطة مهمّة توفّر زادا معرفيا متجدّدا .

د – الرحلات :

يُعتبر هذا النوع من التّصانيف أحد الأمور الأساسية للعلم الجغرافي ، وإن كانت الرحلة قد شاعت لدى العرب منذ البدايات الأولى في الكتابة الجغرافية ، " فما كتبه الرحالة المسلمون فيما بين القرنين الثالث والتاسع بعد الهجرة ، (التاسع والخامس بعد الميلاد) عن الرحلات كثيرة جدا , ولكن المعروف أن الرحالة لم يكتبوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادرا ، أما معظمهم فقد أدمجوا تلك الرحلات فيما صنّفوه من كتب التاريخ أو كتب تقويم البلدان[3] ، وتأخذ الرحلة في الأدب الجغرافي العربي مجموعة متعدّدة من الأشكال ، فهي تمثّل في جوهرها انطباعات عن

---

[1] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، ص 405.

[2] القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح ، يوسف علي طويل ، دمشق ، دار الفكر ، 1987.

[3] أحمد رمضان أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربي ، ص 49 .

سنوات التّجوال للعلماء الشّبان [1] , وتختلف أغراض الرحلات ، فالكتب المتبقّية لدينا تشير إلى أن الدافع الديني كان وراء كتابة كثير من المشاركين في هذا الميدان ، فقد كان الحج إلى مكّة وزيارة قبر الرسول عليه السلام في المدينة وراء وصف كثير من هؤلاء الحجاج طريقهم إلى الأماكن المقدسة [2] ، وليس أدلّ على هذا من تلك الرحلة التي قام بها ابن جبير [3] ، والتيجاني [4] وهذه الرحلات قليلا ما تشير إلى بلاد السودان ، بل إن الأمر من الندرة بما كان ، وذلك لسبب رئيسي وهو أن هذه المنطقة بعيدة عن محطات و طرق الحج التي يسلكها الحجاج ، لكن هذا الغياب عُوّض في نموذج آخر من كتب الرحلة , وهي تلك المتعلّقة بأغراض النزهة وحب الاستطلاع أو ما يطلق عليه البعض [5] بالرحلة التكليفية بمعنى أن يكلف الحاكم واحدا من كُتّابه بمهمة رسمية يجوب فيها الآفاق [6] , ويكون وصف الرحلة أحيانا قصة ممتازة يُسجّل فيها صاحبها كل ما رآه أو ما هو جدير بالاهتمام " [7] ، وفي هذا الإطار تبرز أمامنا رحلة ابن بطوطة التي تميّزت تميّزت عن غيرها من الرحلات في وصف بلاد السودان ، فبينما تغيب هذه المنطقة في باقي كتب الرحلات ، فإن رحلة ابن بطوطة تسجّل لنا نموذجا فريدا في وصف بلاد السودان، فابن بطوطة لا يدخل بلدا إلا وصف منازله ، ودوره ، ومواد بناءه ، ولا يفوته أن يصف الهيئة العامة للبلد من ضيق في الشوارع أو اتساع في الدور ، ومن نظافة أو قلة عناية ، وهو حريص كذلك على أن يصف كل طعام أكله في كل بقعة زارها , وهو لا يكتفي بالذكر بل يصف لنا كيف يصنع هذا الصنف أو ذلك ، ومم يصنع ؟ وكيف يقدم ؟[8] .

---

[1] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، ص 298.

[2] سيد حامد النساج ، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا ، القاهرة ، دار غريب ، ص11.

[3] كتاب رحلة ابن جبير المعروف باسم " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" الذي كتبه مؤلفه حوالي سنة (582هـ، 1186م) وهي عبارة عن رحلة حج دامت سنتين دوّن فيها ابن جبير مشاهداته وملاحظاته . انظر: ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، لبنان ، دار الكتاب اللبناني .

[4] هي رحلة قام لها "ابن جبير" لأداء مناسك الحج استغرقته هذه الرحلة قرابة ثلاث سنوات يتجول ويجمع المعلومات الجغرافية والتاريخية عن البلاد التي مر بها ودون ذلك كله في كتابه رحلة التيجاني ، عبد الله الدفاع ، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية ، ص213.

[5] سيد حامد النساج ، المرجع السابق ، ص 12.

[6] نفسه ، ص 12.

[7] كراتشكوفسكي ، المرجع السابق ،ج1، ص 298.

[8] حسين مؤنس ، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل ، القاهرة ، دار المعارف ،1980، ص 239.

وعلى الرغم مما يؤخذ على رحلة ابن بطوطة في اعتمادها بشكل واضح على الطابع الأسطوري العجائبي ما جعل البعض من أصحاب المصادر التاريخية يقف منها موقف المتشكك كابن خلدون [1]، ولسان الدين ابن الخطيب [2] اللذين عاصرا ابن بطوطة ، إلى جانب التّدخلات المتكرّرة لابن جزي كاتب هذه الرحلة [3] والذي أضاف وعدّل في بعض أجزاء الرحلة ، ولكن على الرغم من هذا ، فإن رحلة ابن بطوطة تبقى من بين أهم المصادر المتعلّقة ببلاد السودان الذي لم يحظ بزيارة مماثلة لهذه الرحلة إلا بعد أكثر من قرن من ذلك ، عندما زارها الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي .

المبحث الثالث: مصادر أخبار جغرافيي الرحلة الثانية عن بلاد السودان:

تعكس لنا هذه المرحلة تطورا واضحا في مسار الرواية التاريخية والجغرافية المتعلّقة ببلاد السودان ، وهو تطوّر صاحَبه تعدّد في مصادر الأخبار ، فعلى عكس الفترة السابقة التي لم يكن يتوفّر للجغرافيين ما يستندون إليه سواء في جمع المعلومات عن بلاد السودان ، أو على الأقل تحقيق صدقَها من خطئها ، فإن المرحلة الجديدة امتازت بالثّراء والتنوع بفضل ما تُمدُّنا به من أخبار ، وهي مرحلة أنتج فيها الجغرافيون والمؤرخون أعمالا علمية ، تكتسب قيمتها من مشاهدة الأحداث المعاصرة ، وكذلك مما تنقله عن المصادر القديمة المفقودة ، ثم إنه فيما يخص إفريقيا السوداء تبلغ

---

[1] يتضح ذلك فيما أورده ابن خلدون تعليقا على هذا الرحالة بقوله : و ذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق و تقلب في بلاد العراق و اليمن و الهند... وكان يحدث عن شأن رحلته و ما رأى من العجائب بممالك الأرض... فتناحى الناس بتكذيبه و لقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن و أريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه ...ابن خلدون ، التاريخ ، ج 1، ص ص 227-228.

[2] يلخّص ابن الخطيب حكمه عن ابن بطوطة بقوله " ... وأحاديثه في الغرابة أبعد من هذا... " ، ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تح ، يوسف علي طويل ، لبنان – بيروت ، دار الكتب العلمية ، 2003 م ، ج3، 206 .

[3] هو محمد بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (721 - 757) غرناطي الأصل، كتب عن السلطان أبي الحجاج يوسف ثم ارتحل ولحق بجناب السلطان أبي عنان، وهو الذي كتب رحلة ابن بطوطة ورتبها انظر ترجمته عند ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ج2، ص ص 163- 171. وعند العسقلاني ،الدرر الكامنة ،ج5، ص ص 428- 429.

معرفتنا الأوج عند ظهور وثائق إفريقية جديدة [1] متمثّلة في المكاتبات والمراسلات بين ملوك بلاد السودان وملوك بلاد المغرب ومصر ، بل وحتى إنّنا نجد في نهاية فترة الدراسة مساهمة السودانيين أنفسهم في كتابة تاريخهم بأنفسهم [2] ، وهو الأمر الذي من شأنه أن يزيد من أصالة الخبر وصدقه ، وتتبعنا لمصادر الأخبار والمعلومات التي كانت تصلنا عن بلاد السودان يدفعنا إلى تقسيمها إلى ثلاث درجات تتفاوت في طبيعتها وأهميتها ومدى وتصويرها للواقع على النحو التالي:

1 معلومات من معاينة ومشاهدة مباشرة : لم يحقّق هذا الامتياز إلا ابن بطوطة الذي كانت له رحلة إلى بلاد السودان ، وقد وقف هذا الرحالة على كثير ممّا ذكره في كتابه باستثناء إشاراته إلى المعلومات ذات الصبغة التاريخية فهو في هذه الحالة ينسبها إلى الأشخاص الذين أخبروه بها ، أما باقي المعلومات الوصفية الآنية فهي من مشاهدات ابن بطوطة ، وليس أدلّ على ذلك مما نجده في التعابير التي أشحن بها رحلته مثل قوله : رأيت ، عاينت ، شاهدت وهو ما يكسبها طابعا مميّزا ذو مصداقية كبيرة .

2 معلومات منقولة من كتب سابقة : استمرت صفة النقل بارزة في مصنفات هذه الفترة ، لكنه أخذ أبعادا أخرى تمثّل في الغزارة والتنوّع وأصبح انتحال كتابات السابقين من الأمور الواضحة في هذه الفترة ، وهو الأمر الذي كانت له انعكاسات سلبية على نوعية المعلومات المذكورة ، إذ أنها نجدها في كثير من الأحيان لا تعبّر عن الواقع الحقيقي" فإن صح أن بعضا من المعلومات كان معاصرا للكاتب ، فإن أجزاء أخرى وإن اُعتُبِرت حقيقة في عصر الكاتب فإنها قد اُستُمِدَّت من تقارير سابقة [3]، ما يجعل المعلومات المقدمة في هذه المصادر لا تعبر عن الواقع الحقيقي زمن المؤلف ، ويكون الحكم عن المعرفة في زمن هذا الكاتب أكثر صعوبة عندما تكون هذه الكتابات عامة لا تحوي أي وسيلة على تقويم الخبر، ومعرفة ما إذا كان الكاتب قد تلقاها من ملاحظته الشخصية ، أم من ملاحظة مباشرة لمعاصر له ، أو هل يروي فقط ما شاع في عصره أو يروي رأي مؤلفين سابقين [4].

---

[1] هـ.جعيط ، << المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر >> ، تاريخ إفريقيا العام ، ج1 ،ص 120.

[2] مثل : المؤلفات التي ألفها سودانيون من أهالي تلك البلاد يرجع أقدمها إلى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي مثل ما كتبه أحمد بابا التنبكتي المتوفى في سنة 1036هـ/1627م وكتاب "تاريخ الفتاش" لمحمود كعت المتوفى سنة 1002هـ/1593م، و"تاريخ السودان" لعبد الرحمن السعدي المتوفى بعد سنة 1065هـ/1655م .

[3] ج.د. فاج ، تطور التدوين التاريخي في أفريقيا ، تاريخ إفريقيا العام ،ج1 ، ص 42.

[4] نفسه ، ج1 ، ص 42.

3 معلومات مضافة نتيجة تقص أصحاب المصادر لها : وتتراوح النسب المعرفية المضافة من مصنف إلى آخر ، فبينما نجد أن البكري والإدريسي وابن بطوطة في نهاية الفترة قد أضافوا الكثير إلى المعارف عن بلاد السودان ، فإن أسماء أخرى كانت جلّ معارفها عبارة عن نقل عن المصادر السابقة ، وكانت مصنفاتها عبارة فقط عن إعادة تجميع وتشكيل ، وأما بخصوص الإضافات المعرفية الجديدة عن بلاد السودان التي نجدها في هذه المصنفات الجغرافية ، فقد تعدّدت مصادرها ، فبينما نجد أن البعض تقصّى هذه أخباره اعتمادا على سؤال التجار أو أشخاص وصلوا إلى المكان ، فإن أسماء أخرى لم تكن تقبل أقل من شهادة رجل فقيه أو تاجر أو موظف موثوق به ، ومنزه عن الزلل واللغو يكون قد ارتاد بلاد السودان أو سمع من السودانيين أنفسهم [1] وسنحاول في هذا المبحث أن نتتّبع مصادر الأخبار عن بلاد السودان عند كل مصنف على حدة ، حتى نكوّن فكرة عن المحدّدين للمعرفة ومصادرهم في ذلك , ونميّزهم عن أولئك الذي كان النقل من المصادر السابقة هدفهم ، و لم يتكلفوا عناء البحث والاستقصاء .

البكري (487هـ/1094م):

شكّلت كتابات البكري عن بلاد السودان نقلة نوعية وتطورا واضحا في مسار الرواية التاريخية المتعلقة بالمنطقة ، فقد احتلت بلاد السودان جانبا مهما في كتاباته ، وشمل وصفه لها مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية تميّزت بالغزارة والتفصيل ، إلى جانب الدقة والوضوح ، ما حقّق لها الريادة بين بقية الكتابات السابقة ." وتمثّل المسالك والممالك للبكري ذروة معرفتنا الجغرافية عن المغرب والسودان " [2] ، ولا شك أن البكري لم يكن ليصل إلى هذه المكانة لولا الجهد الذي بذله في تقصي المعلومة عن بلاد السودان فما هي مصادره في ذلك ؟ وكيف تم له هذا الأمر :

مصادر البكري في الخبر نوعان :

[1] أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 25.

[2] هـ، جعيط ، << المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر >> ، تاريخ إفريقيا العام ، ج1،ص 122.

أ – نقل عن مصادر سابقة :

بالعودة إلى مصنَّف البكري "المسالك والممالك" نجده يشير إلى بعض المصادر السابقة التي اعتمد عليها في وضع كتابه ، وهي تتنوّع بين المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية ، يمكن الافتراض بأنه كان يمتلكها بصورة شخصية ، إذ من المعروف عنه أنه كان يحب الكتب ويروى عنه أنه كان يلفّها في سباني الشرب وغيرها إكراما لها "[1] ، وهذا الحكم ينطبق على عامة الكتاب ، لكن إذا أخذنا الجانب المتعلق ببلاد السودان فحسب ، فإن المصدر الكتابي الذي اعتمده البكري وأشار إليه بصفة مباشرة هو مصنف "المسالك والممالك" لمحمد بن يوسف الوراق ، إذ يُشير إليه في موضعين من الكتاب لهما علاقة ببلاد السودان[2] ، وهذا الموضعان يتعلّقان بنواحي أودغشت ، فإذا اعتمدنا تقسيم البكري في اعتبار أن هذه المدينة لا تتبع لبلاد السودان ، فإنه حينها سنقصي هذا المصدر من جملة المصادر التي اعتمدها البكري للحديث عن هذه المنطقة ، ونكتفي بالقول بأن الوراق كان مصدرا للبكري بخصوص الأطراف الشمالية لبلاد السودان ، كما نقل البكري أيضا بعض الأخبار عن المسعودي دون أن يصرح بذلك كأن يذكر اسمه على سبيل المثال [3]، كما يمكننا أن نعتبر أن البكري ساعده على تأليف هذا الكتاب "قراءاته الكثيرة للسجلات العربية التي حفلت بها مدينة قرطبة التي كانت مصدرا لا ينضب لأخبار غرب إفريقيا في ذلك الحين "[4] .

ب – معلومات مستحدثة :

"لا يحدثنا البكري أبدا عما يشاهده بنفسه ، وليست له تجربة مباشرة تتعلّق بالبلاد التي يصفها ، وذلك خلافا لأبرز سابقيه من أعلام العصر الكلاسيكي المشرقي أمثال: ابن حوقل والأصطخري والمسعودي ، ولا يُستنتج من أي ترجمة من تراجم البكري أنه غادر وطنه ، بل إن حياته في ذلك الوطن قد انحصرت في رقعة ضيّقة بين ولبة واشبيلية وقرطبة والمرية"[5] ورغم ذلك فإن المعلومات التي أوردها عن بلاد السودان فيها من المصداقية والأصالة ما يجعلنا نعتقد

---

[1] البكري ، المسالك والممالك ، ج1، ص 16.

[2] وردت الإشارة إلى محمد بن يوسف الوراق في المواضع التالية من كتاب البكري ، المسالك والممالك ، ج 2/ ص 345 و 347 وهذان الموضعان لا يدلاّن على أن الوراق وصل إلى هذه المنطقة إذ يبدو من حديثه أنه كان ينقل عن غيره .

[3] ينقل البكري في المسالك والممالك عن المسعودي في المواضع التالية : ج2،ص 62 و ج1، 242 .

[4] جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، ص38.

[5] البكري ، المسالك والممالك ، ج1،ص 16.

في بعض الأحيان بأن كاتبها كان يكتب استنادا على مشاهدة ومعاينة مباشرة لما كان يصفه من بلاد السودان، وهو الأمر الذي لم يتحقّق في واقع الأمر ، وقد وصل للبكري إلى درجة كبيرة من الدقة نتيجة للمنهج الذي اعتمده في تقصّي الأخبار والقبول بإدراجها واعتمادها في كتابه ، ولّما كانت بلاد السودان بعيدة جغرافيا عن موطنه ، فقد كانت تصله أخبار عنها من أحاديث الرحالة والمغامرين الذين كانوا يُضيفون عليها قدرا من الخيال والمبالغة ، وهو الأمر الذي جعل البكري يرفض مثل هذه الأخبار ، واشترط الثّقة والصدق فيمن يأخذ عنه أخبار هذه المنطقة [1]، وهو الأمر الذي نجده فعلا في حديثه عن بلاد السودان ، فقد كان يُشير في كثير من المواضع إلى صفة هؤلاء الأشخاص الذين نقل عنهم مثل الفقيه " أبو محمد عبد الملك بن نخاس الغرفة "إذ يشير إليه في أربعة مواضع من الأخبار المتعلّقة ببلاد السودان [2] ، كما نقل أيضا من حديث " أبو عبد المكي " [3] ولم يشر إلى صفته ، ولكن الغالب عليه أنه من أهل الصلاح ، كما نجد أيضا في مواضع أخرى يشير إلى أن مصادره في الخبر هم جماعة من المسلمين الثقات [4] ، أو شيخ من أهل الصلاح والخير ، وهذا الأمر لا يعني أن البكري تحرّى جميع أخباره بدقة ، فقد وقع فيما وقع فيه غيره في ذكر بعض الأخبار الواهية التي لا يقبلها العقل ، ولا يشير أحيانا أخرى إلى مصادره ، ويورد في بعض الحالات المعلومات على عمومها مسبّقة بلفظة " يقال ... وهذا الأمر يتناسب مع نوعية الخبر المقدم الذي كثيرا ما يكون عبارة عن أخبار تاريخية غير آنية وصفة متعلقة ببلاد السودان .

الزهري (ت 556هـ/1160م):

تنقسم مصادر الزهري في الأخبار إلى أربع أنواع ، فالجزء الأول منها يعتمد على مشاهداته الشخصية خاصة فيما يتعلق بالديار الأندلسية ، وثانيا على ما سمعه من مواطنيه المعاصرين ، وثالثا على نكرات يصفها بلفظة فلاسفة ومؤرخين وحكماء وأطباء وأهل نظر بمساحة الأرض وفلكيين ومنجمين ومؤرخين لم يذكر أسماءهم ، ورابعا على

---

[1] يعبّر البكري عن هذا بقوله : "...وأخبرني الثقة ..." ، المسالك والممالك ، ج2، ص 368.

[2] أحال البكري في كتابه "المسالك والممالك ""بعض أخباره المتعلقة ببلاد السودان إلى هذا الفقيه في المواضع التالية : ج 2 ، ص368و 369، وفي وموضعين آخرين في الصفحة 370 .

[3] البكري ، المصدر السابق ،ج2 ، ص 367 .

[4] نفسه ،ج2، ص 366.

مشاهير من بينهم "أرسطو" و"الفزاري" و"المسعودي" [1] وهو في كتابه الجغرافية يمزج بين جميع هذه المصادر ويكتب بأسلوبه الخاص دون أن يحيل إلى مصادره ، فالمعلومات الواردة عن بلاد السودان في مصنّفه ما هي إلا انعكاس لهذا المنهج فهي حصيلة إطلاعه على المصادر السابقة دون أن تكون له فرصة المشاهدة المباشرة ، ودون أن يحيل القارئ إلى أي مصدر اعتمده في معلوماته عن هذه المنطقة .

الإدريسي (ت 560هـ/1160م):

وتنعكس أهمية كتاباته فيما أتى به من جديد لم يسبقه إليه أحد ، فاشتهر بدقة كتاباته وصدقها ، فهو وإن لم يتجوّل في أصقاع إفريقية كلها ، ولكن الظروف خدمته وقدمت له آلاف النصوص والأخبار عن إفريقية جلس يتصفحها ويأخذ المعقول المتواتر منها [2]، وقد أشار الإدريسي في مقدمة كتابه " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " إلى مجموعة من الكتب الجغرافية التي اعتمد عليها في وضع مصنفه ، وهي على حد قوله عشرة كتب نذكر منها : " كتاب العجائب للمسعودي "، و"كتاب أبي نصر، سعيد الجيهاني"، و"كتاب أبي القاسم عبيد الله بن خرداذبة" ، و"كتاب أبي القاسم محمد الحوقلي البغدادي" ، و"كتاب أحمد بن يعقوب" المعروف باليعقوبي، و"كتاب إسحاق بن الحسن المنجم "، و"كتاب قدامة البصري" ، وكتاب "بطلميوس الأقلودي"[3] ، وهذا لا يعني أن هذه الكتب هي جُلّ الكتب التي رجع إليها الإدريسي ، فقد أشار إلى هذه المجموعة على سبيل المثال لا الحصر ، وأكّد هذا في مقدمة كتابه أن هذه المراجع تمثّل بعض مصادره وليست كلها ، ومن المصادر التي أفاد منها الإدريسي و لم يذكرها كتاب البلدان لابن الفقيه ، ورحلة سليمان التاجر التي نقلها وعلّق عليها أبو يزيد السيرافي ، وكتاب "رسم الربع المعمور" المعروف بـــ"صورة الأرض" لمحمد بن موسى الخوارزمي ، وكتاب "الأعلاق النفيسة "لابن رستة الذي كتبه سنة 290هـــ وهو في أصفهان [4].

ولما وجد الإدريسي أن مجموعة هذه الكتب التي اطلع عليها لم تكن تحقّق له ما كان يهدف إليه ، إذ أنها كانت تُغفل كثيرا من الأمور ، و لم يجد فيها الشروح المفصلة ، بل وحتى أولئك العارفين الذين أحضرهم الإدريسي وباحثهم

---

[1] الزهري ، الجغرافيا ، ص ، ح

[2] أحمد نجم الدين فليجة ، أفريقيا دراسة عامة وإقليمية ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ص22 .

[3] الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ص 05- 06.

[4] محمد عبد الغني حسن ، الشريف الإدريسي ، ص 108 .

في الأمر ، لم يجد عندهم علما أكثر مما في الكتب المذكورة ، وعندها بعث الإدريسي إلى سائر البلاد ، وأحضر العارفين بها والمتجولين فيها، فسألهم عنها جمعا وأفرادا ، فما اتفق فيه قولهم ، وصحّ في جمعه نقلهم ، أثبته وأبقاه، وما اختلفوا فيه أرجأه وألغاه، وأقام على ذلك نحوا من خمس عشرة سنة ، لا يخلي نفسه في كل وقت من النظر في هذا الفن، والكشف عنه، والبحث عن حقيقته , إلى أن تم له فيه ما يريده[1] ، ولا تخرج منطقة بلاد السودان من هذا المنهج الذي اعتمده الإدريسي في ذكر الأخبار عن هن هذه البلاد إذ " إن جل اعتماده في جمع مادته كان على الجوالة والتجار، أو بمصطلح عصرنا «شاهد العيان» ، ولذا كثيرا ما تطالعنا في ثنايا الكتاب مواد مسندة إلى هذا الصنف من المصادر، كنحو قوله :" ...ولقد أخبر بعض السفار الثقات، وكان قد تجول في بلاد السودان نحوا من عشرين سنة ... "[2] ، " ...وهذا مشهور معلوم، يعلمه تجار أهل تلك البلاد، ويحكونه عنهم ..."[3] ، "...وحكى بعض المسافرين إلى مدائن كوار أن ... "[4] ، "... وأخبر بعض الثّقات من متجولي التّجار إلى بلاد السودان ... "[5] .كما اعتمد الإدريسي أيضا على شهادة بعض السودانيين أنفسهم ويُفهم هذا من ظاهر قوله " ... وقد اختلف قوم كثير من السودان في نهر "كوكو" فبعض قال ..." [6] فعلى الرغم من أن الإدريسي لم يُشر إلى ماهية هؤلاء الأشخاص أو إلى صفتهم فإنه يُفهم من كلامه أن أُخبر من طرف سودانيين فهل حقّق الإدريسي هذا الامتياز فعلا في الاعتماد على أهل المنطقة ؟ أم أن الأمر هو فقط مجرّد ما أخبره به التجار والثقات عن هذه البلاد .

صاحب كتاب الاستبصار (ق 06هـ/12م) :

وهذا المصنَّف لمؤلف مجهول ، يُرجِّح سعد زغلول عبد الحميد أنه لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس هجري /الثاني عشر الميلادي ، وعلى الرغم من أن مادة الكتاب المتعلّقة ببلاد السودان تأخذ حجما لا بأس به في كتابه ، إلاّ أنها تُعدّ انتحالا مباشرا لما كتبه البكري ، بل وحتى ينسب مصادر البكري في الخبر عن هذه المناطق لنفسه ،كأن

---

[1] الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص06.

[2] نفسه ، ص 27.

[3] نفسه ،ص 28.

[4] نفسه ،ص 30

[5] نفسه ،ص 108.

[6] نفسه ، ص 116.

يقول وأخبرني ثقة من التّجار [1] وهي في الحقيقة مصادر للبكري وليست لهذا المؤلف ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد توفّرت لهذا المؤلف فرصة الإطلاع على بعض الرسائل الرسمية الصادرة باسم ملك غانة أحد ملوك هذه البلاد إلى يوسف بن تاشفين ، ومعنى هذا أن سجلات المرابطين كانت في متناول يده أو وصلت إليه صور منها على الأقل[2] .

ولم يخل كتابه من الأخبار ذات الطابع العجائبي ، ولم يذكر مصادره واكتفى بتسبيق معلوماته بلفظة " وزعموا " مثل ما ذكره عن بلد في الصحراء لا يقع عليه إلا من ضل فيها [3] ، وهو ما يدل على بعض المعارف التي كانت شائعة بين سكان بلاد المغرب في استمراريتي نسب بعض الخرافات إلى بلاد السودان رغم تقدم معارفهم عنها .

ياقوت الحموي (ت 626هـ/1229م) :

لم يدخل ياقوت الحموي بلاد السودان على الرغم مما عرف عنه بأسفاره التجارية العديدة ، وكان يشتغل بتجارة الكتب ، وقد مكّنه عمله هذا من جمع المادة العلمية اللازمة لمعجمه ...ولا ريب في أن ما شاهدته ياقوت في أسفاره العديدة وما جمعه من الخزائن[4] التي تردّد عليها في مراكز الثقافة التي نشطت فيها الحياة الفكرية وخاصة في بلاط بلاط السلاجقة في "مرو" حاضرة خراسان ، ولا سيما في عهد السلطان "سنجر" ثم عهد أمراء الخوارزميين [5] ، وقد وصف ياقوت الحموي أهمّية هذه الخزانة بقوله " فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها وأنساني حُبّها كل بلد ، وألهاني عن الأهل والولد ، وأكثر فوائد هذا (أي معجم البلدان) وغيره مما جمعته ، فهو من تلك الخزائن وفيها عشر خزائن للوقف ، لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة " [6] ، وياقوت أمين في نقله عن غيره ، فهو ينسب كل شيء أخذه عن الآخرين إلى صاحبه ، ويضاف إلى ذلك أنه يتحدّث في المقدمة عن مصادره المكتوبة [7] ، وهم بالإضافة إلى بطليموس ، نجد كذلك ابن خرداذبه والجيهاني وابن الفقيه والبلخي والأصطخري وابن حوقل والمقدسي والمهلبي والبكري ، وكان

---

[1] مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، ص 216 .

[2] نفسه ، ص ث .

[3] اسم هذا البلد "واح صبرو" والقصة مذكورة عند البكري ولكن صاحب الاستبصار جاء بتفصيلات أكثر .

[4] جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، ص04.

[5] أحمد رمضان أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون ، ص 178

[6] ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج5 ، ص 114.

[7] نيقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص63.

أكثر اعتماده في معلوماته عن بلاد السودان على المهلبي والبكري ، وذكر كراتشكوفسكي بأن كتاب المهلبي هو من أحد المصادر الرئيسية لياقوت الذي ينقل عنه أكثر من ستين مرة [1].

القزويني (ت 682هـ/ 1283م):

أشار القزويني في مقدمة كتابه إلى أن مصنَّفه " آثار البلاد وأخبار العباد " هو عبارة عن تجميع للمعارف التي حصّلها طيلة تجربته في الحياة واحتكاكه ببني جنسه ، بالإضافة إلى ما شاهده بعينه وسمعه من الرحالة والجغرافيين [2]، وقد نقل القزويني في هذا الكتاب الكثير مما كتبه سابقوه من الجغرافيين المسلمين ، وقد اتصل بكثير من الرحالة ، وقرأ آثارهم وأفاد من مشاهداتهم [3] ، وفيما يتعلّق بالأخبار التي أوردها عن بلاد السودان ، نجد جزء منها منقول من المصادر المصادر السابقة كابن الفقيه ، وهو أمين في نقله يشير إلى مصادره بصريح العبارة [4] وجزء آخر ينسبه للفقهاء المغاربة دون الإشارة إلى أسماءهم [5] ، وأما الجزء الثالث وهو أهمها فقد نقله من خلال أحاديثه مع الرحالة الذين دخلوا هذه البلاد ، مثل الفقيه "علي الجنحاني المغربي" الذي شاهد هذه البلاد ، وهو يحيل إليه في أكثر من مرة [6]، كما يشير أيضا إلى أنه نقل بعض الأخبار عن الفقيه " أبو الربيع الملتاني " الذي نفذ إلى أواسط إفريقية [7] ولكن درجة نقله عن هذا الفقيه لا ترقى إلى درجة ما نقله عن الفقيه السابق .

ابن سعيد (ت 685هـ/1386م):

معارف ابن سعيد عن إفريقيا جنوب الصحراء هي حصيلة إطلاعه على مصنفات بطليموس الذي اعتمده خاصة في منهجه ، وطريقة تقسيمه للأقاليم ، وموقع بلاد السودان وتحديدها ، ولكن عندما يأخذ في تفصيل دواخل

---

[1] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ،ج1 ،ص 230.

[2] القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، دار صادر ، ص05.

[3] عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، ص 503 .

[4] القزويني ، المصدر السابق ، ص 18 .

[5] نفسه ، ص 42.

[6] أحال القزويني بعض أخباره المتعلقة ببلاد السودان إلى هذا الفقيه في المواضع التالية من كتابه "آثار البلاد وأخبار العباد "في الصفحات 24،25، 26 ، 58.

[7] نفسه ، ص 57.

هذه المنطقة فإنه يعتمد بشكل طفيف ومختصر على ما كتبه البكري ، أما باقي المعلومات عن هذه المنطقة فإنها تعود إلى الرحالة "**ابن فاطمة** " الذي لا نعلم عنه إلا القليل ، ويبقى الكثير من الغموض والإبهام حول حقيقة هذه الشخصية ، فبينما نجد أن كراتشكوفسكي يشير إلى أصله العربي ، وأنه قام برحلة على طول السواحل الغربية لإفريقيا حتى بلغ مصب نهر السنغال [1] ، فإن مؤرخا عربيا آخر هو حسين مؤنس يرى بأن هذا الرحالة من أهل السودان الغربي ، وربما كان أصله مما يعرف اليوم بالسنغال أو ما يليه جنوبا ، وربما كان من أهل غانة الإسلامية ، فإن نسبة الناس إلى أمهاتهم كانت شائعة في هذه النواحي خاصة ولدينا أسماء مثل "ابن الصحراوية" ، و"ابن عائشة" و"ابن فنّو" بنت يوسف بن تاشفين وكلها شبيهة باسم ابن فاطمة [2] .

وعلى كل حال فإن كلام ابن فاطمة يدل على علم دقيق بأحوال إفريقيا وأهلها مما يلي الحزام الصحراوي جنوبا ، فهو من أهل السودان الغربي أولا ، ثم إنه كان رحّالة لا يكل ثانيا ، وقد طاف في رحلاته بالسواحل الإفريقية كلها ، حتى وصل إلى الصومال والحبشة ، ثم أوغل داخل القارة ورأى منابع النيل [3] ، ومنه فإن اعتماد ابن سعيد لهذا المصنف كمصدر أساسي في الحديث عن هذه المناطق يُضفي على كتابات هذا الأخير قدرا كبيرا من الدقة والمصداقية ، إلى جانب أنه حفظ لنا بعض من أوصاف هذا الرحالة الذي ضاعت مؤلفاته ، فكتاب ابن سعيد هو حصيلة معارف ابن فاطمة ، مرتبة على التقسيمات الإقليمية للإدريسي ، وتابعة لمنهج بطليموس الفلكي.

أبو الفداء (ت 732هـ/ 1332م) :

اعتمد أبو الفداء في وضع مصنفه " تقويم البلدان " على مجموعة متنوّعة من المصادر الجغرافية التي سبقت عهده ، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه ، فاعتمد مصنّف ابن حوقل وكتاب الإدريسي وابن خرداذبه وياقوت الحموي وابن سعيد وقد كان كتابه عبارة عن تجميع لما تفرّق في الكتب المذكورة [4] ، وإذا أردنا أن نضع قائمة ترتيب لأهم المصادر التي اعتمدها أبو الفدا ء في كتابته عن بلاد السودان فإن كتاب الجغرافيا لابن سعيد سيتصدّر هذه القائمة من

---

[1] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج1 ، ص 359.

[2] حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ط 2، مدريد ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، مكتبة مدبولى ، 1986، ص 507.

[3] حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية ، ص 507.

[4] أبو الفداء ، تقويم البلدان ، رينود والبارون ديسلان ، باريس ، دار الطباعة السلطانية ،1840، ص 02.

دون منازع ، يليه مؤلف الإدريسي ، ثم بدرجة أقل مصنّف المهلبي في المسالك والممالك ، إلى جانب بعض الإشارات الأخرى إلى بطليموس والمسعودي .

النويري (ت 733هـ/1332م):

مؤلفه الموسوم بـ " نهاية الأرب في فنون الأدب " [1] وهو عبارة عن موسوعة تشمل علوما كثيرة ، تستعصي على أن تكون نتاجا لأفكار شخص واحد ، إنما هي عبارة عن تجميع لعلوم مختلفة ومن مصادر متنوّعة ، وعليه فإن النقل من المصادر والتجارب السابقة ستكون حتما هي السمة البارزة في مثل هذا النوع من المصنفات ، وهذا الأمر لا ينطبق على النويري فقط ، بل ينطبق على باقي الموسوعات .

ونجد في الجزء المخصّص لبلاد السودان عددا كبيرا من المصادر التي رجع إليها النويري سعيا منه في الوصول إلى صحة الخبر ، فهو يعتمد تقريبا على عدد كبير من المصادر الجغرافية المذكورة في هذا البحث مثل البلخي [2] والمسعودي [3] وابن حوقل [4] وقدامة بن جعفر [5] والإدريسي [6] وكلها أسماء شكلت القاعدة التي بنى عليها النويري معرفته عن بلاد السودان ، والنويري بالإضافة إلى اعتماده على هذه المصادر فإنه يورد أحيانا أخرى معلومات مصادرها مجهولة ، ويكتفي بإيرادها مرفقة بتعابير " قيل ، يقال ، قالوا ، ذهب بعض الناس ، ذهب المتكلمون ... .

العمري (ت 749هـ/1349م) :

هو رجل نقالة لصنوف العلوم وموسوعي ، يتميّز بالأصالة والتجديد بفضل إطلاعه الواسع ، وقد هيّأ له عمله الحكومي الإطلاع على الوثائق [7] الرسمية ، فقد تولّى هو وأسرته بعض الوظائف الإدارية في عهد السلطان الناصر "محمد

---

[1] النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تح ، مفيد قمحية وجماعة ، بيروت / لبنان ، دار الكتب العلمية ، 2004 .

[2] نفسه،ج1 ، ص 197 .

[3] نفسه، ج15،ص 223.

[4] نفسه، ج1 ،ص 208.

[5] نفسه، ج1 ،ص208 .

[6] نفسه، ج1، ص 244.

[7] كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ،ج1، ص 413.

"محمد بن قلاوون" ، وخاصة في تنظيم شؤون البريد ،كما تولّى القضاء قبل أن يتولّى الكتابة في ديوان الإنشاء بمصر ودمشق ، ولّما أصبح والده كاتبا للسّر على عصر ذلك السلطان ، عهد إلى ابن فضل الله وإلى شقيقه قراءة الرسائل على السلطان الناصر محمد [1]، فهذا التكوين السياسي للعمري قرّبه من السلطة ، وهو الأمر الذي وفّر له فرصة الإطلاع على بعض الوثائق والسّجلات التي لم يكن بمقدور غيره الوصول إليها ،كما سمح له بم قابلة العديد من الواردين إلى البلاط المملوكي بمصر ، وهو ما كان دافعا له لوضع مصنّفه " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " .

منهج العمري في الحديث عن بلاد السودان يعتمد بشكل أساسي على منهج الرواية بالسماع، وهذا قائم على سماع رواية الذين شاهدوا تلك البلاد أو اطّلعوا على أخبارها من التّجار والزوّار[2] ، وهو يشرح هذا المنهج بقوله " ... كنت أسأل الرجل عن بلاده، ثم أسأل الآخر والآخر لأقف على الحق، فما اتّفقتْ عليه أقوالهم، وتقاربت فيه ، أثْبَتُّهُ، وما اخْتلفتْ فيه أقوالهم أو اضطربت ، تركْتُهُ، ثم أنزل الرجل المسؤول مدة أناسيه فيها عمّا قال، ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سألت، فإن ثبت على قوله الأول، أثبت مقاله، وإن تزلزل أذهبت في الريح أقواله، كل هذا لأتروى في الرواية، وأتوثّق في التصحيح ..." [3] .

كان العمري وفيا لهذا المنهج الذي رسمه في مقدمة كتابه بحيث نجده دائما يتثبّت من الخبر ، ويقارن بما قاله الآخرون ثم يثبت ما كان يبدوا له صحيحا ، وقد خلف لنا قائمة لمجموعة من الأشخاص يعتبرون بأنهم مصادره الأساسية عن بلاد السودان ، وجميع هؤلاء هم ممّن دخل هذه البلاد ، وشاهد ما كان ينقله للعمري مباشرة وهم من الثّقات على رأي العمري ، إذ كانوا في الغالب شيوخا ثقات مثل " أبو عبد الله السّلاجيّ"[4] والشيخ "سعيد الدكّاليّ "[5] "[5] الذي كان مم استوطن بلاد السودان لمدة خمس وثلاثين سنة ، و الشيخ الإمام" أبو عبد الله محمد بن الصّائغ الأمويّ "الذي دخل هذه البلاد[6] ، أو من القضاة كـــ" أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشيّ "[1] ، أو من أشخاص صحبوا

---

[1] أحمد رمضان أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون ، ص 211.

[2] العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج3 ، ص 10.

[3] نفسه ، ج3، ص 11.

[4] نفسه ، ج4 ص 96 .

[5] كان هذا الشيخ مصدرا من مصادر أخبار العمري عن بلاد السودان وقد رجع إليه العمري في المواضع التالية من مسالك الأبصار : ج4 ، ص 109 ، 114 ، 118 ، 119 و 126، 127، 133. فهو يحتل الصدارة مقارنة مع باقي مصادر العمري .

[6] العمري ، المرجع السابق ، ج4، ص 127.

صحبوا منسا موسى أحد ملوك السودان في حجّه مثل " مهنّا بن عبد الباقي العجرميّ" الدليل الذي كان معه[2]، أو الفقيه العلّامة " أبو الرّوح عيسى الزّواويّ " [3] والأمير" أبو الحسن عليّ ابن أمير حاجب"[4] اللّذين كانا كثيرا الاجتماع بالسلطان منسى موسى ملك السودان لمّا قدم مصر حاجّا، أو الأمير" أبا العبّاس أحمد بن الجاكي المهمندار" [5] الذي أُرسل ليستقبل وفد منسا موسى لما قدم مصر برسم الحج ،كما لم يفوّت العمري العودة إلى المصادر المكتوبة مثل كتاب الجغرافيا لابن سعيد[6] ، أو سؤال بعض تجار مصر[7] عن تأثير رحلة منسا موسى على هبوط أسعار الذهب بالقاهرة .

هذا التقصي للمعلومة من طرف العمري هو ما مكّننا من اكتشاف كثير من الحقائق والأمور الجديدة المتعلق ة بممالك بلاد السودان عامة وبمملكة مالي على الخصوص .

الحميري (ت 727هـ/1326م) :

لا يُصرِّحُ الحميري في معجمه " آثار البلاد وأخبار العباد " باسم المصدر الذي ينقل عنه إلا في القليل النادر ، وإذا انتقل من اقتباس إلى آخر ابتدأ بلفظة تعميمية هي " قالوا " [8] ومصادره متنوّعة ، وإن لم تكن كثيرة فهي جغرافية وتاريخية وأدبية ، ويبدو أنه كان يجهل المصادر الجغرافية المشرقيّة ، وكل ما عنده من نقول عن كتاب البلدان لليعقوبي ربما كان بالواسطة ، إلا أنه لا يعرف قطعا ابن حوقل والأصطخري والمقدسي ومعجم ياقوت الحموي ، ولهذا اقتصر

---

[1] العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ،ج4 ، ص 96 .

[2] نفسه ، ج4، ص 125 .

[3] كان هذا الشيخ مصدرا من مصادر أخبار العمري عن بلاد السودان وقد إليه العمري في المواضع التالية من مسالك الأبصار : ج 4، ص 126، 128، 134.

[4] كان هذا الشيخ مصدرا من مصادر أخبار العمري عن بلاد السودان وقد إليه العمري في المواضع التالية من مسالك الأبصار : ج 4، ص 118، 119،120،121،122،126 .

[5] أحال إليه العمري في مسالك الأبصار في المواضع التالية :ج4 ، ص 122، 124.

[6] أحال إليه العمري في مسالك الأبصار في المواضع التالية :ج4 ص 96،97،120.

[7] العمري ، المرجع السابق ،ج4 ، ص 124.

[8] وردت هذه اللّفظة عند الحميري مقترنة ببعض الأخبار المتعلّقة ببلاد السودان في المواضع التالية من معجمه الروض المع طار في خبر الأقطار: ص 119،306،307، 422 .

في باب المعلومات الجغرافية على المصادر المغربية [1] ، وعليه فقد شكّل كتاب الاستبصار أهم مصادر الحميري ، إلى جانب كل من "نزهة المشتاق للإدريسي" وكتاب "المسالك والممالك" لأبي عبيدة البكري .

ابن بطوطة (ت 779هـ/ 1377م):

وهو الرّحالة الوحيد – من بين جميع أصحاب المصادر الجغرافية التي تطرقنا إليها في هذا البحث– الذي زار بلاد السودان بحيث كانت ملاحظاته وكتاباته تعبّر عن مشاهدة شخصية ، و لم يكن بحاجة إلى وضع منهاج معيّن من أجل تقصّي الأخبار عن هذا الإقليم الجغرافي ، فقد أغناه عن ذلك زيارته إلى هذه البلاد ، وبقائه هناك قرابة سنتين [2] من من الزمن يتنقل بين أرجائها [3] ويسمع من سكانها ، ورأى ووقف بنفسه على كثير من الأمور التي أدرجها في كتابه ، وهذا ما يُكسب أقواله أهمية كبيرة ، إذ لا يوجد أهم من شهادة رحالة يقول فيها صاحبها رأيت ، شاهدت ، عاينت ... وهذا يتعلق بالأمور الوصفية للرحلة ، فبالإضافة إلى هذا فقد كان السودانيون أنفسهم مصدرا لابن بطوطة في الكثير من الأخبار المتعلّقة بتاريخهم أو ببعض المناطق التي لم يبلغها هذا الرحالة ، وهذه الأجزاء من الرحلة هي أقل أصالة ، بل إنها كانت في بعض الأحيان ذات طابع خرافي مثل قصة الجرادة المتكلمة [4] ولكن هذا لا يمنع أيضا أن تكون بعض أخبار هذه الرحلة من إضافات ابن جزي –كاتب هذه الرحلة– فقد كان يتدخل بالإضافات بين الحين والآخر ، ومن حسن الحظ أن تدخلاته قليلة ولا صعوبة في التعرف عليها ونسبتها إلى أصحابها [5] ومعنى ذلك أن رحلة ابن بطوطة في مجموعها أصيلة وسليمة إلى حد كبير .

يُعيب الكثير من الباحثين على ابن بطوطة أنه لم يُدوِّن رحلاته مباشرة ، والفارق الزمني كبير جدا بين القيام بالرحلة ووقوع التدوين ، وهو الأمر الذي نرى بدورنا أنه ينطبق على الأجزاء الأولى للرحلة التي عُنيت بوصف المناطق

---

[1] الحميري ، المصدر السابق ، ص س.

[2] انطلق ابن بطوطة في رحلته من سجلماسة قاصدا بلاد السودان في غرة شهر محرم سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، ابن بطوطة، تحفة النظار، ج2 ، ص 191. وعاد إلى هذه المدينة في أواسط شهر ذي القعدة من سنة أربع وخمسين وسبعمائة، نفسه ،ج2، ص 211 .

[3] بخصوص الطرق التي سلكها ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد السودان ثم عودته منها إلى بلاد المغرب أنظر الملحق رقم:13 .

[4] ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ج2 ، ص 202 .

[5] حسين مؤنس ، ابن بطوطة ، ص 12.

الشرقية للعالم الإسلامي ، ولا ينطبق على بلاد السودان كون أن ابن بطوطة دون رحلاته مباشرة بعد عودته من هذه البلاد .

القلقشندي (ت 821هـ/1418م):

تندرج كتاباته ضمن كتب الموسوعات الكبرى ، وهي على شاكلة كتابات النويري والعمري ، تعتمد في الدرجة الأولى على النقل من المصادر السابقة ومادته تجميعية بدرجة أولى من كتاب مسالك الأبصار للعمري [1] وهو ينقل عنه في عديد من المواضع ويُشير إليه بأمانة ، بل ويُشير حتى إلى مصادر العمري نفسه ، كما اعتمد أيضا على ما كتبه ابن سعيد [2] وابن خلدون [3] وأبو عبد الله المراكشي في كتابه التكملة وأبو الفداء في تقويم البلدان [4] والحميري في الروض المعطار [5] والمهلبي في الكتاب العزيزي [6] وهذا لا يعني أن القلقشندي مجرّد ناقل فقد حقّق بنفسه بعض أخبار هذه هذه البلاد ذكرت له من رسول سلطان البرنو الواصل إلى الديار المصرية صحبة الحجيج في الدولة الظاهرية [7].

وعليه فإن هذه المرحلة الثانية حملت معها مجموعة من التغيّرات والمميزات التي جعلتها تختلف عن المرحلة السابقة ، فإذا كان الحصول على المعلومة هو الهدف المنشود في كتابات المرحلة الأولى دون الأخذ بعين الاعتبار مصدرها أو التدقيق في صحتها ، فإنه في المرحلة الثانية تغير فيها التركيز من كيفية الحصول على المعلومة إلى كيفية صياغة مناهج وقوانين صارمة تضبط طريقة الحصول على المعلومة بحيث تبقى الموثوق به ، وتقصي ما كان فيها شك ، أو ما وصل من طرق غير موثوقة ، وهو الأمر الذي تحقق فعلا ولكن بنسب متفاوتة بين أصحاب المصادر الجغرافية بحيث ساهمت في الوصول بالمعلومة إلى نسب عالية من الصحة والدقة ، وتوجت في نهاية الأمر بكتابات وصلت إلى قمة

---

[1] كان العمري مصدرا للقلقشندي في المواضع التالية في"صبح الأعشى" ج5 ،ص 272 ، 275، 276، 277، 278،279،280.

[2] كان ابن سعيد مصدرا للقلقشندي في المواضع التالية في"صبح الأعشى" : ج1، ص 422. ج5 ،ص 273، 274 .

[3] كان ابن خلدون مصدرا للقلقشندي في المواضع التالية في"صبح الأعشى": ج5 ، ص 272، 273، 274، 281 .

[4] كان أبو الفداء مصدرا للقشندي في المواضع التالية : ج5 ، ص 273، 274 .

[5] نقل القلقشندي أخباره عن الحميري في صبح الأعشى في المواضع التالية : ج5 ص 274 ، 275 .

[6] أشار القلقشندي أنه نقل بعض أخباره عن المهلبي في صبح الأعشى الموضع ،ج5 ،ص 274 .

[7] أشار إلى ذلك في موضعين في صبح الأعشى ج1 ،ص 358 و ج5، ص 269 .

المصداقية ، متمثّلة في الكتابة الناتجة عن مشاهدة مباشرة ، ولكن برغم ذلك فقد استمرت بعض المصادر في إتباع الطرق القديمة التي كان هدفها الأساسي الحصول على المعلومة فقط ، وهو الأمر الذي تأتى من النقل المباشر عن المصادر السابقة ما كرس من استمرارية الأخطاء والسطحية في نوعية الأخبار التي كانت تصل عن هذه المنطقة .

المبحث الرابع : التجديد ونقاط ارتكاز المعرفة العربية عن بلاد السودان في المصادر الجغرافية العربية من منتصف القرن (5هـ/11م) حتى ق (8هـ/14م)[1].

يُعتبر هذا المبحث تتويجا لِما تطرقنا إليه في المباحث الثلاثة السابقة ، فالعوامل المساعدة على تطوّر المعرفة التي تشكّلت في هذه الفترة ، وأنواع المصادر الجغرافية [2] التي ضمنها كانت تقع هذه الكتابات ، بالإضافة إلى توفّر مصادر الخبر وتنوعها ، ومنهج أصحاب المصنفات في إدراج الأخبار كلها ستؤدي إلى نمط معرفي معيّن سنحاول الكشف عنه في هذا المبحث .

لقد جاءت كتابات هذه المرحلة بعد قيام الحلف الصنهاجي وظهور ما يسمَّى بدولة المرابطين التي أزالت كثيرا من القيود التي كانت تُعتبر حواجز حقيقية في عملية التواصل بين الشمال والجنوب ، بحيث وحدّت المجالات الغربية من الصحراء ، واتسعت حدودها لتشمل المنطقة الواقعة من بجاية شرقا ، إلى ساحل المحيط غربا ، ومن شمال جبال البرانس شمالا ، إلى جنوب غرب تبمبكتو ، وكومبي صالح جنوبا ، وقد بلغت أقصى اتساعها في الجنوب الشرقي إلى شمال غرب التّشاد قريبا من الحدود اللّيبية الحالية [3] ، فسهّلت بذلك من انتقال القوافل التجارية ، وأسسّت بذلك لظهور مرحلة جديدة للتدوين التاريخي والجغرافي ، وهذا كان له انعكاس ايجابي على تطوّر المعرفة بمناطق جنوب الصحراء .

لقد توفّرت في هذه المرحلة مصادر مختلفة للمعلومات كالمؤلفات السابقة ، أو التجار والدعاة الذين دخلوا إلى بلاد السودان ، أو حتى السودانيين أنفسهم ، وتوزّعت أخبار هذه الناطق في مختلف أنواع الكتابات الجغرافية والتاريخية

---

[1] عن عدد المصادر الجغرافية العربية التي كُتبت في هذه الفترة المخصّصة للدّراسة راجع الملحق رقم :08 .

[2] بخصوص أنواع المصادر الجغرافية من منتصف القرن (5هـ/11م) حتى ق (8هـ/14م). راجع الملحق رقم :10 .

[3] محمد الأمين بلغيث ،<< مشاركة يهود الأندلس الاقتصادية في عصر المرابطين ودورهم في نقل المعرفة الإسلامية إلى الغرب >> ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، 6 (2005) ، ص 21.

والفقهية والمناقبية ، و لم تكن بعيدة عن متناول طالب المعرفة سواء عن بلاد السودان ، أو غيرها من الأقاليم ، فقد ظهرت مكتبات عديدة منتشرة في مناطق العالم الإسلامي ، وما المكاتبات المملوكية ،أو ممكتبة "مرو" في خراسان التي أثنى عليها ياقوت إلاّ نموذج من مجموعة مختلفة من النّماذج .

لقد صاحبت هذه الوفرة في المصادر والمكتبات وفرة أخرى مماثلة في نوعية المعلومات التي لم تعد مقتصرة على هذه المرحلة الزمنية فقط ، بل إنها امتدت لتُمِدّنا بتفاصيل تاريخية مهمّة تعود إلى البدايات الأولى لتّعرف العرب على هذه البلاد ، وهي معلومات لا نجدها في كتابات المرحلة الأولى ، كما كان لظهور كتابات بعض الطوائف الأخرى من الفرق الإسلامية دور في إثراء المعارف عن بلاد السودان ، سنحاول تتبع هذه المعرفة زمنيا ضمن الأربعة قرون المخصّصة للدّراسة .

المعرفة المحصّلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في النصف الثاني للقرن (5هـ/11م)[1].

وهذه الفترة هي مرحلة " **البكري**" في التدوين الجغرافي حيث يُعد هذا المُؤلّف بحق طفرة واضحة في مسار التدوين والكتابة الجغرافية عن بلاد السودان ، فمن ينظر في كتابه " المسالك والممالك " ويقارنه بكتابات نهاية المرحلة الأولى ، يجد اختلافا واضحا كأن هناك حلقة مفقودة تغيب فيها المرحلة الانتقالية بين كتابات المرحلتين ،وعلى الرغم من أهمية ما كتبه المهلبي وابن حوقل ، فإن ما جاء به البكري يتجاوز هاذين الكاتبين بمراحل .

قبل أن نتحدّث عن وصف البكري لبلاد السودان ، لا بدّ أن نُشير إلى الإشكالية الرئيسية التي يعتمد عليها هذا البحث ، وهي محاولة تتبعّ بلاد السودان في المصادر الجغرافية العربية ، فقد قلنا فيما سبق أن بلاد السودان مصطلح مطاطي يختلف مدلوله باختلاف المصنفين ، وعليه فإننا سنقصر عملنا على هذا المدلول عند كُتّاب هذه المرحلة ، وهنا نجد أنفسنا ملزمين على ضبط معنى بلاد السودان عند البكري ، الاقتصار على إبراز هذه المنطقة .

تجدُر الإشارة إلى أن منهج البكري في الوصف يعتمد على تقسيم العالم إلى مناطق ، ثمّ يأخذ في وصف كل منطقة على حدة ، وعلى هذا الأساس فإن البكري أفرد لبلاد السودان فصلا بعنوان " **ذكر بلاد السودان ومدنها**

[1] ونجد في هذه الفترة مصدرا وحيدا هو كتاب المسالك والممالك للبكري.

المشهورة واتّصال بعضها ببعض والمسافات بينها وما فيها من الغرائب وسير أهلها "[1] وفيه اقتصر حديثه على السودانين الغربي والأوسط ، أما المناطق الشرقية لبلاد السودان أو ما يسمى بالسودان الشرقي فقد سبق له وأن تحدّث عنه في مبحث سابق بعنوان " **ذكر ممالك السودان** "[2]، والشيء الملاحظ هو أن مصطلح بلاد السودان أخذ مع البكري معنى جديدا ، بحيث أصبح يدلّ على منطقة جغرافية ، وليس على لون البشرة كما كان سائدا في بعض الكتابات السابقة ، ويبدوا هذا واضحا في إقصاء البكري لمجموعات كبيرة ذات لون أسود من إدراجها في الفصل المخصّص للحديث عن بلاد السودان ، فعلى سبيل المثال لم يدرج البكري مدينة "أودغشت" في ما سماه ببلاد السودان ، بل جعلها تابعة لبلاد المغرب ، وهو ما جعل مناطق ما وراء أودغشت حدا جنوبيا لبلاد المغرب ، وبداية لبلاد السودان ، وأما من الجهة الغربية فإن "بنو جدالة" هم آخر بلاد المغرب [3]، ومدينة "صنغانة "التي تفصلها مسيرة ستة أيام عن "بنو جدالة " هي أول بلاد السودان [4] ، وهو الأمر الذي يعكس تقدّم المعرفة العربية بشكل واضح عن هذه الأقاليم مقارنة بكتابات المرحلة الأولى التي كانت تجعل مناطق جنوب سجلماسة والسوس الأقصى نهاية لحدّ بلاد المغرب وبداية لبلاد السودان[5].

على الرغم من أن البكري لم يزر بلاد السودان ، ولا كتب عن مشاهدة للمنطقة ، لكن منهجه في الكتابة كان أشبه ما يكون بمنهج الرحّالة الذي ينتقل بين الحواضر واصفا إياها ، وللطرق الموصلة بينها –كما هو الحال عند ابن بطوطة – وربما تعود هذه الطريقة في الكتابة إلى أسفار البكري وتنقلاته بين البلدان ، بحيث بقي محافظا على هذه الطريقة حتى مع وصفه للأقاليم التي لم يزرها ، فقبل أن يبدأ حديثه عن بلاد السودان ، بيّن لنا الطريقين المؤديين إلى هذه البلاد ، وهما طريقا سجلماسة– أودغشت ، والطريق الغربي الساحلي ، واستهل البكري وصفه الحواضر السودانية بدءا بتلك التي تقع في أقصى الغرب ، ثم أخذ ينتقل في وصفه تدريجيا إلى المناطق الشرقية وقد اهتمّ بوصف المدن والمراكز السودانيّة المشهورة ، ووصف الطرق الموصلة بينها ، وكان يتوقّف عند كل مدينة ليصف لنا بعض الأخبار

---

[1] البكري ، المسالك والممالك ، ج2 ، ص ص 359- 373 .

[2] البكري ، المسالك والممالك ، ج1 ، ص ص 242- 248.

[3] نفسه ج2 ، ص 359 .

[4] نفسه ، ج2 ، ص 359.

[5] وهذا ما يبدوا واضحا في إشارات بعض المصادر المتقدّمة عن وصول الفاتحين الأوائل إلى بلاد السودان راجع الصفحة07

المتصلة بها ، إلى أن توقّف وصفه في الجهة الشرقية عند مدينة "تادمكة" ، وعيّن لنا الطرق الخارجة منها، والموصلة إلى بعض الحواضر الشرقية لبلاد المغرب كغدامس والقيروان ، وهو في كل هذا الوصف أشبه ما يكون بوصف رحلة انطلقت من مناطق المغرب الأقصى ، ودخلت السودان الغربي ثم الأوسط ، وبعدها قفلت راجعة من الجهة الغربية إلى بلاد المغرب .

إن المطّلع على كتاب البكري لا يحتاج إلي كبير جهد ليتبيّن له أن كتابات هذا الأخير ركّزت بشكل واضح على وصف منطقة السودان الغربي ، وهي المنطقة التي استحوذت على جزء كبير من اهتمامات هذا المؤلف ، كون أنها كانت مركز الأحداث في ذلك الوقت المتزامن مع دعوة عبد الله بن ياسين ، وقيام الدولة المرابطية ، والصراعات التي شهدتها هذه الدولة مع السودانين من أجل تحقيق هذا الغرض ، وقد برزت في هذا الصراع مدينة غانة في بلاد السودان التي استحوذت بدورها على اهتمامات البكري ، واستغرقته في وصفها ، فقد توفّرت له معلومات موثّقة عنها نظرا لأهميتها التجارية في بلاد السودان ، وكتابات البكري عن بلاد السودان تكاد تكون كتابا عن مدينة غانة ، فهو يصف كل ما تعلّق بجوانبها الطبيعية كالمناخ والنبات والحيوانا ت والمياه ، كما يصف جوانبها البشرية كالتجارة والملك والسودانيين وعلاقتهم بالمسلمين ، وأما وصف بقية أقاليم السودان، فقد كانت بنفس طريقة وصفه مملكة غانة ، لكن حجم المعلومات الواردة كان يتفاوت من مدينة إلى أخرى بحسب حجم المعلومات المتوفرة عنها ، إذ يتضاءل وصفه تدريجيا كما أوغلنا في الجنوب ، وخير مثال على ذلك هو تحديده لطول الطرق بالمراحل في الشمال لكنه عندما يشير إلى المدن السودانية في الجنوب يكفي فقط بالإشارة إلى موقعها دون أن يبيّن مقدار بعدها أو قربها من مركز معين [1] ، ونظرا للشهرة التي كانت عليها مدينة غانة – سواء في بلاد المغرب أو في بلاد السودان – فقد اتخذها البكري مركزا لتحديد الأبعاد بين المدن السودانية ، فكان يُخبر في كل مرة أن هذه المدينة تبعد بمقدا ر معيّن عن هذا المركز ، وهو الأمر نفسه عندما يتحدّث عن العلاقات الخارجية لهذه البلاد يحاول دائما أن يربطها بمملكة غانة .

على الرغم من أهمية ما كتبه البكري ومحاولاته الجادة في استقصاء الأخبار وتمحيصها عن بلاد السودان ، فقد أورد فقرات تندرج ضمن الأمور الغير منطقية والخرافية فهو يعود بنا إلى امتداد بلاد السودان الذي ذكر في المصادر

[1] فثلا يقدم لنا البكري تحيدا لمسافة الطريق ما بين سلى – غانة ويقدرها بعشرين يوما ، والمسافة بين مدينة سلى وقلنبو يوما واحدا ،وحدّد المسافة بين غانة وسامقندي بأربعة أيام ، و لم يحدّد لنا المسافات التي تفصل بين المدن الجنوبية لبلاد السودان في الجنوب مثلا : ما بين مدينتي قلنبو و ترنقة وما بين ترنقة وزافقو وبلاد الفرويين .

السابقة بأنها مسيرة سبع سنوات وذكر الحية التي تعيش في بلاد زافقو ، وعلاقتها مع طول مدة الحكم [1] في موروث سوداني خرافي محلي .

المعرفة المحصلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في القرن (6 هـ/12م) .

وفي هذا القرن نجد ثلاثة مصادر جغرافية ذكرت بلاد السودان ، ومثّلت كتابات الزهري عن هذه المنطقة فاتحة لهذا القرن ، وإذا قارنا كتابات هذه الفترة بما كتبه البكري في القرن السابق ، تبين لنا أنّ هناك تراجعا واضحا في المعرفة ، وتمثّل بلاد السودان عند " **الزهري** " كامل المنطقة التي تمتدّ من البحر المحيط غربا ، وصولا إلى بحر القلزم وساحل الحبشة في الشرق ، وتقع جنوب مديني وارقلان ونول لمطة [3] ، وقد أدرج الزهري السودانان الغربي والأوسط تحت مسمّى واحد هو " جناوة " [4]، والملاحظ هنا أن بلاد السودان عادت إلى الاتساع الذي كانت عليه في كتابات ما قبل البكري ،كون أنها تمتد مباشرة ما بعد نول لمطة من الجهة الغربية ، وورقلان في الجهة الشرقية .

وصف الزهري كان مركزا على مدينة غانة كما فعل البكري من قبله ، ومثّلت بالنسبة له مركزا لتحديد الأبعاد في بلاد السودان ، فكانت مدينة غانة في هذه البلاد أشبه بما كانت عليه مدينة القيروان في بلاد المغرب ، وأما ما يتعلق بالسودانيين فقد أشار الزهري إلى إسلام أهل "غانة "و"تادمكة" ، وأشار إلى علاقات هاتين المدينتين الإسلاميتين مع البلاد الجنوبية خاصة مع "أميمة "و"بربرة" الوثنيتين اللتين كانا تشكّلان مصدرا مهمّا للعبيد الناتج عن إغارة السودانيين عليهما .

وبعد الزهري تطالعنا كتابات " **الإدريسي**" الذي حقّق أسبقية وتميزا واضحين من بين باقي الجغرافيين، فقد شكّلت المعلومات التي أوردها قمّة المعارف الجغرافية العربية عن بلاد السودان الغربي ، وقد ساعد الإدريسي على هذا طبيعة المنهج الذي اعتمده ، بحيث قسّم بلاد السودان إلى مجموعة من الأجزاء موزّعة على الإقليمين الأول والثاني ، وهو ما سمح له بأن ينظم معلوماته ويجعلها مركزة من غير أن يتشتت ذهنه بسب وفرتها عن هذه الأقاليم ، فكان

---

[1] البكري ، المسالك والممالك ، ج2، ص 361.

[2] عدد المصادر الجغرافية المدوّن في هذا القرن هو ثلاثة مصادر .

[3] الزهري ، الجغرافية ، ص 119.

[4] نفسه ، ص 125.

الانتقال من وصف جزء معيّن يعني عدم العودة إليه مجدّدا ، فكان يقدم لنا في وصف كل جزء من الأجزاء قائمة عنه بمجموعة مدنه المشهورة ، فجاء تقسيمه للمدن السودانية على النحو التالي :

الإقليم الأول : تتوزّع فيه مدن بلاد السودان على الأجزاء الثلاثة الأولى وفيه من المدن :

- الجزء الأول : أوليل ، سلى ، تكرور ، بريسي ، دو ، مورة .
- الجزء الثاني : ملل وغانة وتيرقى ومداسة وسغمارة وغيارة وغربيل وسمقنده .
- الجزء الثالث : كوغة وكوكو وزغاوة ومانان وانجمي ونوابية وتاجورة .

الإقليم الثاني : تتوزّع فيه مدن بلاد السودان على الجزئين الأولين وفيه من المدن :

- الجزء الأول : بقية أرض مقزارة السودان ، أرض قمنورية ، صحراء نيسر .
- الجزء الثاني : بقية صحراء نيسر ، جملة أرض فزان ، جملة بلاد من أرض زغاوة السودان .

يصف الإدريسي مدن كل جزء على حدة مراعيا في ذلك ترتيبها الجغرافي ، بحيث يتّجه في وصف لهذه المدن من الغرب إلى الشرق فيصفها مدينة إثر أخرى ، ووصفه يطال جميع المعلومات المتوفّرة له سواء تعلّقت بالجانب الطبيعي :كالجبال والرمال والأنهار والحيوانات والمزروعا ت أو بالجانب البشري : كالأجناس السودانية المختلفة ، والعمارة ، ونظام الحكم ، والعلاقات الداخلية والخارجية بحسب ما توفر للإدريسي من معلومات حول هذه المدن .

فالإدريسي يجعل من وصف المدن قاعدة لوصف بلاد السودان ، بمعنى أن الإدريسي ينتقل من الجزء إلى الكل فعندما نجمع وصفه للأجزاء الإقليمية المخصصة لبلاد السودان ، ينتج لنا وصف شامل لهذه المنطقة ، وهو الأمر الذي يبدوا أكثر وضوحا في الخرائط التي رسمها لهذه المنطقة ، فإذا جمعنا الخرائط الجزئية وصلنا إلى خريطة عامة ليست لبلاد السودان فحسب ، بل لكل العالم المعروف آنذاك، وأما النقطة المهمّة في وصف الإدريسي فهي تخصيصه للأحكام ، على عكس ما كان سائدا في الفترات الأولى للدراسة ،أين كانت تعمّم الأحكام على كل السودان [1] ، فإن الإدريسي أقصر أحكامه على أجناس وعلى أقاليم دون أخرى ، وهو ما يوضّح الفهم الجيد لهذا النسيج الطبيعي والبشري لبلاد

[1] كأن يقال بأنه ليس في جميع أرض السودان خنزير بري ولا أيل ولا عير ولا تيوس ، أو تعميم الكفر أو الإسلام على كامل السودان ، من دون استثناء انظر مثلا : ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص155.

السودان ، وتبقى المناطق التي كانت محلّ اهتمام الإدريسي واستغرقته في الوصف ، هي منطقة الجزء الثاني من الإقليم الأول ، وبدرجة أقل منها الجزء الأول من الإقليم الأول .

ويُختتم هذا القرن بمؤلف " **الاستبصار**" الذي لا يعدوا أن يكون عبارة عن إعادة تنظيم وصياغة لمعلومات البكري في القرن الخامس هجري، فهو ينتهج نفس طريقة البكري في التقسيم ، ويفرّق بين بلاد الصحراء ، وبلاد السودان ، وقد أفرد فصلا لبلاد السودان بعنوان " **ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة وعجائبها ونبذ من سير ملوكها** "[1] وقد أقصى مدينة أودغشت من حدود بلاد السودان ، وجعلها تتبع لبلاد المغرب كما فعل البكري من قبله تماما ، وفي هذا الجزء نجد بأن صاحب هذا الكتاب يعيد كلام البكري حرفيا ، والاختلاف بينهما في أن البكري يجعل وصف بلاد السودان مرتبطا بوصف الطرق التي تربط بين حواضرها [2] ، في حين أن صاحب الاستبصار يجعل وصف المدن هي القاعدة لوصف بلاد السودان بحيث يتشابه في ذلك مع الإدريسي ، ولكن كحكم نهائي على هذا المؤلف أنه لا يضيف جديدا للمعرفة العربية عن بلاد السودان .

المعرفة المحصّلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في القرن (7 هـ| 13م) [3].

تطغى المصنفات المشرقية على هذا القرن فمن بين ثلاث مصادر جغرافية مخلّفة عن هذه الفترة اثنان منها لكاتبان مشرقيان والآخر لمؤلف مغربي ، وهما أقل إضافة وأصالة عمّا كُتب في الفترة السابقة ، فلا يقدم **ياقوت الحموي** أي جديد من شأنه أن يبيّن لنا أن هناك تطورا جديدا للمعرفة العربية عن بلاد السودان ، والسبب من وراء هذا أن هذا الكاتب مجرّد ناقل للمعارف السابقة ، وجامع لشتات المادة المتفرّقة ، وهو على الرغم من أنه كتب في القرن السابع الهجري ، إلاّ مادته لا تتزامن مع هذه الفترة ، فهو يستشهد بكتابات تعود إلى كُتّاب المرحلة الأولى مثل ابن الفقيه[4] في القرن الثالث هجري ، والمهلبي [5] في القرن الرابع هجري ، وأحيانا أخرى يستشهد بما كتبه البكري في

---

[1] مجهول ، الاستبصار ، ص ص 217- 226.

[2] وردت العناوين الفرعية المتعلّقة بوصف بلاد السودان عند البكري في شكل وصف لطرق رابطة بين مناطق مختلفة في بلاد السودان وضمن هذا الوصف للطرق تُذكر المحطّات التجارية والأجناس السودانية وبعض العادات والتقاليد ...

[3] عدد المصادر الجغرافية المدوّن في هذه الفترة هو ثلاثة مصادر .

[4] ياقوت الحموي ، معجم البلدان , ج2،ص 12.

[5] يستشهد ياقوت الحموي من كلام المهلبي في معجم البلدان في هذه المواضع: ج1،ص240و277 وج3،ص 142 وج4،ص295.

القرن الخامس هجري[1] ، وهو لا يتجاوز هذا النطاق الزمني بخصوص بلاد السودان ، وهو ما يجعل معلوماته تتخلّف بقرنين من الزمن عن الحقيقة ، فهو لا يزال يحدثنا عن التجارة الصامتة [2] في وقت نشهد فيه بعمق الصلات التجارية والثقافية بين المنطقتين ، والجدة في كتابات الحموي هي ترتيبه للمادة الخبرية وفق حروف الهجاء ، إلى جانب محاولته لضبط أسامي المدن والممالك وهو الهدف الأساسي له من وراء وضعه لهذا المعجم .

وبعد الحموي نجد ما كتبه **القزويني** وهو يتميّز ببعض الأصالة في الجزء الذي اعتمد فيه على نفسه ، من خلال استقصاءه للأخبار عن بلاد السودان ، وهو الجزء الذي يُعبّر عن معلومات متزامنة مع الفترة التي عاش فيها هذا الكاتب ،كون أنه تحصّل على معلوماته من أحد المعاصرين له ممّن دخل بلاد السودان [3] على العكس من الجزء الذي نقله عن غيره ،كابن الفقيه أحد كتاب القرن الثالث هجري ، فهذا الجزء لا يعبّر عن الواقع الحقيقي للمعرفة في هذا القرن ، وبخصوص الإضافات الجديدة لهذا الكاتب ، فهي تتعلّق بتحديده لبلاد السودان التي هي عنده عبارة عن تلك المنطقة التي ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى البحر المحيط [4] ، وفي هذا التحديد جعل الحدود الغربية لبلا د السودان تتقدّم كثيرا إلى الشمال ، فجعل مدينة زويلة أول حدود السودان [5] ، وأما كوار وغدامس فهما ضاربتان في العمق السوداني [6] ، وأما من جهة المغرب فإن بلاد السودان تمثّل جميع المناطق الجنوبية لمدينة سجلماسة ، وقد أشار إلى بلدة جنوب هذه المنطقة هي "تغازة " وذكرها بتسمية "تغارة" [7] السبخة التي فيها معدن الملح الملح والشّب ، وهي البلدة التي لم يذكرها أحد قبله ، ما يعكس لنا تطورا جديدا في معرفة بلاد السودان في هذا العصر

---

[1] يستشهد ياقوت الحموي في معجم البلدان من كلام البكري في المواضع التالية : ج1، ص 228 و ج3،ص 160 ،432.

[2] ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج2، ص ص 12- 13.

[3] نقل الأخبار عن الفقيه "علي الجنحاني" المغربي والفقيه "أبو الربيع الملتاني" .

[4] القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص24.

[5] نفسه، ص 94.

[6] نفسه، انظر مادتي: غدامس ص 57، كوار 59.

[7] نفسه ، ص ص 25- 26.

، ولكن ما يُعاب على كتابات القزويني هي قلّة المعلومات الواردة في معجمه ، وهو الأمر الذي يعود تفسيره إلى عدم إطلاع هذا المصنف على المصنفات المغربية المؤلفة في هذا الخصوص بحكم أنه مشرقي الأصل[1] .

وأما الكاتب المغربي الذي كتب في هذا القرن فهو " **ابن سعيد**" صاحب كتاب الجغرافية الذي استطاع أن يحفظ لنا مادة قيمة عن بلاد السودان ، وعلى الرغم من اعتبار أن الفضل في كل ذلك يعود للرحّالة ابن فاطمة الذي كان المصدر الأول لابن سعيد ، إلا أن ضياع هذا المصنف زاد من أهمية ما كتبة ابن سعيد باعتبار أنه حفظ لنا أخبار هذا الرحالة في بلاد السودان ، وهو الذي كان يصف ما كان يراه مباشرة وعليه فإن كتابات ابن سعيد تعبّر عن أصالة واضحة ترقى إلى أصالة البكري والإدريسي .

كان ابن سعيد حريصا على أن يدرج جميع المعلومات التي تجمّعت في عصره عن مناطق الجنوب المأهولة ، فلذلك أدخل على نظام الأقاليم السبعة بعض التعديل بحيث أضاف إقليمين آخرين أطلق عليهما اسم " **ما وراء الأقاليم** " ، وبدلا من خط الاستواء الذي تبتدئ عنده على وجه التقريب الأقاليم التقليدية ، فقد ابتدأ ابن سعيد وصف أقاليمه عند درجة 16 عرض – جنوبي [2] مخالفا في ذلك ما سبقه من الكتابات الجغرافية التي لا تمتد إلى أبعد من خط الاستواء ، وعليه فإن حدود بلاد السودان الجنوبية انزاحت أكثر إلى الجنوب مع ابن سعيد ، وفي الجزء الأول من المعمور خلف خط الاستواء ، عيّن ابن سعيد مدينتين سودانيتين هما "كو" و "زفو" ، وفي الجزء الثاني عيّن مدينة "زغنة" واكتفى بتحديد إحداثيات هذه المدن دون أن يخوض في باقي التفاصيل، بحيث لم تتوفر له المعلومات الكافية عن هذه المنطقة كون أنها موغلة في الجنوب .

لقد تطرّق ابن سعيد إلى وصف بلاد السودان فذكر مدنها مرتّبة على أجزاء الأقاليم ، ووصف مميزاتها الجغرافية من مظاهر السطح التضاريسية المختلفة كالجبال والأنهار ، كما وصف الحيوانات والنباتات المنتشرة في هذه المنطقة ، ووصف سكّانها وعلاقاتهم، ولباسهم ومأكولاتهم ،كما أشار إلى تواجد الإسلام في هذه المنطقة ، وعلى الرغم من

---

[1] نسبة إلى قزوين بلدة تقع في شمال إيران وقد ذكر ياقوت الحموي بأنها مدينة مشهورة بينها وبين الرّيّ سبعة وعشرون فرسخا وإلى أبهر اثنا عشر فرسخا، وهي في الإقليم الرابع، طولها خمس وسبعون درجة، وعرضها سبع وثلاثون درجة،.ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج 04، ص ص 342- 344.

[2] ابن سعيد ، الجغرافيا ، ص 56.

إطلاعه على المصنّفات التي سبقته كالبكري والمسعودي ، إلا أنه لا يتأثر بهما في تعابيره ، إذا كان يعيد من جديد صياغة ما كان يقرأه بأسلوبه الخاص.

لقد حاول ابن سعيد في وصفه لبلاد السودان أن يركّز اهتمامه على تحديد المكان بدقة ، فلم يتبع منهج الوصف كما فعل البكري والإدريسي ، ولكنه وجد أن التحديد الفلكي المتضمّن تعيين إحداثيات المنطقة أدق من الطريقة الوصفية التي تعتمد على تعيين المواقع انطلاقا من تعيين قربها أو بعدها عن مركز آخر بالفراسخ أو بالأميال أو بالمراحل أو بالأيام ، فهذه الطريقة التي اعتمدها ابن سعيد من شأنها أن تزيد من فرص الصواب وتقلل من الأخطاء .

أما النقطة المهمة التي يمكن استنتاجها من وصف ابن سعيد فهي بداية ظهور ممالك السودان الأوسط المنتشرة على بحيرة "التشاد" إذ يسميها ابن سعيد ببحيرة "كوري " ويجعلها منبعا لنهر النيجر الذي يسميه بالنيل ، وهو أول من أشار إلي هذه البحيرة بهذه التسمية لتشتهر بعدها بهذه التسمية لدى بقية الجغرافيين الآخرين .

المعرفة المحصلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في القرن (8 هـ/14م)[1].

لقد وصف ت . لويكي هذه الفترة بأنها فترة حوصلة وإعادة اعتبار لبلاد السودان من طرف العرب ، وفي الواقع فإن قيام هيمنات سياسية جنوب الصحراء ، إلى جانب الموقع الذي احتلته إفريقيا السوداء في العلاقات الدولية ، والذي كان ينمو باطراد خلال القرنين (8/7هـ)(14/13م)، قد جلبت اهتمام الطبقات الحاكمة والنخبة المثقفة في بلدان البحر الأبيض المتوسط [2]، كما شهد هذا القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر ميلادي مولد عدد من المؤرخين المعروفين واشتهرت مؤلفاتهم في الآفاق، ومن ثمّ فإن ظهور الكتابات الجغرافية في هذا القرن، ما هي إلا امتداد طبيعي لهذا الفيض من المؤرخين، ولّما كان العالم الإسلامي متّصلا ومتواصلا، ورحلات الرحالة وزيارات التّجار والسفراء، وتنقّلات العلماء والأدباء من وطن إلى آخر لا تنقطع، وكان سلاطين هذه العصور يهتمون بطرق التّجارة

[1] ارتفع عدد المصادر الجغرافية المّدون في هذا القرن فوصل ستة مصادر مقارنة مع القرن السابق الذي ضم ثلاثة مصادر فقط .

[2] يوري . ك ، فال ، << المصادر العربية للتاريخ الإفريقي التقييم والآفاق>> ، تجارة القوافل ودورها الحضاري ، ص 204.

والقوافل والبريد لذا أقاموا عليها العمارات وأنشأوا الرباطات، وأمنوا السالكين في الآفاق، ولذلك كانت أخبار الممالك الإسلامية معروفة ومتداولة، لا تخفى خافية عن جوابي البلاد من الرحالة والمؤرخين[1].

ففي بداية هذا القرن تطالعنا كتابات كل من "**أبي الفداء**" و"**النويري**" وهي كتابات لا تضيف جديدا للمعرفة العربية عن بلاد السودان ، إذ أنها عبارة عن إعادة تجميع للمعارف المحصّلة طيلة الفترة السابقة ، فبينما كان أبو الفداء يعتمد بشكل كلّي على ابن سعيد والإدريسي والمهلبي ، فإن النويري وسّع دائرة المصادر التي نقل عنها ، غير أن النقطة المهمّة التي نلحظها هي الجمود وغياب الأصالة عند هاذين المُصنّفيْن .

أما **العمري** فإنه يختلف تماما عن الجغرافيين السابقين ، وتُعتبر المعلومات التي قدّمها لنا من أهم المعلومات المحصّلة في القرن ، فقد جمع معارفه عن هذه المنطقة في كتابين مُهمّين هما " **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** " و " **التعريف بالمصطلح الشريف** "[2] وترجع هذه الأهمية التي اكتسبها العمري إلى أنّه لم يكتف فقط بالنقل من المصادر السابقة ، إذ إنه تحرّى جهده واستقصى أخباره بطرق شتّى ، ومع العمري نشهد التطور السّياسي الحاصل في بلاد السودان ، فبعد أن كنّا نجد تركيزا واضحا في الكتابات السابقة على مناطق السودان الغربي ، فإن كتابات العمري واكبت التغير السياسي الذي انتقل بموجبه مركز السلطة من السودان الغربي إلى السودان الأوسط ، وذلك بعد انهيار مملكة غانة ، وقيام مملكة مالي ، ويُعتبر الباب العاشر من موسوعة العمري الضخمة " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " من أخصب النصوص التاريخية التي نملكها عن مالي [3] ، وقد يُرجع البعض هذا التركيز والاهتمام بمنطقة السودان الأوسط إلى القرب الجغرافي بين مصر وهذه المنطقة ، وهو تفسير ناقص إذا لم تُضف له القوّة التّي كان عليها سلاطين مالي في هذا العهد ، إذ توسّعت هذه البلاد لتشمل إقليما واسعا من مناطق جنوب الصحراء ، وشملت المملكة شعوبا وأجناسا مختلفة ، ولنا في رفض سلاطين مالي تسميتهم بملوك التكرور خير دليل على ذلك ، بحجة لأن في هذا حدٌّ من

[1] العمري ، مسالك الأبصار ، ج3 ، ص 13.

[2] العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ، مطبعة العاصمة ، 1895.

[3] أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 28.

سلطتهم [1] ، لأنّ التكرور إنما هو إقليم من أقاليم المملكة، والأحبّ إليهم أن يقال: "صاحب مالّي" لأنّه الإقليم الأكبر، وهو به أشهر [2] .

طريقة العمري في وصف البلدان لا تختلف عن بقية المصادر الجغرافية السابقة ،كالوصف عند البكري أو الإدريسي ، وبذلك يعدل العمري الكفة من خلال إبرازه للمناطق الوسطى من القارة كمملكتي مالي وكانم وخاصة وأن معلوماته ذات أصالة ومصداقية ،كون العمري اعتمد على منهجية صارمة في الوصول إلى الخبر الصحيح، لتصبح لدينا مع هذا المؤلف مادة قيّمة عن جميع أجزاء بلاد السودان .

وبعد العمري تتقهقر المعرفة مع **الحميري** إذ يعيدنا إلى عهد سابق للمعرفة هو عهد الإدريسي والبكري والأمر يختلف مع **ابن بطوطة** الذي جاءت كتابات مسايرة لكتابات العمري الذي ركزّ كثيرا على محاولة إبراز مناطق السودان الأوسط ، وعلى الرغم من أن ابن بطوطة من أهل بلاد المغرب الأقصى وهي أقرب إلى السودان الغربي ، إلا أن وصفه كان مركزا على منطقة السودان الأوسط ، وهو الأمر الذي يُشير إلى انتقال مركز الثقل والقوة في هذه الحضارة إلى هذه المنطقة .

حاول ابن بطوطة أن يصف لنا كل ما كانت تقع عليه عيناه طيلة الرحلة ، فوصف لنا الطريق إلى بلاد السودان الذي يبدأ من سجلماسة وصولا إلى مملحة "تغازة " التي ذكرها القزويني في ما سبق ، أصبحت في عهد ابن بطوطة مركزا تجاريا مهمّا يُتعامل فيه بالقناطير المقنطرة من التّبر ، وذكر ابن بطوطة مشاق قطع هذه الصحراء إلى إيوالاتن التي تُعتبر حدا فاصلا بين نهاية مجال بلاد المغرب الإسلامي وبداية لبلاد السودان ، ومن هذه المدينة توجّه إلى مملكة مالي ،ولم يغب وصف ابن بطوطة لهذا الطريق والمدن التي نزل بها ، ثم استوقفت مملكة مالي طويلا ، فذكر سلطانها وعدله وجلوسه على عرشه ، وتذلّل السودانيين له ، وفعله في أيام الأعياد وضيافتِه له ، وإحسانِه إليه ، ولقد أُعجب ابن بطوطة ببعض أفعال السودان ،كما استقبح منها البعض الآخر ، ومن مالي سافر إلى تكدا التي لم يلبث بها كثير ، إذ انتقل بعدها مباشرة إلى توات ومنها قفل راجعا إلى فاس .

---

[1] أشار العمري إلى أن أهل مصر يتداولون مصطلح "التكرور" للدلالة على بلاد السودان وهي التسمية التي كان ملوك مالي يأنفوها ، العمري ، مسالك الأبصار ،ج04، ص 107.

[2] نفسه ج04، ص 108.

استغرقت رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان سنتين كاملتين وكان وصفه لطريق الذهاب أهم من وصفه لطريق العودة على الرغم من أنها كانا طريقان مختلفان .

وأما كتاب **القلقشندي** " صبح الأعشى في صناعة الإنشا" فهو عبارة عن إعادة تجميع للمادة السابقة ، فهو يعتمد بشكل أساسي على كتابي العمري " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " و " التعريف بالمصطلح الشريف " . والمادة التي أوردها عن بلاد السودان جاءت مركزة على مملكة مالي وهي في الغالب جاءت عن نقل من هاذين الكِتابين.

وعليه فإن المعرفة عموما في هذه الفترة لم تكن ذات نسق تطوري مستمر ، بل إنها كانت في تقدم وتراجع طيلة فترة الدراسة ، وهو الإطار الزمني الذي يمثّل فيه كل من البكري والإدريسي قمة المعرفة الجغرافية التي تحققّت عن المناطق الغربية لجنوب الصحراء الإفريقية أو ما يسمّى ببلاد السودان الغربي ، ويمثّل فيه العمري القمة الثانية للمعرفة بخصوص المناطق الوسطى لهذه البلاد ، وأما ابن بطوطة فتمثل رحلته قمة الأصالة الخبرية والدقة الوصفية ، وأما كتابات ابن سعيد المغربي والقزويني فتختلف فيها النسب المعرفية المضافة ، وهي لا ترقى إلى كتابات الجغرافيين المذكورين سلفا لكنها أيضا تفضل بقية كتابات هذه الفترة ، وماعدا هذه الأسماء فإن باقي المصادر الجغرافية ما هي عبارة عن إعادة تكرار وترتيب للمعلومات الواردة في المصادر السابقة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

□خاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في نهاية هذه الدراسة تقف أمامنا مجموعة من الحقائق والنتائج المتعلّقة بالكتابة الجغرافية عن بلاد السودان ، والتي لا تخفى على من اطّلع على هذه الرسالة أن يصل إليها وأن يستنبطها ، ولّما كانت الأعمال والبحوث العلمية بنتائجها وبخواتمها فقد اخترت أن تكون خاتمة هذه الرسالة ملخّصا لأهم النتائج التي توصّلت إليها طيلة فترة البحث موضّحة في النقاط التالية :

- مجموعة متنوّعة من الكتب الجغرافية العربية تطرّقت إلى ذكر بلاد السودان ابتداء من القرن الثاني هجري ، الموافق للقرن الثامن الميلادي ، وصولا إلى القرن الثامن هجري ، الموافق للقرن الرابع عشر ميلادي ، وشكّلت لنا المعلومات التي تضمّنتها هذه المصادر الجغرافية أهمّ المصادر التي نمكلها على الإطلاق عن وصف أو ذكر بلاد السودان ، بل إنها أحيانا كانت تمثّل إمّا المصدر الوحيد أو الأهم الذي نملكه عن تاريخ فترة معيّنة لهذه المناطق كما تمثّل إلى جانب ذلك ، المصدر الأساسي والموثوق به في دراسة ماضي العالم الإسلامي ،إذ تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافي فحسب بل أيضا لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الأدب والعلم والدين، وللّغويين وعلماء الطبيعة.
- قد يتبادر إلى ذهن القارئ من خلال تسمية هذه المصنفات بالجغرافية أنها عُنيت فقط بوصف ما يتعلق بمظاهر السطح الطبيعية والتضاريسية ، لكن هذا الأمر يختلف كلية إذ إن هذه المصنفات حوت بين ثناياها حجما معلوماتيا مهما يتجاوز الوصف الجغرافي إلى ذكر الأنظمة السياسية والدينية واللغوية والعرقية والاجتماعية ...
- على الرغم من الانتشار الكبير للتجارة بين بلاد المغرب الإسلامي وإفريقيا جنوب الصحراء ، واهتمام الأنظمة السياسية بها ، ومشاركتها في الحركة التجارية وربط علاقات دبلوماسية مع ملوك السودان ،إلاّ أن حجم المعلومات الواردة عن هذه المناطق في الفترة الأولى المخصصة للدراسة لا تعكس بحقّ هذه القوة في التجارة ، والسبب راجع إلى غياب تقاليد كتابية في هذه المرحلة خاصة في بلاد المغرب ، لكن هذا الأمر يختلف في المرحلة الثانية إذ أننا نجد أن حجم المعلومات وتنوعها يعكس مدى تطور العلاقات بين المنطقتين .
- معلومات المرحلة الأولى كتبها المشارقة ، وحقّق البعض منهم امتياز الوصول إلى بلاد المغرب وتقصوا معلوماتهم عن بلاد السودان من هذه المنطقة وهذا ما يعكس سطحية المعلومات الواردة عن هذه المنطقة ،فكانت معلومات عامية

تعكس في كثير من الأحيان ما هو متداول بين الأوساط الشعبية وكانت مصادر الخبر تعبر بحال من الأحوال عن نوعية هذه المعرفة ، وكل المحاولات الكتابة تمت انطلاقا من مجهود شخصي من قبل هؤلاء المصنّفين ، لكن في الفترة الثانية تولى المغاربة أنفسهم تدوين المعلومات التي توفرت لهم عن بلاد السودان ، وحققوا بذلك الريادة مقارنة بما دوّنه المشارقة ، ساعدهم على ذلك قرب بلاد السودان من بلادهم ،كما أن فرص التحقّق من الخبر كانت كبيرة ، خاصة بعد أن كثرت نقاط احتكاك المسلمين بالسودانيين سواء كان هذا في الحج وعبورهم بالبلاد الإسلامية واستقرارهم بها ،أو من طرف العلماء السودانيين أو حتى من العبيد الأسود المنتشر بكثرة في بلدان المسلمين ، وتعكس لنا مصادر اعتماد الخبر في هذه الفترة عن نوعية المعارف وصدقها وتصويرها للواقع الفعلي في بلاد السودان ،فقد تجاوز أصحاب المصنفات ذكر المعلومات العامية وأصبح مصدر المعلومات في هذه الفترة مبنيا على شهادة العلماء أو الفقهاء أو حتى نتيجة معاينة ومشاهدة مباشرة كما فعله ابن بطوطة .

- تحكّمت الأنماط المعتمدة في عملية التأليف في نوعية المعلومات الواردة في هذه المصادر الجغرافية ،بداية بمصادر الجغرافيا الفلكية فالوصفية فالمعاجم الجغرافية فالرحلات فالموسوعات الكبرى [1] ،فهذه الأنماط التأليفية كانت مدعاة إلى التّنويع من أشكال المعلومة ، ما أعطى الثّراء لهذا النوع من التصنيف مقارنة ، مع باقي المصنفات الأخرى المتمايزة عن هذا النوع ، لكن هذه المناهج تسبّبت في مراحل معينة في الحدّ من حجم المعلومات وتراجعها .
- في الوقت الذي بلغ فيه الفكر الجغرافي ذروته في القرن الرابع هجري ، الموافق للقرن العاشر الميلادي ،كانت مناهج هذه الفترة المعتمدة في التصنيف تجعل بلاد السودان خارج دائرة الاهتمام .
- السودان مصطلح شائك ذو مفاهيم متعددة يختلف باختلاف المصنفين والزمن تتقدم حدوده إلى شمال الصحراء الكبرى في الفترات الأولى للكتابة الجغرافية ويتراجع إلى ما وراء أودغشت مع بعض أصحاب مصنفات الفترة الثانية.
- تعاملت المصنفات الجغرافية في بداية الأمر مع بلاد السودان على أنه كل متكامل والحديث يشمل هذا المنطقة والأحكام التي يصدرها المصنفون على هذا الإقليم أو على الأجناس التي تستوطنه تكتسي طابع التعميم لكن مع التقدم في الزمن نجد انتقالا نوعيا من التعامل المعمم إلى المتخصص في وصف مناطق معينة دون أخرى .

[1] بخصوص الأنماط المعتمدة في عمليات التدوين الجغرافي في الفترة الزمنية المخصصة للدراسة أنظر الملحق رقم :14 .وانظر كذلك الملحق رقم : 15 ، الذي يمثل توزيع أصناف الكتابات الجغرافية على القرون الزمنية المعتمدة في الدراسة .

- تحكّمت في حجم المعلومات الواردة عن بلاد السودان مجموعة من العوامل السياسية والدينية والتجارية والمذهبية .
- كان في إسلام السودانيين فرصة كبيرة لتغيير النمط الكلاسيكي عن معرفة هذه الأقاليم ، فطبيعة الإسلام التي تدعوا إلى نبذ الفوارق العرقية نقلتها إلى مرحلة جديدة للمعرفة كان المحرّك لطرف من أطرافها السودانيون أنفسهم ،فبعد أن كانوا في الفترة الأولى من الجمود والسلبية ، فإن المرحلة التي تلت إسلامهم أخرجتهم إلى العالمية ،وغيّرت الذهنية العربية عنهم ،خاصة بعد ما شهدنا من رحلات ملوكهم وعلماءهم إلى الحج ، ومشاركاتهم في المحافظة على الأنظمة السياسية أو تغييرها في بلدان المسلمين .
- واكبت المعارف المحقّقة في كتب الجغرافيا العربية الحركة التجارية بدرجة أولى ، فكان التّركيز واضحا على وصف الأمور المتعلّقة بالعمليات التّجارية ، ووصف وكل ما يمكن أن ينسب لها من كالطرق ،والمسالك التجارية ،والأسواق ،والمدن ذات الطابع التجاري ،كما كان انتقال التّجارة من منطقة إلى منطقة أخرى فرصة لكشف بعض الأمور والحقائق التي كانت غائبةعن هذه المناطق الجديدة سابقا .
- تراوح ذكر المدن السودانية ومراكز النشاط من منطقة إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى فعلى قدر النشاط التجاري كان حجم المعلومات متوفرا عن هذه المناطق .
- تتبع المعلومات الواردة في المصادر الجغرافية حسب الترتيب الزمني يمكننا من استنتاج فترات القوة والتراجع في المعرفة عن أقاليم بلاد السودان .
- تكرّرت ظاهرة النقل المباشر دون إعمال العقل والنظر في هذه الأقوال وهو ما أدى إلى استمرارية المعارف القديمة عن بلاد السودان .
- لم يتحقق لهؤلاء الكتاب أصحاب هذه المصنفات الجغرافية باستثناء ابن بطوطة الوصول إلى بلاد السودان وتدوين ملاحظاته من معاينة مباشرة وتجربة شخصية كما لا تعني عملية الرحلة والوصول إلى بلاد السودان أنها المصدر الوحيد المحقق للمعرفة فهناك من كتب عن هذه الأقاليم دون أن يصل إليها ومثلت كتابته مصدرا مهما عن هذه المناطق .
- تواجد أصحاب المصنفات الجغرافية ضمن مجال جغرافي واسع ممثل في الدولة الإسلامية بين لنا التنوع والاختلافات الحاصلة في معرفة بلاد السودان من منطقة إلى منطقة أخرى ،وانعكست أهميته في كونه حفظ لنا أشكال التواصل

المعرفي بين أقطار العالم الإسلامي كبلدان المشرق الإسلامي ومصر وبلاد المغرب والأندلس من جهة ، وبلاد السودان من جهة أخرى .

- لم تكن المصادر الجغرافية تعبّر عن جميع أشكال المعرفة المحصّلة عن بلاد السودان ، و لم يكن عدد المصنفات المدوّن في فترة معينة ، يعكس لنا تطورا في المعرفة ، فالقرن الخامس هجري مثلا ، لا نجد فيه إلا كتاب واحد للبكري ، لكنه يفضل في المعلومات التي أوردها عن جميع المصنفات التي سبقته .

وعليه فإن للمصادر الجغرافية العربية من الأهمية بما كان مما لا يدع لدارس تاريخ بلاد السودان عذرا من تجنبها أو تجاهلها ، وهذا الأمر لا ينطبق على هذه البلاد فحسب ، بل إنه ينطبق كذلك على بقية مناطق العالم الإسلامي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملاحق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم: 01.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خريطة جغرافية تمثل المناطق التي انتهى إليه علم جغرافيي القرن الثاني ميلادي عن دواخل القارة الإفريقية

المصدر: كولين ماكيفيدي، أطلس التاريخ الإفريقي، ت، مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص 64.

ملاحظة:

اعتمدت في إنجاز هذه الجداول الإحصائية- التي حوّلتها إلى أعمدة بيانيّة- على مجموعة المصادر الجغرافية التي كُتبت في الفترة الزّمنية الممتدّة من القرن (2هـ/7م) حتى القرن (8هـ/14م) فاتّضح لي أن عددها الإجمالي 26 مصنفا جغرافيا قدّمت لنا معارف مختلفة تخصّ بلاد السودان والسودانيين، وبعد دراسة هذه المصادر تبيّن لي أن فيها من المميّزات والخصائص ما يجعلها تُقسّم على فترتين زمنيتين تمتدّ الفترة الأولى من القرن (2هـ/8م) حتى منتصف ق (5هـ/11م) وتضمّ 13مصدرا جغرافيا، وأما الثانية فتمتد من منتصف القرن (5هـ/11م) حتى القرن (8هـ/14م) وتضمّ بدورها نفس عدد مصادر المرحلة الأولى.

ملحق رقم: 02.

أصناف المصادر الجغرافية في الفترة الزمنية من ق (2هـ/8م) حتّى منتصف القرن (5هـ/11م).

أصناف المصادر الجغرافية	مصادر الجغرافيا الفلكية	مصادر الجغرافيا الإقليمية الوصفية		
		وصفي بلداني	إقليمي	كتابات المهلبي
عدد المصادر	05	04	03	01
		08		
العدد الإجمالي للمصادر	13			

جدول يمثّل عدد المصادر الجغرافية موزّعة على أصناف الكتابات الجغرافية الفترة الزمنية من ق (2هـ/8م) حتّى منتصف القرن (5هـ/11م).

رسم بياني يمثّل عدد المصادر الجغرافية موزعة على أصناف الكتابات الجغرافية الفترة الزمنية من ق (2هـ/8م) حتّى منتصف القرن (5هـ/11م).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم: 03.

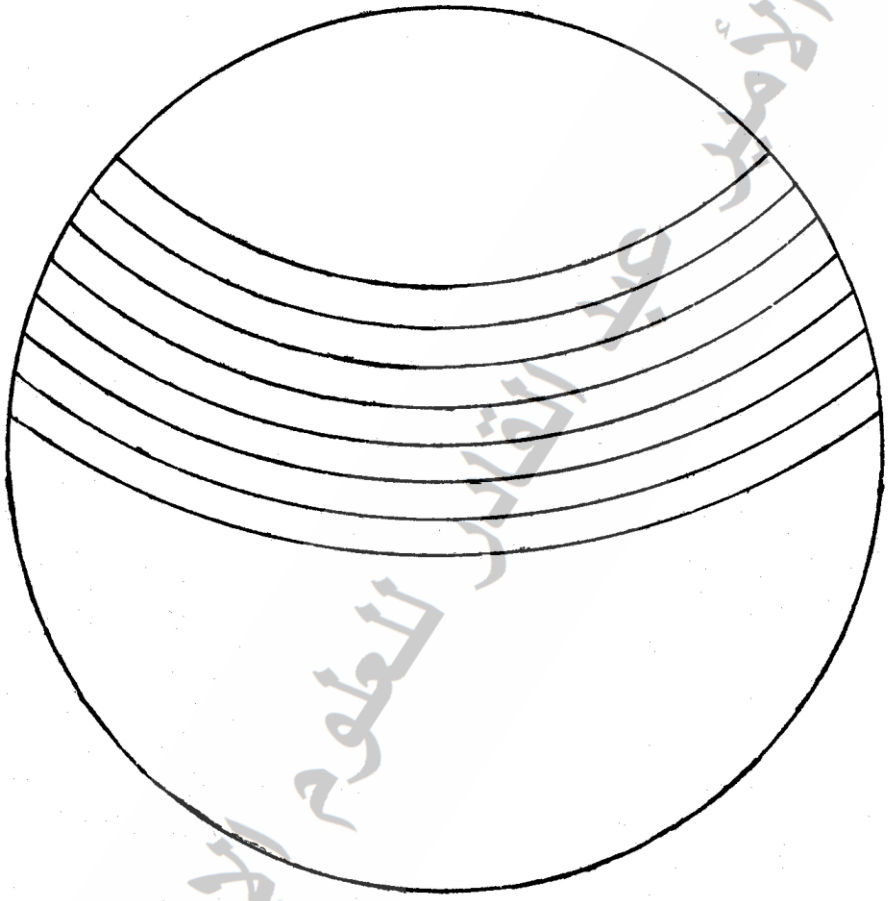

رسم توضيحي يبيّن طريقة تقسيم الخوارزمي للأقاليم

المصدر: الخوارزمي، صورة الأرض

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم: 04.

الأقاليم عند المسعودي ست دوائر تحيط بدائرة في المنتصف تمثل الإقليم السّابع .

موقع بلاد السودان في تقسيم المسعودي للأقاليم

المصدر : المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج1، ص 87 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم : 05.

الشكل رقم 01: موقع بلاد السودان في خريطة العالم للأصطخري.

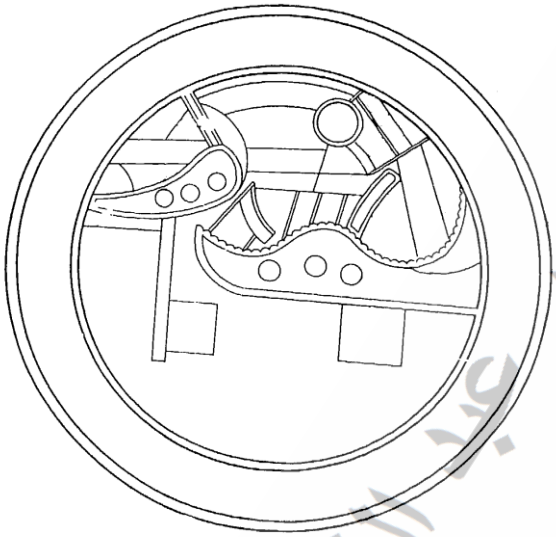

المصدر: محمد محمود محمدين، التراث الجغرافي الإسلامي، ص 211. ص 212.

الشكل رقم 02: موقع بلاد السودان في خريطة العالم لابن حوقل

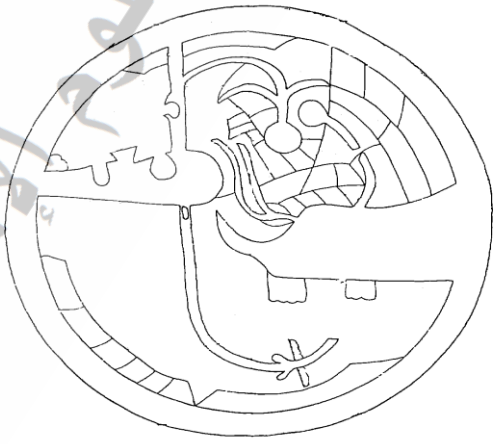

المصدر: محمد محمود محمدين، التراث الجغرافي الإسلامي، ص 211.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم: 06.

ويمثّل هذا الملحق الأماكن التي دوّنت فيها المصادر الجغرافية في الفترة الزّمنية الممتدّة من القرن (2هـ/8م) حتّى منتصف القرن (5هـ/11م)، وقد قسّمتها إلى أربعة أماكن هي :

المشرق : وقصدت به جميع المناطق شرق مصر بما فيها الجزيرة العربية وبلاد فارس، مصر: باعتبارها مركزا للخلافة الإسلامية زمن المماليك ومحطة مهمّة على طريق رحلات الحج السودانية، والمغرب: بوصفه يّضم المداخل الرئيسية للوصول إلى بلاد السودان المنعزلة على باقي العالم إلا من جهة المغرب، والأندلس: التي حملت مشاعل العلم والازدهار في تاريخ المسلمين.

	المشرق	مصر	المغرب	الأندلس
عدد المصادر	12	01	0	0

جدول يمثّل توزيع المصادر الجغرافية على أماكن التدوين الجغرافي في الفترة الزمنية الممتدة من القرن (2هـ/8م) حتى منتصف ق (5هـ/11م)

رسم بياني يمثّل توزيع المصادر الجغرافية على أماكن التدوين الجغرافي في الفترة الزمنية الممتدة من القرن (2هـ/8م) حتى منتصف القرن (5هـ/11م).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم: 07.

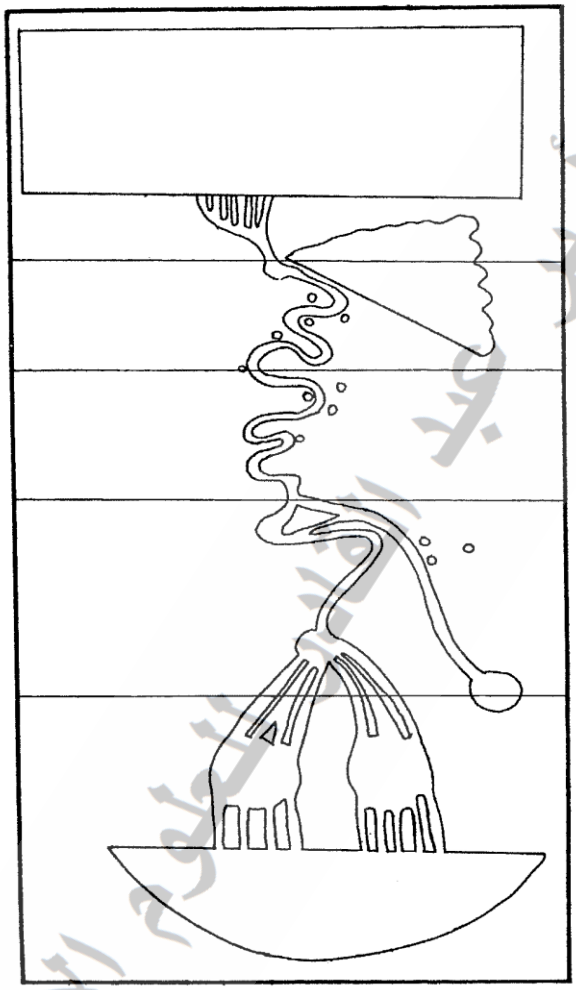

رسم توضيحي لنهر النيل من منابعه حتى مصبّه في البحر المتوسط كما رسمه الخوارزمي.

المصدر: الخوارزمي، صورة الأرض، ص 166.

ملحق رقم: 08.

توزيع المصادر الجغرافية على القرون: من ق (2هـ/7م) حتى ق (8هـ/14م):

القرون	ق 02	ق03	ق04	ق05	ق06	ق07	ق08
عدد المصادر	01	06	07	01	03	03	06

جدول يمثّل توزيع المصادر الجغرافية على القرون في الفترة الممتدّة من القرن (2هـ/7م) حتى القرن (8هـ/14م).

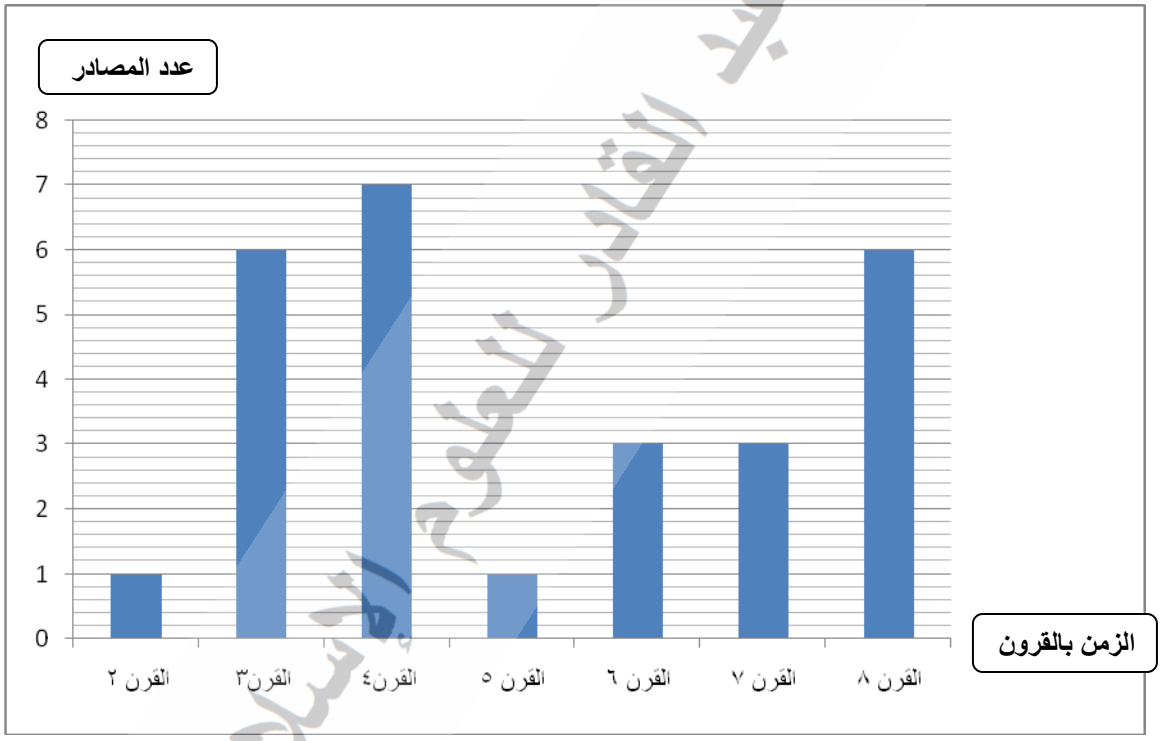

رسم بياني يمثّل توزيع المصادر الجغرافية على القرون في الفترة الممتدّة من القرن (2هـ/7م) حتى القرن (8هـ/14م).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم: 09.

يمثل هذا الملحق أماكن تدوين المصنفات الجغرافية في الفترة الزمنية من منتصف القرن (5هـ/11م) حتى القرن (8هـ/14م). وقد ضمت كتاب الإدريسي "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" إلى كتابات المغاربة على الرغم من أن تدوين هذا المصدر الجغرافي تم في صقلية في بلاط الملك روجر وذلك بحكم أن الإدريسي مغربي الأصل وكان قد عاش فيها مدة من الزمن قبل أن ينتقل إلى صقلية.

	المشرق	مصر	المغرب	الأندلس
عدد المصادر	03	03	04	03

جدول يمثّل توزيع المصادر الجغرافية على أماكن التدوين الجغرافي في الفترة الزمنية الممتدة من القرن (5هـ/11م) حتى القرن (8هـ/14م).

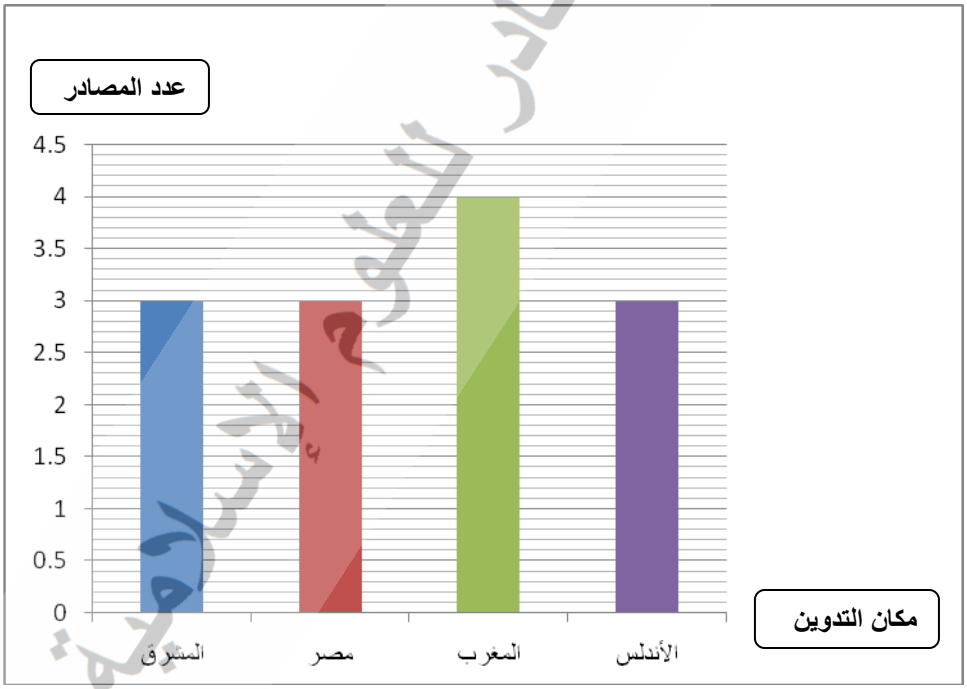

رسم بياني يمثّل توزيع المصادر الجغرافية على أماكن التدوين الجغرافي في الفترة الزمنية الممتدة من القرن (5هـ/11م) حتى القرن (8هـ/14م).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم: 10.

أصناف المصادر الجغرافية في الفترة الزمنية الممتدّة من منتصف القرن (5هـ/11م) حتى ق (8هـ/14م).

أصناف المصادر الجغرافية	الجغرافية الوصفية			المعاجم	الموسوعات	الرحلات
عدد المصادر	وصفي بلداني	إقليمي وصفي		03	03	01
	02	نمط01 02	نمط02 02			
	06					
العدد الإجمالي للمصادر	13					

جدول يمثّل عدد المصادر الجغرافية موزّعة على أصناف الكتابات الجغرافية في الفترة الزمنية الممتدّة من منتصف ق (5هـ/11م) حتى القرن (8هـ/14م).

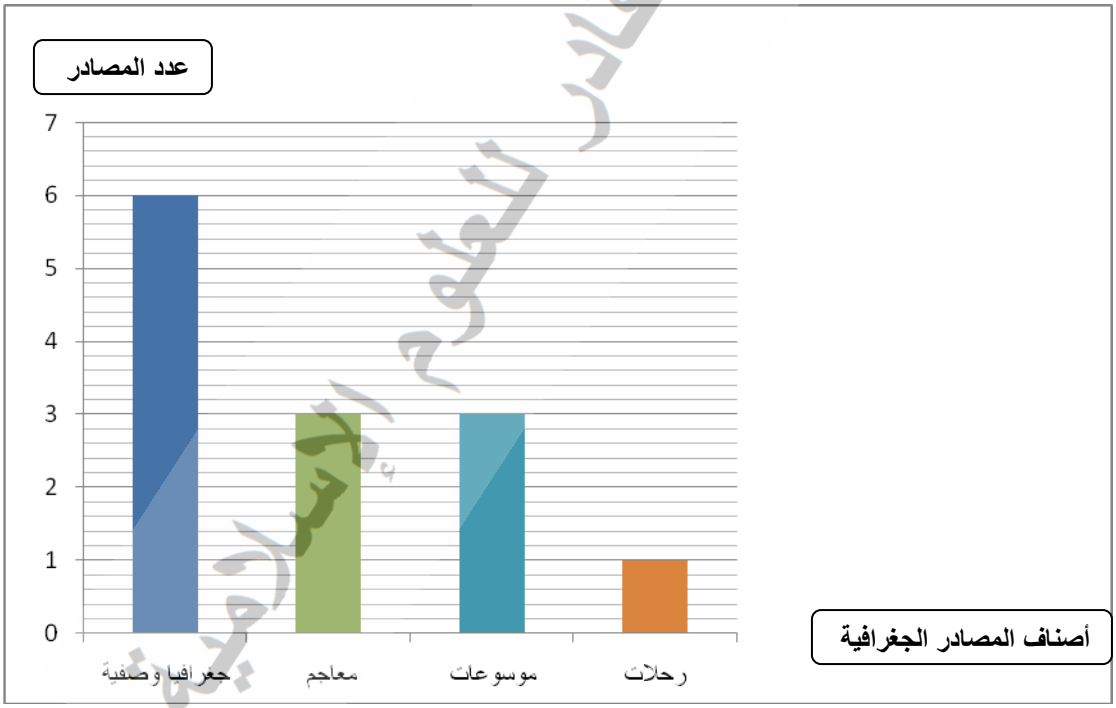

رسم بياني يمثّل عدد المصادر الجغرافية موزّعة على أصناف الكتابات الجغرافية في الفترة الزّمنية الممتدّة من منتصف القرن (5هـ/11م) حتى القرن (8هـ/14م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

□ملحق رقم : 11.

وردت المعلومات التي تخصّ بلاد السودان الأوسط والغربي في الإقليم السابع في الصقع الثالث الذي أطلق عليه □الزهري اسم "جناوة".

□موقع بلاد السودان في تقسيم الزهري للأقاليم

المصدر : الزهري ، كتاب الجغرافية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم: 12.

الشكل 01: رسم توضيحي يبيّن موقع بلاد السودان في التقسيم الإقليمي للعالم عند الإدريسي. وقد قسّم الإدريسي العالم إلى سبعة أقاليم في شكل خطوط متوازية تمتد من الغرب إلى الشرق ثم قسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء

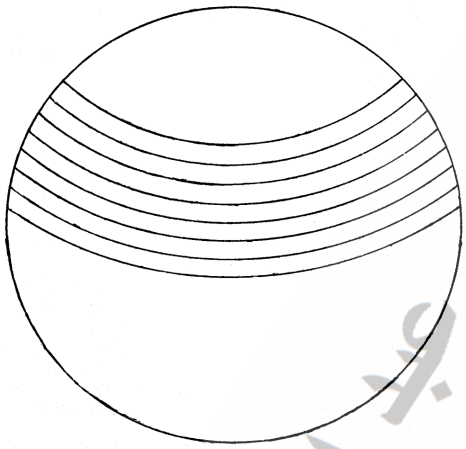

المصدر: الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

الشكل 02: أضاف ابن سعيد إقليمين جديدين أولها سمّاه بـ "المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب" والثاني سمّاه "المعمور في شمالي الأقاليم السبعة ":

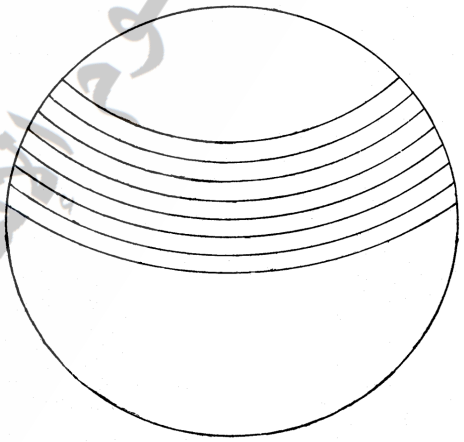

رسم توضيحي يبيّن موقع بلاد السودان في التقسيم الإقليمي للعالم عن ابن سعيد.

المصدر: ابن سعيد، الجغرافية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم: 13

خريطة للطريق التي سلكها ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد السودان

المصدر: ابن بطوطة، تحفة النظار.

ملحق رقم: 14.

يمثّل هذا الملحق توزيعا للعدد الإجمالي للمصادر الجغرافية على أصناف التدوين الجغرافي في الفترة الزمنية الممتدة من القرن (2هـ/7م) حتى فترة القرن (8هـ/14م)

أصناف المصادر الجغرافية	الجغرافيا الفلكية	الجغرافية الوصفية	المعاجم	الموسوعات	الرحلات
عدد المصادر	05	14	03	03	01
العدد الإجمالي للمصادر	26				

جدول يمثّل توزيع المصادر الجغرافية على أصناف التدوين الجغرافي في الفترة الزمنية من ق (2هـ/7م) حتى ق (8هـ/14م):

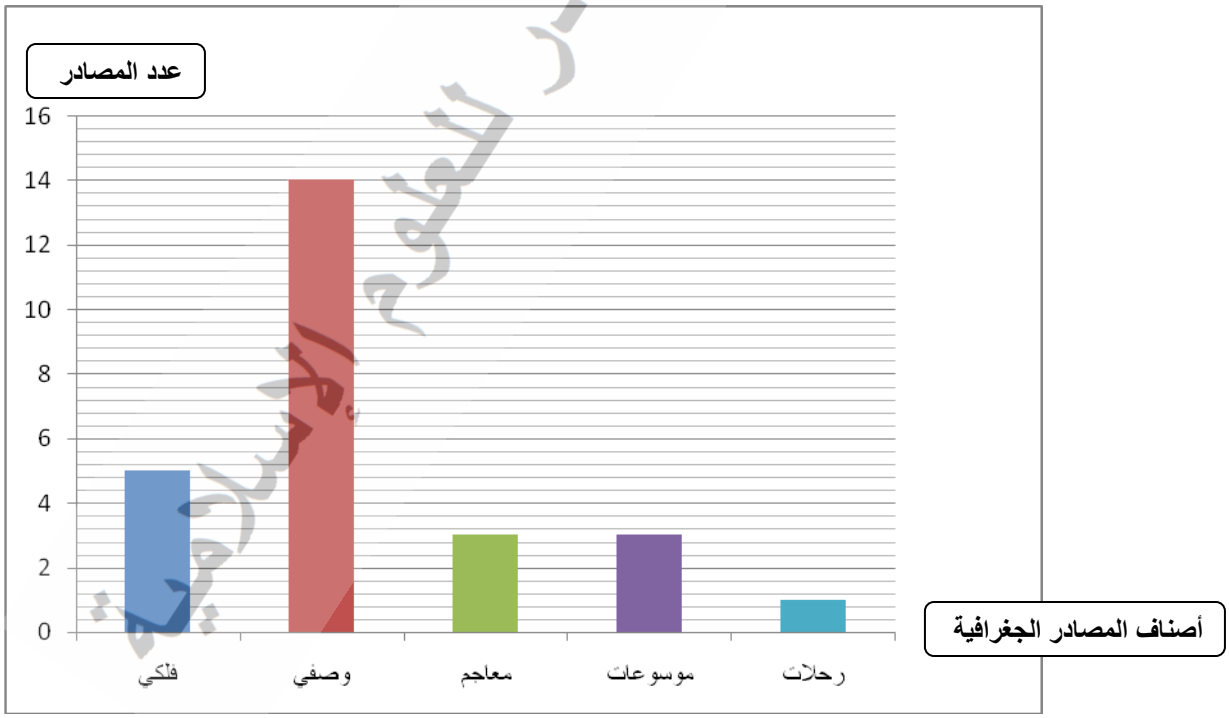

رسم بياني يمثّل توزيع المصادر الجغرافية على أصناف التدوين الجغرافي في الفترة الزمنية من ق (2هـ/7م) حتى ق (8هـ/14م).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم: 15.

القرون / أنواع المصادر	ق 02هـ/08م	ق03هـ/09م	ق04هـ/10م	ق05هـ/11م	ق06هـ/12م	ق07هـ/13م	ق08هـ/14م
جغرافيا فلكية	01	03	02	/	/	/	01
جغرافيا وصفية	/	03	05	01	03	01	
المعاجم	/	/	/	/	/	02	01
الموسوعات	/	/	/	/	/	/	03
الرحلات	/	/	/	/	/	/	01
عدد المصادر الإجمالي	01	06	07	01	03	03	06

جدول يمثّل توزيع أصناف الكتابات الجغرافية على القرون ابتداء من القرن (2هـ/7م) حتى القرن (8هـ/14م):

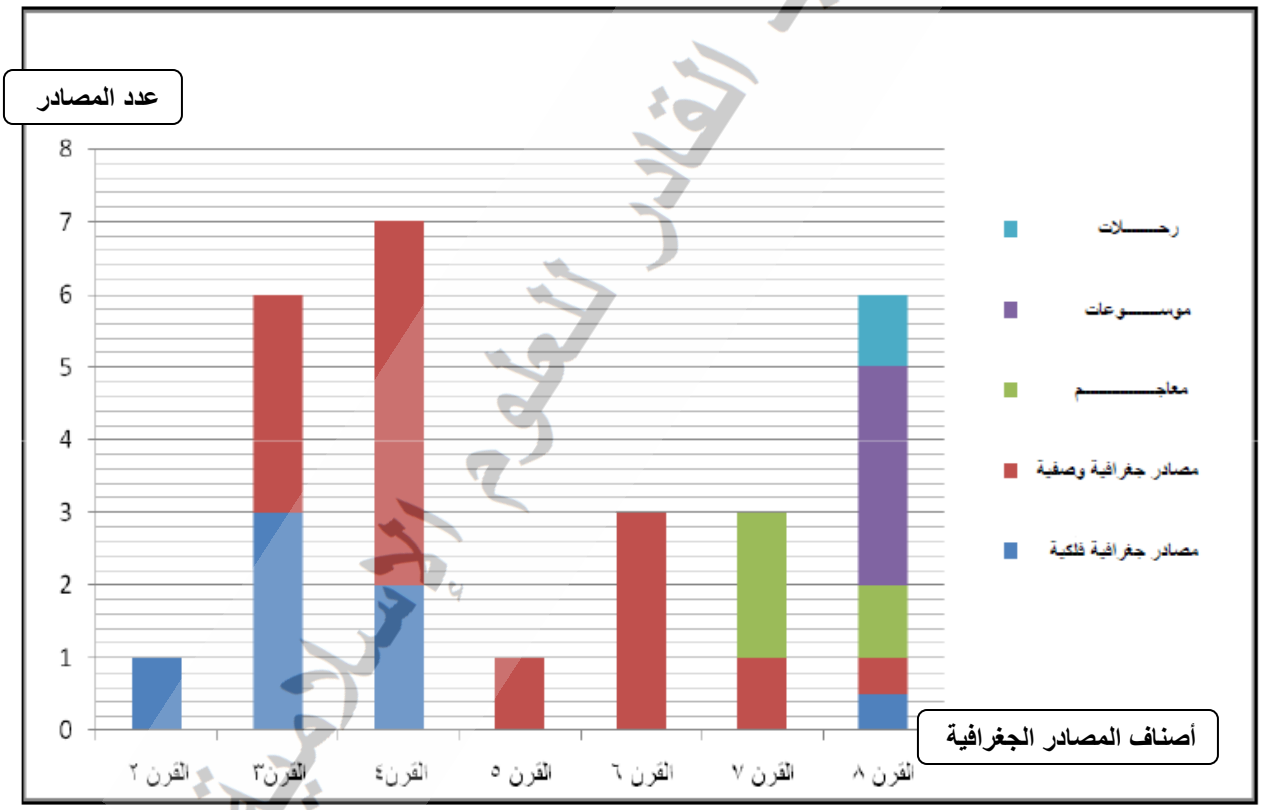

رسم بياني يمثّل توزيع أصناف الكتابات الجغرافية على القرون ابتداء من القرن (2هـ/7م) حتى القرن (8هـ/14م):

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم : رواية ورش .

- المصادر :

1) ابن أبي زرع علي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، 1972م.

2) ابن الأثير أبي الحسن علي بن أبي الكرم بن محمد الشيباني : الكامل في التاريخ ، تح ، أبي الفدا عبد الله القاضي ، بيروت ،دار الكتب العلمية ،1987م.

3) ابن الخطيب لسان الدين : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تح ، يوسف علي طويل ، لبنان – بيروت ، دار الكتب العلمية ، 2003م .

4) نفسه: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تونس ، مطبعة التقدم الإسلامية ، د.ت .

5) ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين ، تح ، محمد ناصر وإبراهيم بحاز ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي، 1986م.

6) ابن الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني: مختصر كتاب البلدان ، دي خوييه ،ليدن ، بريل ، 1885 م.

7) ابن النديم محمد ابن إسحاق: كتاب الفهرست ، تح رضا تجدد .

8) ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، لجنة من الأدباء ، مصر ، المكتبة التجارية الكبرى ، 1958م.

9) ابن جبير محمد بن أحمد : رحلة ابن جبير ، لبنان ، دار الكتاب اللبناني ، لبنان .

10) ابن حزم أبو محمد علي بن أحمدبن سعيد: جمهرة أنساب العرب ، تح ، عبد السلام محمد هارون ، ط 5، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت .

11) ابن حوقل أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض ، بيروت – لبنان ، منشورات دار مكتبة الحياة ، 1992م .

12) نفسه : المسالك والممالك ، ، تح ، دي خوييه، ليدن- هولندا ، مطبعة بريل ، 1872م.

13) ابن خرداذبه أبو القاسم عبد الله : المسالك والممالك ويليه نبذ من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، تح ، دي خوييه ، ليدين ، بريل ، 1889م.

14) ابن خلدون عبد الرحمن :ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن ، ضبط المتن خليل شحادة مراجعة سهيل زكار ، بيروت ، دار الفكر ، 2000م.

15) ابن رسته أبي علي أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة ، دي خوييه ، ليدن ، مطبعة بريل ، 1892 م.

16) ابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى: كتاب الجغرافيا ، إسماعيل العربي ، ط 2 ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982م.

17) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تح ، علي محمد البجاوي ، بيروت ، دار الجيل، 1996م .

18) ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر والمغرب ، تح ، عبد المنعم عامر ، القاهرة ، شركة الأمل للطباعة والنشر، د.ت .

19) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تح ، ج.س.كولان و ليفي بروفينسال ، ط 3 ، بيروت ، دار الثقافة ، 1983م.

20) ابن عساكر الدمشقي: تاريخ دمشق ، تح ، علي شيري ، بيروت ، دار الفكر ، 1998م.

21) ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم: كتاب المعارف ، تح ، دكتور ثروت عكاشة ، القاهرة ، دار المعارف.

22) ابن كثير : البداية والنهاية ،تح ، علي شيري ، دار إحياء التراث العربي ،1988 م .

23) أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء إشراف محمد حجي ، الرباط ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، 1981م.

24) أبو الفداء عماد الدين بن إسماعيل بن محمد بن عمر: تقويم البلدان . تح ، رينو والبارون دوسلان ، باريس ، دار الطباعة السلطانية ، 1840م.

25) أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي: كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزدادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، تح ، بشير بكوش ، ط 2، بيروت – لبنان ، دار الغرب الإسلامي ، 1994م.

26) الإدريسي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، تح ، مجموعة علماء ،مصر ، مكتبة الثقافة الدينية ، د .ت .

27) الأصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي: مسالك الممالك ، تح ، دي خوييه ، ليدن ، مطابع بريل ، 1927م.

28) الأندلسي أبو الحسن: تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) ، ط 5، لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ، 1983م .

29) البكري أبو عبيد الله : المسالك والممالك ، تح ، جمال طلبة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 2003م.

30) نفسه : المسالك والممالك ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، 1992م.

31) نفسه : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تح ، مصطفى السقا ، بيروت ، عالم الكتب ، 1983 م.

32) نفسه : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، القاهرة ، دار الكتاب الإسلامي ، نشر الماريشال كومت راندون .

33) البلاذري أبو العباس أحمد بن يحي بن جابر : فتوح البلدان ، تح ، عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، بيروت ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، 1987م .

34) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بيروت – لبنان ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت

35) الحسن المهلبي : الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك ، جمعه تيسير خلف ، دمشق ، التكوين للطباعة والنشر ، 2006م .

36) الحميري محمد بن عبد المنعم : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح ، إحسان عباس ، ط 2، بيروت ، مكتبة لبنان ، 1984م.

37) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط ،تح ، أكرم ضياء العمري ، ط 2، الرياض ،دار طيبة للنشر ، 1985 م.

38) الخوارزمي أبو موسى: صورة الأرض ، هانس فون مجيك ، فيينا ، مطبعة أدولف هولزهوزن ، 1926م.

39) الدرجيني أبو العباس ، طبقات المشايخ ، تح ، إبراهيم طلاي ، قسنطينة ، دار البعث ، 1974 .

40) الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد : العبر في خبر من غبر ، تح ، محمد السعيد زغلول ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1985م.

41) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، الهند ، مطبعة نخبة الأخيار ، 1888م .

42) الرقيق القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم : تاريخ إفريقية والمغرب، تح، عبد الله العلي وعز الدين أحمد موسى ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،1990م.

43) الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر : ا لجبال و الأمكنة و المياه ، تح ، جين بول ، ليدن ، مطبعة بريل ، 1855.

44) الزهري أبي عبد الله محمد بن أبي بكر : كتاب الجغرافية ، تح ، محمد حاج صادق ، بور سعيد ، مكتبة الثقافة الدينية.

45) الصفدي صلاح الدين : الوافي بالوفيات ، تح ، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، بيروت ، دار إحياء التراث ، 2000م.

46) الطبري محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1987م.

47) العسقلاني شهاب الدين : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تح ، محمد عبد المعيد ضان ، مجلس دائرة المعارف العثمانية .

48) العكري عبد الحي بن أحمد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تح ، محمد الأرناؤوط ، بيروت ، دار ابن كثير ، 1986م .

49) العمري أحمد بن يحي بن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، أحمد عبد القادر الشاذلي ،أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، 2002م.

50) نفسه : التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ، مطبعة العاصمة ، 1895م.

51) القزويني زكرياء بن محمد بن محمود : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، دار صادر .

52) القلقشندي أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تح ، يوسف علي طويل ، دمشق ، دار الفكر ، 1987م.

53) الكتبي محمد بن شاكر : فوات الوفيات ، تح : إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ج12 ، د.ت.

54) مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق ، سعد زغلول عبد الحميد ، العراق ، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) ، 1986 م.

55) المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي : أخبار الزمان ، عبد الحميد أحمد حنفي، العراق ، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي ، 1938م.

56) نفسه : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تح ، محمد محي الدين عبد الحميد ، ط 5، بيروت ، دار الفكر ، 1973م.

57) نفسه : كتاب التنبيه والإشراف ، ليدن – هولندا ، مطبعة بريل ، 1893م .

58) المقدسي ابن طاهر: البدء والتاريخ ، مكتبة الثقافة الدينية ، د.ت .

59) المقدسي شمس الدين أبي عبد الله محمد : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط 2، تح .دي خوييه ، ليدن ، مطبعة بريل ، 1906م.

60) المقرّي أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تح ، إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، 1968م.

61) المقريزي تقي الدين أحمد بن علي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تح ، جمال الدين الشيال ، بور سعيد ، مكتبة الثقافة الدينية ، 2000م .

62) نفسه : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت- لبنان ، دار الكتب العلمية , 1998م .

63) نفسه : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تح ، محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ، مطابع الأهرام التجارية ، 1981م .

64) الناصري أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ، 1997م.

65) النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تح ، مفيد قمحية وجماعة ، بيروت – لبنان ، دار الكتب العلمية ، 2004 م.

66) الهمذاني الحسن بن أحمد بن يعقوب : صفة جزيرة العرب ، محمد بن علي الأكوع الحوالي ، صنعاء ، مكتبة الإرشاد ، 1990م .

67) الوزان الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، ت , محمد حجي و محمد الأخضر ، ط 2، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1983م.

68) الوسياني أبو الربيع : السير ، تح: عمر بن لقمان حمو بوعصبانة ، سلطنة عمان ، وزارة التراث و الثقافة ، 2009م.

69) اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، القاهرة ، دار الكتاب الإسلامي ، 1993 م .

70) اليعقوبي أحمد بن أحمد بن أبي يعقوب بن واضح : البلدان ، تح جوين بول ، ليدن – هولندا ، مطبعة بريل ، 1860م.

71) نفسه : تاريخ اليعقوبي ، خليل المنصور ، ط2، بيروت – لبنان , دار الكتب العلمية ، 2002 م.

ب- المراجع :

1) إبراهيم على طرخان : دولة مالي الإسلامية دراسات في التاريخ القومي الإفريقي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1973 .

2) إبراهيم بحاز : الدولة الرستمية (160هـ-296هـ)(777م – 909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية ، الجزائر ، دار ألفا ، ط3، 2010 .

3) أحمد الخفاف و محمد عقلة المومني : دراسات في التراث الجغرافي العربي الإسلامي ، الأردن ، دار الكندي ، 2000م .

4) أحمد الشكري : الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1230م- 1430م ، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، 1999م .

5) نفسه : مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة ؟) ، الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة ، 1997م.

6) أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية ، تح ، أبو عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني ، المدينة المنورة ، المكتبة العلمية ، د.ت.

7) أحمد نجم الدين فليجة : أفريقيا دراسة عامة وإقليمية ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، د. ت.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

8) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ،ت،عبد الهادي أبو ريدة ،ط3، القاهرة ،1953م .

9) اغناطيوس كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ت. صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1963م.

10) أندريه مايكل : جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر ، ت. إبراهيم خوري ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، 1983م .

11) بوفيل : تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ت ، الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز ، ط 2، بنغازي ،منشورات جامعة قاريونس ، 1988م.

12) ج. هوبكنز : التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية ، ت ، أحمد فؤاد بلبع ، المكتبة الأعلى للثقافة ، 1998م .

13) جامعة الإمام محمد بن سعود : بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول ، الرياض ،إدارة الثقافة والنشر بالجامعة ، 1984.

14) جمال الفندي : الجغرافيا عند المسلمين ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1982م .

15) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ،الكويت ، دار الفكر العربي ، 1996م .

16) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط4، دار الساقي ،2001 م.

17) جودت عبد الكريم : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984م .

18) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ط2، مدريد ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، مكتبة مدبولى ، 1986 م.

19) نفسه : ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل ، القاهرة ، دار المعارف ، 1980م .

20) الزرقاني : شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1991م.

21) الزركلي: الأعلام ، ط5، دار العلم للملايين ، 2002 م.

22) زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، بيروت ، دار الرائد العربي ، 1981م.

23) سيد حامد النساج : مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا ، القاهرة ، دار غريب ، د,ت .

24) شاكر خصباك : الجغرافيا عند العرب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1986م .

25) شوقي عبد القوى عثمان : التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك ،(1250م – 1517م) ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2000م.
26) عبد الحكم عبد اللطيف : الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها ، مصر ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، 1996م.
27) عبد الرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ، دمشق ، دار الفكر ، 1995م.
28) عبد القادر زبادية : دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2010 .
29) عبد الله الدفاع : رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية ، مكتبة التوبة ، د.ت .
30) نفسه : رواد علم الفلك في الحضارة العربية والإسلامية ، ط2، الرياض ، مكتبة التوبة ، 1993م.
31) عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب ، ط5 ، الدار البيضاء – المغرب ، المركز الثقافي العربي ، 1996م .
32) عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، بيروت ، دار الشروق ، 1983.
33) عصمت عبد اللطيف دندش : دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (430هـ ، 515 هـ / 1038م، 1121م) مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1988م.
34) عطية مخزوم الفيتوري : دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء(مرحلة انتشار الإسلام) ، بنغاري ، منشورات جامعة قاريونس ، 1998م.
35) عيسى الحريري : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610هـ/1213م)(869هـ/1465م) ،ط2، الكويت، دار القلم ، 1987م .
36) فتحي عبد العزير : الجغرافية العلمية ومبادئ قراءة الخرائط ، بيروت ، دار النهضة العربية ، 1998م.
37) فج .جي .دي : تاريخ غرب إفريقيا ،ت.يوسف نصر ، القاهرة ، دار المعارف ،1982م .
38) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ت ، عبد الحليم النجار ، ط5، القاهرة ، دار المعارف ،د.ت .
39) كارلو نلينو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، ط 2 ، مكتبة الدار العربية للكتاب، بيروت 1993م .
40) كولين ماكيفيدي : أطلس التاريخ الإفريقي ،ت ،مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1987م .

41) اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونيسكو) : تاريخ إفريقيا العام ، تورينو – إيطاليا ، مطابع كانالي ، 1985 م.

42) م.ف. مينورسكي : الجغرافيون والرحالة المسلمون ، ت . عبد الرحمن بن حميدة ، الكويت ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، 1985م .

43) محمد أحمد ترحيني : المؤرخون والتأريخ عند العرب ، بيروت- لبنان ، دار الكتب العلمية ، د.ت .

44) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية التاريخ السياسي 184-296هـ/ 800-909م ،ت. المنجي الصيادي ،ط2، 1995، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1995م .

45) محمد الفلاتي : الفلاتة في أفريقيا ومساهمتهم الإسلامية في والتنموية في السودان ، الكويت ، دار الكتاب الحديث ، 1994م .

46) محمد بن شريفة : إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان ، الرباط ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط ، 1991م.

47) محمد صالح ناصر : دور الأباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا ،سلطنة عمان ، الدار العمانية النشر والتوزيع ، د.ت .

48) محمد عبد الغني حسن : الشريف الإدريسي أشهر جغرافيي العرب والإسلام ، القاهرة ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، 1971م.

49) محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري ، ط 2، الدار البيضاء – المغرب ، دار الثقافة ، 1985م .

50) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية الخرطوم 30/28يوليو/تموز 1983 ،بغداد ،معهد البحوث والدراسات العربية ، 1985 .

51) المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة : تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر ، بغداد ، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، 1984م .

52) موريس لومبارد : الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ترجمة عبد الرحمن حميدة ، ط1 ،دار الفكر ، دمشق 1982م.

53) النابي ولد الحسين : صحراء الملثمين ، دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط . من منتصف القرن2هـ/8م إلى نهاية القرن 5هـ/11م ، بيروت ، دار المدار الإسلامي ، 2007م.

54) نبيلة حسن محمد : في تاريخ أفريقية الإسلامية انتشار الإسلام في السودان الغربي من القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجري ،دار المعرفة الجامعية ،2007م .

55) نفسه : في تاريخ الحضارة الإسلامية ،دار المعرفة الجامعية.

56) نور الدين عتر: منهج النقد في علوم الحديث ، دمشق–سورية ، دار الفكر ، 1997م .

57) نيقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت – لبنان ، الشركة العالمية للكتاب ، 1987م .

58) هيرودوت : تاريخ هيرودوت :ت ، عبد الإله الملاح ، أبو ظبي – الإمارات ، منشورات المجمع الثقافي ، 2002م .

59) Joseph Cuoq , Recueil Des Source Arabes Concernant L'Afrique Occidentale Du 8e au 16e siécle , Editions Du Centre National De la Recherche scientifique , France , 1975 .

رسائل جامعية :

1) بان على محمد البياتي ، النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال (القرن 3-5هـ/9-11م)، مذكرة ماجستير آداب في تاريخ المغرب الإسلامي ، إشراف ، صباح إبراهيم الشيخلي ، جامعة بغداد ، 2004م.

2) خالدي مسعود : الجاليات العربية والبربرية في إفريقيا جنوب الصحراء (السودان الأوسط والغربي) بين القرنين الخامس والعاشر هجريين الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين ، إشراف ، مسعود مزهودي, جامعة الأمير عبد القادر ، 2008 .

3) طاهر سبع : دور مدرسة المدينة في الكتابة التاريخية من خلال أبرز مؤرخيها حتى مطلع القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي ، مذكرة ماجستير ، إشراف ، موسى لقبال ، جامعة الجزائر ، 2002 م.

المقالات :

باللغة العربية:

1) سعود بن حمد الخثلان : << المستشرق ترمنجهام ومنهجه في دراسة انتشار الإسلام في غرب إفريقيا وموقفه من الإسلام والمسلمين >> ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز : الآداب والعلوم الإنسانية م 9(1996م) ص ص 195- 246.

2) عمارة علاوة : << الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط >>، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، 04 (2004م) ص ص 31- 75.

3) محمد الأمين بلغيث : << مشاركة يهود الأندلس الاقتصادية في عصر المرابطين ودورهم في نقل المعرفة الإسلامية إلى الغرب >>، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية،ع6 (2005) ص ص 21- 62.

باللغات الأجنبية:

- 1) Nehemia Levtzion ,<< Ibn-hawgal , The Cheque , And Awdaghost >> , *The Journal African History* , Vol , 9 , No , 2 (1968) , pp. 223-233 .
- 2) Tadeusz Lewicki,<< L'ètat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental a la fin du 8e et au 9e siècle>>*, Cahiers d'ètudes Africaines*, Vol , 2 , Cahier 8 (1962) , pp , 513- 535 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خـــطة الـــبحث

مقـــــــــدمة.....**أ- ك**

الفصل الأول : التطلعات العربية لاكتشاف مجاهل بلاد السودان من ق (2هـ/8م) حتى منتصف ق (5هـ/11م)..... 01 – 69.

المبحث الأول: صلة المسلمين ببلاد السودان ودورها في تحقيق المعرفة عن هذه المنطقة.....**02 – 19**

-إبراز مساهمة الفتوحات الإسلامية في تحقيق المعرفة .....02 – 08 .

-أهمية الدعوة الإسلامية في تحقيق المعرفة الجغرافية عن بلاد السودان..... 08 – 14 .

- مساهمة العلاقات المغربية السودانية في تحقيق المعرفةالجغرافية .....14 – 19 .

المبحث الثاني : مساهمة أصناف المصادر الجغرافية في الفترة الزمنية من ق (2هـ/8م) حتى منتصف ق (5هـ/11م) في التعريف ببلاد السودان .....**20 – 32** .

-تبلور الكتابة الجغرافية عند المسلمين .....20- 23 .

-مساهمة مصادر الجغرافية الفلكية في التعريف ببلاد السودان .....23 – 25 .

-مساهمة مصادر الجغرافية الوصفية في التعريف ببلاد السودان .....26 – 29 .

-تقييم المصادر الجغرافية في الفترة الممتدة من ق (2هـ/8م) حتى منتصف ق (5هـ/11م)...30-32.

ب -تقييم مصنفات الجغرافية الفلكية .....30 – 31 .

ت -تقييم مصنفات الجغرافية الوصفية .....31 – 32 .

المبحث الثالث : مصادر أخبار جغرافيي المرحلة الأول عن بلاد السودان.....**33 – 45**.

المبحث الرابع : نوع المعرفة المحصّلة عن بلاد السودان في المصادر الجغرافية حتى منتصف القرن (5هـ/11م) ..... 46 – 69 .

-المعرفة المحصلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان حتى القرن (2هـ/8م)..... 49 – 51 .

-المعرفة المحصّلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في القرن (3هـ/9م)..... 51 – 58 .

-المعرفة المحصلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في القرن (4 هـ/10 م)..... 59 – 69 .

الفصل الثاني : تطور المعرفة العربية عن بلاد السودان من منتصف ق (5هـ/11م) حتى ق (8هـ/14م)..... 70 ـ 126.

المبحث الأول : العوامل المساعدة على تطور المعرفة عن بلاد السودان ..... 71 – 89 .

1 - النشاط التجاري ..... 75- 78 .

أ - الرحلات التجارية ..... 79 – 80 .

ب - السفريات السياسية ..... 80 – 80 .

ت - السفريات السياحية..... 81- 81

2 - نشر الإسلام. ..... 81 – 89 .

أ - رحلات الحج ..... 85 – 88 .

ب - رحلات العلماء والفقهاء من وإلى المنطقة ..... 88 – 89 .

المبحث الثاني : مساهمة أصناف المصادر الجغرافية في الفترة الزمنية من (5هـ/11م، 8هـ/14م) في التعريف ببلاد السودان ..... 90 – 100.

ب - المنهج الجغرافي الوصفي 91- 95

.

1 -منهج وصفي بلداني ..... 91 – 92 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 منهج وصفي إقليمي .....92 – 95 .

ت – المعاجم الجغرافية. .....95 – 97 .

ث – الموسوعات الكبرى ..... 97 – 98 .

ج الرحلات.....98 – 100 .

المبحث الثالث : مصادر أخبار جغرافيي المرحلة الثانية عن بلاد السودان..... 100–115

المبحث الرابع : التجديد ونقاط ارتكاز المعرفة العربية عن بلاد السودان في المصادر الجغرافية العربية من منتصف القرن (5هـ/11م) حتى ق (8هـ/14م).....115 – 126.

-المعرفة المحصّلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في النصف الثاني للقرن (5هـ/11م) .....

.....116- 119 .

-المعرفة المحصلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في القرن (6 هـ/12م). .....119 – 121 .

-المعرفة المحصّلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في القرن (7 هـ/13م) .....121 – 124 .

-المعرفة المحصلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان في القرن (8 هـ/14م) .....124- 127 .

خـــــــــاتمة.....128 – 132.

الملاحق.....133 – 148.

قائمة المصادر والمراجع.....149 – 160.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية